النشاط الصهيوني بتونس

1897 - 1948

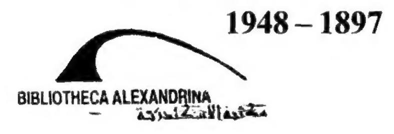
الهادي التيمومي



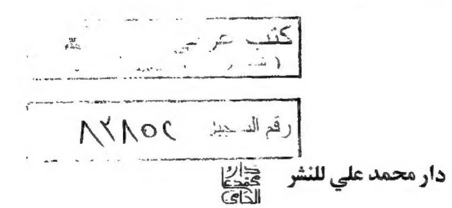
د. الهادي التيمومي

النشاط الصهيوني بتونس

1948 - 1897



تقديم : محمود درويش



رقم التسجيل ٨٢٨٥٠

دار محمد علي للنشر



- العنوان : النشاط الصهيوني بتونس
1897- 1948

- تأليف : الهادي المقدم المعروف بالتيمومي

- الطبعة : الثانية أوت 2001

- نشر : دار محمد علي الحامي

40 شارع الشابي 3000 — صفاقس – تونس

هاتف: 229322 -04 الفاكس : 211552 - 04

Email : caeu@gnet.tn

- تصميم الغلاف : منير الشعراني

- رقم الناشر : 120- 01/380

- الترقيم الدولي : ISBN: 9973-33-018 -8

الطبعة الأولى: **1983** دار محمد علي للنشر

©حقوق الطبع محفوظة

إلى أطفال الحجارة في فلسطين

تقديـــم

الشاعر محمود درويش

يحرضنا الدكتور الهادي التيمومي، في بحثه الممتاز عن الحركة الصهيونية في تونس، على وضع "المسألة اليهودية" في تاريخ المجتمعات التي عاش فيها اليهود، وليس خارج التاريخ وفي خصائص العرق... مما قد يدفع الباحث، إذا ما انساق وراء هذه السهولة إلى عنصرية ترتكب "صهيونية بريئة" بإلتقائه مع غيبية الفكر الصهيوني وخرافته.

وإذا كانت الحركة الصهيونية في تونس حركة هامشية في الكثير من مراحلها، بمقياس علاقتها بالوعي اليهودي العام، وبمدى الدور الذي احتلته في مجمل الحركة الصهيونية العالمية، فان ذلك يعود إلى خلو الحياة الاجتماعية والسياسية التونسية من المناخ الصالح لاغتراب اليهودي عن مجتمعه، ولوقوع المجتمع التونسي بكل طوائفه في صراع مع احتلال أجنبي لم يتمكن لاسباب متذبذبة، أن يحوله إلى صراع داخلي بين العرب واليهود، إلا بقدر ما كانت المسألة تنسجم مع العامل الاقتصادي الذي كان هو المحدد الرئيسي للعلاقة بين عرب تونس ويهودها.

ويدلنا الدكتور التيمومي على مدى حاجة الحركة الصهيونية إلى الاضطهاد وتضييق الخناق على اليهود في مجتمعاتهم لكي يتحول الوطن، أي وطن بعيد عن فلسطين، إلى سجن ومنفى. وبهذه الطريقة وحدها، طريق الانفصال النهائي بين اليهود ووطنه، يمكن اصطناع الوطن اليهودي على أرض فلسطين.

لذلك، لم تكن الصهيونية حركة "جماهيرية" بين يهود تونس إلا في الفترة التي وقعت فيها البلاد التونسية تحت السيطرة النازية، وتعرض فيها اليهود إلى ملاحقة قوات الاحتلال النازية، فجرتهم إلى اعتناق الصهيونية، "الأمل" الوحيد للخلاص من

عذاب القمع، والطريق إلى "أرض اللبن والعسل" و "الأمن".

يقول الدكتور التيمومي أن القفزة الكمية الكبيرة التي حققتها الحركة الصهيونية بعد الركود النسبي الذي عانت منه طويلا يعود إلى عاملين اثنين هما:

- الاحتلال النازى لتونس وما نجم عنه من اضطهاد لليهود فاق في حدته كل أنواع الاضطهاد التي عرفوها في السابق.

- قيام دولة "اسرائيل"

إن معيار نجاح الحركة الصهيونية في تونس في تلك الفترة، - وهو المعيار الأول لصهيونية الصهيوني، سواء كانت صهيونية إيديولوجية واعية، أو كانت صهيونية تضليل أو وعي زائف، - هو: الهجرة إلى فلسطين.

ولا يبدو لي أنّ قيمة الدراسة التي يقدمها الدكتور التيمومي تنحصر في ملاحقة تطور الحركة الصهيونية في تونس، أو أوضاع اليهود فيها، بل تتجاوزها إلى دراسة الوضع الإجتماعي والسياسي في تونس أثناء الفترة قيد الدرس، وهو يشرح الأوضاع بأدوات علمية حديثة.

ولعل في دراسة التيمومي ما يحرض الباحثين العرب على دراسة الحركة الصهيونية في البلاد العربية التي نشأت فيها حركة صهيونية استطاعت، بنشاطها وإهمالنا، أن ترفد الدولة الصهيونية بالأيدي العاملة في ميدان العمل وفي ميدان الحرب، وأن تنجز بناء القلعة العسكرية التي تعيق تطورنا الحر منذ ما يزيد عن ثلاثين سنة...

فهرس الموضوعات

توطئـــة

صـدرت الطبـعـة الأولى من هذا الكتـاب عـام 1981 بعد مشـاكل عـويصـة مع الرقابة، وإذ أقدم اليوم على إعادة نشره، فلأنّ العشرين سنة التي مضت على صدوره لم تزدني إلاّ اقتناعًا بتهافت المشروع الصهيوني المدعوم من المعسكر الامبريالي وبعدالة النضال الوطني الفلسطيني. إلاّ أن إيماني بعدالة النضال الوطني الفلسطيني لا يعني أبدًا أنني قد ألجأ إلى تحريف التاريخ. إنّ من حقي أن أحبّ فلسطين بصفتها جزءًا من كياني، لكن ليس من حقّي أن أكذب لصالحها، لأنّ الحقيقة وحدها ثورية كما قال ماركس، والحق الفلسطيني سيعلُو و إن طال الزمان لأنه الحقيقة التي لا يتسرب إليها أدنى ريب.

لقد حاولتُ في هذه الدراسة سدّ ثغرة أو جزءٍ من ثغرة في المكتبة التونسيّة. وغنيّ عن القول إنّ دراستي هذه لا يمكن أبداً أن تكون دراسة الأحكام الجازمة والاستنتاجات القاطعة، ولعلّ القراء الذين يحذقون صناعة علم التاريخ أن يروا في هذه الدراسة رأيًا، والأمل هو القول الجاد المنصف بذكر الايجابيّات وكذلك النقائص لأنّ الكامل عزيز والبريء من الآفات معدوم على حدّ قول أبي حيان التوحيدي في امتاعه، وأنا أعتذر مسبقا عن كل تقصير بدا منّي نتيجة حُجّة لم أوردها أو فكرة غابت عن خاطري، فهذه الدراسة تبقى محكومة بمحدودية المصادر والمراجع التي وقع اعتمادها والتي لا تسمح مع الأسف باستجلاء كل أجزاء الحقيقة حول الموضوع المطروح.

ولا يفوتني في ختام هذه التوطئة توجيه الشكر إلى كل الذين آزروني سواء بالتشجيع ورفع المعنويّات وحفز الهمّة، أو بالنقد والتقويم والترشيد وخاصة السيّد النوري عبيد مدير دار محمد علي الحامي الغرّاء (صفاقس - الجمهورية التونسية)،

والمجد للثورة الفلسطينية، وعاش علم التاريخ ظافرا منصورا ./.

المصادر والمراجع

***

المصادر

المصادر التي وقع الاعتماد عليها محفوظة في مركز الوثائق العامة للحكومة التونسية التابع للوزارة الأولى (الأرشيف الوطني التونسي حاليا، شارع 9 أفريل 1938 بتونس)

(1) نشريات رسمية (باللغة الفرنسية) :

أصدرت سلطات الاحتلال الفرنسي في تونس، وهي :

- الاحصائيات العامة للبلاد التونسية (1911 - 1946)
- الرائد الرسمي التونسي (1911 - 1948)
- التقارير السنوية عن تونس، الموجهة إلى رؤساء الجمهورية الفرنسية (1890-1925) (1926 - 1948)
- محاضر جلسات "الندوة الاستشارية" بتونس (1896-1921)
- محاضر جلسات "المجلس الكبير للبلاد التونسية" (1922-1948)
- محاضر جلسات مختلف الحجرات التجارية والصناعية (1895-1956)

(2) تقارير المديريات العامة الفرنسية (مثل مديرية الاقتصادية أو مديرية التعليم) (باللغة الفرنسية) :

يمكن للباحث أن يستقي من بين سطور هذه التقارير أشتاتا من المعلومات حول نشاط يهود تونس على مختلف المستويات : الاقتصادي والثقافي والتعليمي في الفترة بين 1881 و 1956 .

(3) تقارير مصالح الاستعلامات الفرنسية في تونس (باللغة الفرنسية) :

الكثير من هذه التقارير غير مفهرس بدقة. ويجد الباحث صعوبة في التوصل إلى ما يريد. ثم إنّ اهتمامها كان منصبا على حوادث الصّدام المتعددة التي كانت تنشب بين اليهود من جهة والمسلمين والفرنسيين من جهة ثانية، وهي لا تتطرق إلى الحركة الصهيونية إلاّ في الفترات التي يتورط فيها الصهاينة في حوادث تنال من الأمن العام. أما المعلومات التي تقدمها عن الحركة الصهيونية فعامة جدا، إلاّ فيما يتعلق بمراسلات صهاينة تونس مع الخارج في فترة الحرب العالمية الأولى.

(4) النشرية الرسمية لمجلس الطائفة اليهودية بتونس(باللغة الفرنسية):

صدرت منها ثلاثة أعداد فقط في الفترة التي تمسحها هذه الدراسة، وهي أعداد 1926 و1930 و(1934-35)، وهي محدودة الفائدة لانها لا تهتم إلا بالحياة الدينيّة والاجتماعية لليهود.

(5) الجرائد والنشريات الصهيونية في تونس :

أ) الجرائــد :

صدرت في تونس في الفتـرة بين 1897 وأوائل الخمسينات من هذا القرن أكثر من 30 جريدة يهودية ذات انتماء صهيوني واضح، وأغلبها ناطق بالفرنسيـة. وهذه الجرائد بالرغم من أن جل موادها كانت مسخرة لأخبار اليهود والصهاينة خارج تونس، فهي تنطوي على حقائق كثيرة حول الحياة الداخلية للحركة الصهيونية في تونس، لكنّ ما يجب ملاحظته هو أنّ هذه الجرائد لم تسلم من الاندثار الجزئي أو التام، وهذا يجعلنا في موضع لا يخلو من الافتراض والتخمين عندما نحاول معرفة تواريخ صدور هذه الجرائد، أو توقفها أو نسق صدورها (اسبوعية، نصف شهرية، شهرية...) كما أنه من الصعب وضع ثبت دقيق لكل الجرائد الصهيونية التي صدرت في الفترة المعنية بالدراسة، لأنّ هناك من الجرائد اليهودية التي اندثرت تماما ما كان يحمل أسماء لا توحي لأول وهلة بأنها صهيونية، إلاّ أن الشكّ يبقى مع ذلك قائما حول موقفها الحقيقي من الصهيونية.

ثبت تقريبي (هو بالضرورة أدنى من الواقع) للجرائد اليهودية ذات الإنتماء الصهيوني الواضح :		
اسم الجريدة	فترة الصدور التي اعتمدناها	لغتها
البستان	1904 - 1906	العبرية - عربية
الاتحاد	1904	"
الصباح	1904 - 1907 1912 - 1940	"
LE JUDAISME TUNISIEN ET NORD AFRICAIN	1912 - 1914	الفرنسية
LA VOIX DE SOIN	1913 - 1914	الفرنسية
مبشرات صيون	1913	العبرية - العربية
TUNISIA أصبحت تسمى بداية من 1919 L'EGALITE	1914 - 1939	الفرنسية
TUNIS REVUE	1916 - 1918	الفرنسية
كل صيون	1920	العبرية - العربية

العبرية - العربية	1920 - 1922	الوطن
الفرنسية	1907 - 1934	LA VOIX JUIVE
	1920 - 1927 1929 - 1930	LA VOIX D'ISRAEL
العبرية	1920 - 1929	LA CIVILISATION
الفرنسية	1921	LA VOIX D'ISRAEL
الفرنسية	1922	L'AVENIR SIONISTE
الفرنسية	1924 - 1925 (لا نعرف متى بدأت هذه النشرية تصدر)	LA REVUE ISRAELITE L'ANNUAIRE * سابقا SIONISTE
الفرنسية	1924 - 1933	LE REVEIL JUIF
الفرنسية	1926	L'ŒUVRE ISRAELITE
الفرنسية	1929	LA VOIX D'ISRAEL
الفرنسية	1933 - 1934	L'AURORE
الفرنسية	1933 - 1934	LA KADIMA
الفرنسية	1933	LE HALOUTZ
الفرنسية	1936	TEL AVIV
الفرنسية	1936	LA NOUVELLE AURORE
الفرنسية	1937 - 1939	LA SEMAINE JUIVE
الفرنسية	1937	LES CAHIERS DU BETAR
الفرنسية	1945 - 1951 1938 - 1939	LA GAZETTE D'ISRAEL
الفرنسية	1934 - 1945	LA VOIX JUIVE
الفرنسية	1950	LES NOUVELLES JUIVES

ب) النشريات الصهيونية في تونس :

عددها محدود جدا، وهي تحاليل نظرية ذات طابع سجالي أعدها أصحابها لخدمة أغراض الصراع العقائدي العنيف الذي كان يدور بين مختلف التيارات والمنظمات الصهيونية.

(6) جرائد يهودية صدرت في تونس :

علاوة على الجرائد الصهيونية - بملء معنى الكلمة - أصدر اليهود في تونس على امتداد الفترة بين 1881 و 1956 عشرات الجرائد التي كانت تعنى بشؤون اليهود المادية والدينية والثقافية. وقد اتسمت مواقف هذه الجرائد من الصهيونية باللامبالاة أو بالتعاطف الشاحب جدا. وسأكتفي هنا بذكر أسماء الجرائد التي استخرجت منها العديد من المعطيات الصالحة للموضوع المدروس.

اسم الجريدة	فترة الصدور التي اعتمدناها	لغتها
LA JUSTICE	1907 - 1934	الفرنسية
LE DEFENSEUR	1908 - 1911	الفرنسية
TUNIS SOIR	(1934-1942) (1944-1948)	الفرنسية
LE PETIT MATIN	1923 - 1948	الفرنسية

(7) جرائد أصدرها فرنسيون في تونس :

أكتفي بذكر الجريدتين الأكثر ذيوعا وهما :

- LA DEPECHE TUNISIENNE (1889 - 1948) وهي الناطق شبه الرسمي باسم سلطات الاحتلال الفرنسي في تونس.
- LA TUNISIE FRANCAISE (1892 - 1946) وهي جريدة غلاة الاستعماريين الفرنسيين في تونس.

(8) جرائد أصدرتها تنظيمات سياسية كانت لها مواقف من الصهيونية :

لن أقدم عرضا وافيا بكل الجرائد التي أصدرتها هذه التنظيمات، بل سأقتصر على ذكر الجرائد التي أفدت منها في هذه الدراسة.

أ - الحركة الشيوعية :

اسم الجريدة	فترة الصدور التي اعتمدناها	لغتها
L'AVENIR SOCIAL	1919 - 1944	الفرنسية
L'AVENIR DE LA TUNISIE	1944 - 1956	الفرنسية
الطليعة	(1937-1938) (1947-1952)	العربية

ب - الحركة الاشتراكية الديمقراطية :

- TUNIS SOCIALISTE (1945-1948) (1924-1940) بالفرنسية.

ج - الجزب الحر الدستوري التونسي :

الإرادة (1934) (1937-1940) (1948-1952) بالعربية.

د - جرائد متعاطفة مع الحزب الحر الدستوري التونسي :

اسم الجريدة	فترة الصدور التي اعتمدناها	لغتها
الزهرة	1911 - 1956	العربية
الوزير	1920 - 1956	الفرنسية
لسان الشعب	1921-1937	الفرنسية
LA VOIX DU TUNISIEN (بقيت متعاطفة مع الحزب حتى 1934 فقط)	1930 - 1937	الفرنسية

هـ - الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد :

اسم الجريدة	فترة الصدور التي اعتمدناها	لغتها
L'ACTION TUNISIENNE	(1932-1933) (1936-1938)	الفرنسية
العمل	(1934) (1937-1938)	العربية
MISSION	1948-1952	الفرنسية

(9) المصادر الشفوية :

مدتني ببعض المعلومات التي يعسر الحصول عليها بدون الاستعانة بذكريات أشخاص واكبوا أحداث هذه الدراسة أو شاركوا في صنعها.

المراجـع

(مرتبة حسب التسلسل الأبجدي لألقاب أصحابها ودون اعتبار (الـ) التعريف و "بن" و "أبو")

لا أريد أن أقدم كشفا ضافيا عن جميع المراجع التي لها مساس بمحتويات هذه الدراسة، وإنما سأكتفي بعرض المراجع التي ورد ذكرها في هذه الدراسة.

(1) المؤلفات العامة :

أ - باللغة العربية :

- ايفانوف (يوري) : احذروا الصهيونية، منشورات وكالة الأنباء نوفستي، موسكو، 1969.
- أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي (معهد الاستشراق) : تاريخ الأقطار العربية المعاصر (1917-1970) الجزء الثاني، (الفصل المتعلق بتونس) دار التقدم، موسكو، 1976.
- بورقيبة (الحبيب) : تونس وقضية فلسطين، كتابة الدولة للأخبار والارشاد، تونس، 1966.
- بوذينة (محمد) : مشاهير التونسيّين تونس، ط 2، 1992.
- بيرم (محمد الخامس) : القطر التونسي في صفوة الاعتبار، تحقيق الشنوفي ومنصور والمرزوقي، بيت الحكمة، تونس، 1989.
- التيمومي (الهادي) : تاريخ تونس الاجتماعي (1956-1981) ط2، تونس، دار محمد علي، 2001.
- دميتروف (جورجي) وآخرون : دراسات في الفاشية، تعريف جوزيف سماحة، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت 1973.
- زروق (أسعد) نظرة في أحزاب اسرائيل، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، 1966.
- الحشائشي (محمد بن عثمان) العادات والتقاليد التونسية (1904) تونس، دار سراس، 1994.
- الطويلي (أحمد) : الجنرال حسين : حياته وآثاره، تونس، 1994.
- يعقوب (محمد حافظ) : نظرة جديدة الى تاريخ القضية الفلسطينية (1918-1948) دار الطليعة، بيروت، 1973

- ليون (ابراهيم) : المفهوم المادي للمسألة اليهودية، دار الطليعة، ط 2، بيروت، 1973.

- ماركس (كارل) : المسألة اليهودية، تعريف محمد عيتاني، مكتبة المعارف، بيروت، 1956.

- المدني (أحمد توفيق) : حياة كفاح جزء 1، الجزائر، 1976.

- العارف (عارف) : النكبة، نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود، الجزء 6، بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 1956.

- بن عاشور (محمد الفاضل) : الحركة الأدبيّة والفكرية في تونس، جامعة الدول العربيّة، القاهرة، 1956.

- علوش (ناجي) : الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية (1882-1948) دار الطليعة، بيروت، ط 2 ، 1978.

- العظم (صادق جلال): الصهيونية والصراع الطبقي دار العودة، بيروت، 1975.

- العظمة (عزيز) : اليسار الصهيوني من بدايته حتى اعلان دولة اسرائيل، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1969.

- قزدغلي (حبيب) : تطور الحركة الشيوعيّة بتونس (1919-1943) تونس، كلية الآداب بمنوبة، 1992.

- ابن أبي الضياف (أحمد) : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس، ستينات القرن 20، عدّة أجزاء.

ب - في غير اللغة العربية :

ARDITTI (R): **RECUEIL des textes législatifs et juridiques concernant les israélites de Tunisie de 1857 à 1913**, Tunis, 1915.

Bensimon - Donath (D) : **Immigrants d'Afrique du nord en ISRAEL**, Anthropos, Paris, 1970.

Bjaoui (F) : **Où va le sionisme ?**, Tunis, 1934.

Boretz (E) : **Tunis sous la croix gammée**, Alger, 1944.

Borgel (R) : **Etoile jaune et croix gammée : récit d'une servitude**, Tunis, 1944.

Bourguiba (H) : **La Tunisie et la France**, Paris, Julliard, 1954.

Carré (O):**Le mouvement national palestinien**,Paris,Gallimard,1977

Canal (A) : **La littérature et la presse tunisiennes de l'occupation à 1900**, Paris

(date de parution non indiquée).

Cazès (D) : **Essai sur l'histoire des israélites de Tunis**, Paris, 1888.

Chalom (J): Les israélites de la Tunisie,leur condition civile et Politique,Paris, 1908.

Chouraqui (A) : **Marche vers l'occident : Les Juifs d'Afrique du Nord**, P. U. F., Paris, 1952.

" " : **La saga des juifs en Afrique du Nord**, Paris, Hachette, 1972.

Casemajor (R) : **L'action nationaliste en Tunisie, du pacte fondamental de M'hammed Bey à la mort de Moncef Bey (1857 - 1948)**, Tunis, (date de parution non indiquée).

Collectif : **Judaïsme d'Afrique du nord aux 19ème et 20 ème siècle**, Jérusalem, Institut Ben Zévi, 1980.

" " : **Histoire Communautaire, Histoire plurielle** (Colloque de Tunis, Fév 1998), Tunis, C. P. U., 1999

De Reynaud (EP) (1853) : **Description de la Régence de Tunis**, Paris, exploration scientifique de l'Algérie, 1853.

De souhesmes (D): **Tunis,histoire,mœurs,gouvernement**, Paris, 1875.

Darmon (R) : **La Situation des cultes en Tunisie**, 2ème édition, Paris, 1930.

D'Oisy (P.J.) : **Autour d'un ramadan tunisien**, Paris, 1875.

Eisenbeth (M) : **Les Juifs de l'Afrique du Nord : démographie et onomastique**, Alger, 1936.

Ennafaa (M): **La voix d'une indépendance complète au service du peuple**,présenté au 5ème congrès du parti communiste tunisien (1956).

Fournel (M) : **La Tunisie, le christianisme et l'Islam dans l'Afrique septentrionale**, Paris, 1886.

Guellati (H) et autres : **Etudes sur les israélites et la justice tunisienne**, édition du journal << le Tunisien >>, Tunis, 1909.

Guez (P) : **Six mois sous la botte**, Tunis, 1943.

Guez (G) : **Nos Martyrs sous la botte allemande ou les ex-travailleurs juifs de Tunisie racontent leurs souffrances**, Tunis, 1946.

HADRIA (E. C.) : **Du protectorat français à l'indépendance tunisienne**, souvenirs

d'un témoin socialiste, Nice, C.M.M.C, 1976.

Herzl (TH) : **l'Etat juif**, Paris, 1926.

Hœbrechts (CH S) : **La presse maghrébine**, Paris C.N.R.S., 1969.

Judaïca Encyclopedia n°16.

Kraïem (M) : **Nationalisme et syndicalisme en Tunisie (1918 - 1929)**, Edition U.G.T.T, Tunis, 1976.

Laqueur (W) : **Histoire du sionisme**, Paris, C. Lévy, 1973.

Lambert (P) : **Dictionnaire illustré de la Tunisie**,Tunis, Saliba, 1912.

Livre blanc des évènements qui amenèrent la déposition, la déportation et l'exil de son altesse Sidi Mohamed Moncef Bacha Bey, Tunis, 1946.

Maârek (H) : **L'activité sioniste en Tunisie**, Tunis, 1919.

" : **L'université hébraïque de Jérusalem**, Edition du (Réveil juif) Sfax, 1925.

Maltzan (V) : **REISE inden regenschaften Tunis und Tripolis**, Leipzig, 1830.

Marx (K) : **Le Capital**, livre III, Paris, E. Sociales, 1976.

Memmi (A) : **Partrait du colonisé**, utrecht, 1966.

Parti socialiste destourien : **Histoire du mouvement national tunisien** (documents) pour préparer la 3ème épreuve I) le néo-destour brise le silence (1944 - 1949) C.D.N., Tunis (date de parution non indiquée).

Sabille (J) : **Les Juifs de Tunisie sous vichy et l'occupation**, Paris, 1954.

Sebag : **La Tunisie, essai de monographie**, E. Sociales, Paris, 1951.

Sabag (P) et Attal (R) : **L'évolution d'un ghetto nord africain : la hara de Tunis**, Paris, P.U.F., 1959.

Sebag (P) : **Histoire des Juifs de Tunisie : des origines à nos jours**, Paris, L'Harmattan, 1991.

Slama (B): **L'insurrection de 1846 en Tunisie**,Tunis, M.T.E. 1967.

Smadja (M) : **L'extension de la juridiction et de la nationalité françaises en Tunisie**, Tunis, 1905.

Soumille (P) : **Européens de Tunisie et questions religieuses** (1892 - 1901), étude

d'une opinion publique, Paris, C.N.R.S. 1975.

Tlili (B) : **Socialistes et jeunes tunisiens à la veille de la grande guerre** (1907 - 1913), Tunis, publication de l'université, 1974.

Valensi (A) : **Le sionisme**, Tunis, 1913.

" : **Sion et liberté**, Tunis, 1919.

Weizman (CH): **Naissance d'israël**,Paris,Gallimard,2ème édition,1957.

2) أطروحات أكاديمية لم تطبع بعد :

أ - باللغة العربية :

- ابن الطيب (النوري) : جهة توزر في النصف الثاني من القرن 19، شهادة كفاءة في البحث التاريخي، كلية الآداب، تونس، 1977.

- أبو نادي (سليمان محمد) : التونسيّون والقضية الفلسطينيّة عام 1948، شهادة كفاءة في البحث، كلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس، 1988.

- علاقي (عبد الكريم) : الأقلية اليهودية بتونس من انتصاب الحماية الى 1948، شهادة تعمق في البحث، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس، 1992.

ب - باللغة الفرنسية :

Annabi (H) : **La crise de 1929 et ses conséquences en Tunisie**, mémoire de maîtrise d'histoire, Tunis, 1974.

Hagège (C) : **Les juifs de Tunisie et la colonisation française** (jusqu'à la première guerre mondiale), thèse de 3ème cycle d'histoire, Paris, 1973.

B. Hammouda (R) : **La fédération socialiste de Tunisie et les réalités tunisiennes** (1919 - 1924), mémoire de maîtrise d'histoire, Tunis, (date non indiquée).

Ouled Mohamed (H) : **L'imaginaire et la Ville : Le cas de Tunis au 19ème siècle**, thèse de 3ème cycle de sociologie, Paris, 1977.

B. Temime (L.) : **La fédération communiste de Tunisie** (1921 - 1922) : **un effort précoce de tunisification**, mémoire de maîtrise d'histoire, Tunis, 1976.

Tlili (R.) : **Préliminaires à l'étude du syndicalisme patronal en Tunisie**, thèse de 3ème cycle en documentation, Paris, 1977.

3) مقالات في مجــلات :

أ - باللغة العربية :

- قداش (محفوظ) : حوادث قسنطينة (أغسطس 1934)، مجلة تاريخ وحضارة المغرب العدد 12، الجزائر، ديسمبر 1974.

ب - في غير اللغة العربية :

Attal (R.) : Tunisian jewry during the last twenty years, **the jewish journal of sociology**, volume II, N° 1, Juin 1960.

AGERON (CH. R.) : Contribution à l'étude de la propagande allemande au Maghreb pendant la 2ème guerre mondiale, **Revue d'histoire maghrébine**, N° 7 - 8, Tunis 1977.

Chateur (K.) : Le constitutionnalisme en Tunisie au 19ème siècle, **les cahiers du C.E.R.E.S.**, N° 40 - 41 - 42 et 43, Tunis, 1975.

Ganiage (J) : La population de la Tunisie vers 1860, essai d'évaluation d'après les registres fiscaux. **Population** N° 5,Paris, 1966.

" : La crise des finances tunisiennes et l'ascension des juifs de Tunis (1860 - 1880), **la revue tunisienne**, N° 442 - 443, Tunis, 1955.

Hadria (E.C.) : Les milieux juifs de Tunisie avant 1914 vus par un témoin, **le mouvement social**, N° 60, Paris, 1967.

Kraïem (M.) : aux origines du parti communiste tunisien, **Revue d'histoire maghrébine**, N° 2, Tunis, 1974.

" : C. G. T. et Syndicalisme tunisien, **les cahiers du** C.E.R.E.S., N°40 - 41 - 42 et 43, Tunis, 1975.

" : La fédération socialiste de Tunisie et le mouvement national entre les 2 guerres, **Revue d'histoire maghrébine**, N° 5, Tunis, 1976.

" : Contribution à l'étude de l'histoire du mouvement national tunisien pendant la seconde guerre mondiale, **Revue d'histoire maghrébine**, N° 10 - 11, Tunis, 1978.

Liauzu (C.) : La presse ouvrière européenne en Tunisie (1881 - 1939), **Annuaire de l'Afrique du Nord**, C.N.R.S.,Paris, 1971.

Mahjoubi (A.) : Les réformes de 1922 et le mouvement national tunisien, **Les cahiers du C.E.R.E.S**, N° 45, Tunis, 1976.

Naura (A.) : Les socialiste de Tunisie devant la crise de 1929 et ses conséquences, **Le mouvement social**, N° 78, Paris, 1972.

Raymond (A.) : La France, la grande Bretagne et le problème de le réforme à Tunis (1855 - 1857), **Etudes maghrébines, mélanges charles André Julien,** P.U.F., Paris 1964.

Sraïeb (N.) : Les réactions tunisiennes à la guerre de Palestine de 1948 dans : **Les relations entre le Maghreb et le Machrek des solidarités anciennes aux réalités nouvelles**, Cahier N° 6, Paris, C.N.R.S. (Colloque d'Aix en Provence 1981).

Zawadovski (G.) : Index des journaux indigènes de Tunisie, **la revue des études islamiques**, N° 2 - 3, Paris, 1937.

الرموز المستعملة في الحواشي	
و ع ح ت	الوثائق العامة للحكومة التونسية
س	سلسلة
ص	صندوق
م	ملف
و	وثيقة
ع	عدد
ج	جريدة

المقدمة العامة

كانت الخريطة الجغرافية للحركة الصهيونية العالمية قبل 1948 تضم كل البلدان التي تعيش بين ظهرانيها جاليات يهودية. ولم تشذ تونس التي كانت رازحة منذ 1881 تحت السيطرة الامبريالية الفرنسية المباشرة عن هذه القاعدة، إذ شهدت على امتدادالفترة من 1897 إلى أوائل الخمسينات من القرن العشرين نشاطا صهيونيا عارما ومتنوعا ستتكفل هذه الدراسة باجلائه قدر الامكان.

إن سنة 1897 التي تمثل نقطة البدء لهذه الدراسة هي سنة التام المؤتمر الصهيوني العالمي الأول ببازل (سويسرا). وقد شكل هذا الحدث بالنسبة إلى تونس بداية التطورات الحاسمة التي ستجتاح حياة قسم كبير من اليهود القاطنين بها. أما سنة 1948 التي يقف عندها هذا البحث، فهي سنة قيام دولة اسرائيل وبداية هجرة يهود تونس المكثفة إليها.

إن المتتبع لمسار الحركة الصهيونية في تونس حتى 1948 بامكانه أن يتلمس خمس مراحل متميزة :

- مرحلة النشوء : وتستمر من أوت 1897 إلى جانفي 1911.
- مرحلة الدبيب : وتبدأ بتأسيس أول تنظيم صهيوني في تونس وهو "الأغودات صيون" في جانفي 1911 وتنتهي بصدور "وعد بلفود" في نوفمبر 1917.
- مرحلة الوقوف على الأرجل : وتستغرق الفترة من نوفمبر 1917 إلى جويلية 1927، وهو تاريخ سقوط الحركة الصهيونية في تونس في يد أكثر الأطراف الصهيونية تشددا وهم التنقيحيون (Les REVISIONNISTES) الذين سيحتفظون بمركز الصدارة في هذه الحركة حتى إعلان ميلاد دولة اسرائيل.
- مرحلة الخطوات المتعثرة : وتبدأ من جويلية 1927 وتنتهي في ماي 1936، وهو تاريخ استلام ائتلاف اليسار لدفة السلطة السياسية في فرنسا.
- مرحلة الحفاظ على البقاء : وتدوم كامل الفترة التي بقى فيها ائتلاف اليسار الفرنسي في الحكم (ماي 1936 - أفريل 1938).
- وأخيرا مرحلة المد : تدوم قرابة العشر سنوات : من أفريل 1938 إلى ماي 1948، تاريخ ميلاد الدولة الصهيونيّة.

الباب الأول

عهد إثبات الذات

(1897 - 1927)

****

الفصل الأول

نشوء الحركة الصهيونية في تونس

(أوت 1897 - جانفي 1911)

ما سيتكفل به هذا الفصل هو تبيان كيف استطاعت الصهيونية في تونس أن تتحول من مجرد تيار سيّاسي سائب إلى تنظيم مهيكل بعد مرحلة من النمو الكمي التراكمي دامت أكثر من 13 سنة (1897 - 1911). وكانت تونس خاضعة منذ 1881 إلى الاستعمار الفرنسي المباشر وفق صيغة "الحماية" (PROTECTORAT) ، وتتمثل هذه الصيغة في ازدواجية الهياكل الحاكمة، إذ أبقى الاستعماريّون الفرنسيّون على جهاز الدولة التقليدي التونسي، وخلقوا إلى جانبه جهازا عسكريًا ومدنيًا عصريًا يعود بالنظر شكليا إلى الباي (الملك) وعمليا إلى السلطات الفرنسيّة. علما بأنّ هذا الجهاز الحكومي العصري هو الذي يتمتع بالسّلطة الحقيقيّة.

1) البنية الداخلية للطائفة اليهودية قبل أوت 1897 :

تعتبر سنة 1897، تاريخ انعقاد المؤتمر الصهيوني العالمي الأول ببازل (سويسرا) بداية اهتمام اليهود في تونس بالصهيونية، وهذا يستلزم منا إلقاء الأضواء الكاشفة على خريطة التناقضات التي كانت تشق الواقع اليهودي التونسي قبيل هذا التاريخ، وذلك لما لهذه التناقضات من تأثير كبير على مسار الصهيونية في تونس.

لقد كانت بالبلاد أقليّات سكانية مثل الطرابلسيّة و "الغرابة" (الجزائريّون والمغاربة) والزنوج... لكن الأقليّة اليهوديّة كانت الأقليّة الأكثر حضورا في حياة البلاد إذ تميّزت باضافاتها المعتبرة للحضارة في تونس في ميادين عديدة مثل الطبخ والموسيقى وخاصة في الميدان التجاري الذي أبدعوا فيه أيّما إبداع.

يعد اليهود بالبلاد التونسية سنة 1896 قرابة 50.000 نسمة استأثرت تونس العاصمة بمفردها بأربعة أخماسهم[1]. ويعيش اليهود في هذه المدينة في اكتظاظ مختنق في حي متميز اسمه "الحارة"[2]. ورغم أن البايات (ملوك تونس) كانوا دائما حريصين على أن يبقى الفضاء المديني منقسما إلى ثلاث مناطق سكنية متباينة : الحارة، الحي الافرنجي والمدينة المسلمة، فان "انتهاك" الفضاء المديني المسلم أصبح

حقيقة منذ بداية خمسينات القرن 19 إذ استقر به بعض أثرياء اليهود والأوروبيّين رغم امتعاض الباي المغلوب على أمره ومعارضة السكان المسلمين[3]. وقد تواصل انسياب أثرياء اليهود بوتائر أسرع في اتجاه المدينة المسلمة وخاصة في اتجاه الحي الافرنجي منذ صدور قانون عهد الأمان (1857) والدستور(1861) اللذين رفعا عن اليهود بعض المحظورات العنصرية التي كانت مضروبة عليهم من قبل وسوّياهم بالسكان المسلمين في الحقوق والواجبات، ومنحاهم حق امتلاك العقارات بما فيها الأراضي وحق ممارسة الفلاحة.

وينقسم اليهود إلى طائفتين بحسب المنبت القطري الأصلي لكل منهم : طائفة "الغرانة" وطائفة "التوانسة"، فاليهود "القرني" هو الذي ينحدر من بلد أوروبي، واليهودي "التونسي" هو الذي ينتسب إلى سلالة سكنت البلاد قبل الاسلام كيهود جربة أو جاءتها حديثا من بلد اسلامي آخر غير تونس.

أ - يهود "الغرانة" :

يعد "الغرانة" قرابة 10.000 نسمة في بداية القرن العشرين[4]. ويرجع سبب وجودهم في البلاد التونسية إلى التطور العاصف للرأسمالية في أوروبا. فقد وقع اجلاؤهم بالقوة من الجزيرة الايبيرية في أواخر القرن الخامس عشر، لانهم بتخصصهم الوظيفي في التجارة شكلوا عقبة أمام نمو الطبقة البرجوازية المحلية. وهذا ما يفسر لقب "البرتغاليين" الذي يطلق على الكثير منهم، وبينما انتقلت حشودٌ منهم للبلاد التونسية لتشكل نواة سكنية مستقلة عن اليهود المحليين تحت اسم "جالية المنفى"، توجهت حشود أخرى إلى الجزيرة الايطالية، ولكن المقام لم يطب بهذه الجزيرة لفئات منها، فشدت رحالها إلى البلاد التونسية في بداية القرن التاسع عشر. وينتسب سيل هؤلاء المهاجرين في أغلبه إلى مدينة "الغرنة" الايطالية (LIVOURNE) التي يرجع إليها لقب "الغرانة" الذي يحمله هؤلاء اليهود علاوة على لقب "البرتغاليين"، وقد انظم هؤلاء "الغرانة" إلى "جالية المنفى".

ان استعراضا سريعا لجداول أسماء هؤلاء اليهود يكشف لنا عن انتماءاتهم القطرية السابقة، فهناك الألقاب الاسبانية : فالنزي (VALENSI) باريانتي (PARIENTE)، مدينا (MEDINA)، كوستا (COSTA)، بيونو (BUENO). وهناك الألقاب البرتغالية : لومبروزو (LUMBROSO)، سبينوزا (SPINOZA) مندوزا (MENDOZA). وهناك الألقاب الايطالية : فينزي (FINZI) فورتي (FORTI)، أورتانا (ORTANA)، سيزانا (CEZANA) مونتيفيوري (MONTEFIORI) ...

أما اليهود "التونسة"، فان من السمات التي تميزهم عن "الغرانة" الالقاب العربية التي يحملونها مثل : علوش، بلعيش، بونان، بلحسن، غزلان، معارك، عتال، بجاوي، صباغ، زيتون...

إن الأكثرية من اليهود "الغرانة" بالبلاد التونسية وخاصة منهم أولئك الذين جاؤوا إلى تونس في بداية القرن التاسع عشر يحملون الجنسيّة الايطالية، ولا يتقنون إلا اللغة الإيطالية، ولما سيطر الاستعمار الفرنسي على البلاد أصبح هؤلاء اليهود يفضلون لقب "البرتغاليّين" لأنّ لقب "الغرانة" يلسع مشاعر الفرنسيّين ويذكرهم بأن في تونس "الفرنسيّة" فئة يمكن أن تضطلع بدور "الطابور الخامس" لمنافستهم ايطاليا. وقد بقي "الغرانة" مرتبطين بايطاليا (ارتباطات عائليّة وتعليميّة، علاقات تجاريّة)، لكن سيطرة الفرنسيّين على تونس بداية من 1881 جعلت قطاعات منهم تنفك عن التصاقها العاطفي بايطاليا وتتوجه نحو فرنسا.

وقد انفصل "الغرانة" رسميا عن طائفة "التوانسة" سنة 1710، فأصبحت لهم منذ ذلك التاريخ مؤسساتهم الخاصة (معبد، مقبرة، محكمة حاخامية، مقصبة). وقد أدى هذا الانفصال إلى نضوب في موارد جباية طائفة "التوانسة"، إذ أصبح "الغرانة" لا يشترون اللحم إلاّ من مقصبتهم. نستطرد هنا لنُشير إلى أن الضريبة غير المباشرة الموظفة على اللحم تمثل أهم مورد جبائي للطائفة اليهودية، وتصرف أموال هذه الجباية

في رعاية وتأمين الاحتياجات المعيشية الملحة للفقراء اليهود والخدمات الضرورية لممارسة الطقوس الدينية. وقد فشلت كل المحاولات الرامية إلى تدليك العلاقات المتشنجة بين الطائفتين، إلى درجة أن "الغرانة" لم يترددوا في سبيل المحافظة على استقلالهم من قبول معاهدة مجحفة سنة 1741 تنص على :

- منع "التوانسة" من اشتراء اللحم من المقصبة "الغرنية"، لكن مع ابقاء مقصبة "التوانسة" مفتوحة في وجه "الغرانة".

- تحمل الأعباء المالية الملقاة على عاتق كل اليهود (الضرائب الحكومية وخاصة الجزية المفروضة على أهل الذمة"، الهدايا لذوي النفوذ، ثمن الأراضي المعدة لإيواء القبور...) بنسبة الثلثين "للتوانسة" وبنسبة الثلث "للغرانة".

- رسم خط تباين واضح بين اليهود "الغرانة" واليهود "التوانسة" تسند بمقتضاه الهوية "الغرنية" لكل يهودي أصيل أوروبا، والهوية "التونسية" لكل يهودي أصيل البلاد التونسية أو أي بلد اسلامي آخر. ويهدف هذا الاتفاق إلى وضع حد للتقاطع والتضارب في عمليات الجباية بين الطائفتين، وقطع الطريق أمام نزعة انتحال لقب "غرني" من قبل كثير من "التوانسة"، كما يهدف أيضا إلى تحديد مسؤوليات كل طائفة فيما يتعلق بايواء الفقراء من الزوار اليهود للبلاد التونسية أو بجلب توابيت اليهود الذين يتوفون في بلد غير تونس.

ان التفوق العددي الساحق "للتوانسة" يوفر لهم ورقة ضغط رابحة على "الغرانة" و "للافلات من اضطهادات "قائد التوانسة" لهم، استطاع "الغرانة" أن ينتزعوا من الباي حسين سنة 1824 الاعتراف بانفصالهم عن "التوانسة"، فعين لهم "قائدا" خاصا بهم، لكنه لم يمنحه نفس الصلاحيات التي يتمتع بها نظيره "التونسي"، فبقيت لذلك وظيفة "قائد الغرانة" اسما بدون مضمون، وتواصل بالتالي خضوع "الغرانة" لـ "قائد التوانسة"[(5)].

ويسود الاعتقاد في صفوف "الغرانة" بأنهم متفوقون حضاريا على التوانسة"، وهذا

ما يفسر ندرة الزيجات المختلطة. وعلاوة على المنحدر القطري الأصلي، يضطلع الموقع الطبقي بدور أساسي في تعزيز واقع التنابذ بين :الأخوة الأعداء"، اذ تحتل الكثير من العناصر "الغرنية" من تجار بالجملة، وصاغة وصيارفة وأطباء ووسطاء تجاريين، المواقع الطبقية العليا لليهود[6]. وهي تبدو في منظور "التوانسة" الذين يلهث أغلبهم وراء القوت اليومي شرائح مترهلة متخمة. وقد ترافق التنامي السريع للقوة الاقتصادية "للغرانة" مع اشتداد الاختراق الرأسمالي الأوروبي للبلاد وسقوطها في رتْع المديونية. ان الغرانة" قبل ستينات القرن التاسع عشر لو يكونوا سوى همزة وصل متواضعة بين الرأسمالية العالمية والسّوق المحليّة، لكن الأزمة المالية الخانقة للبلاد التونسية التي أحكموا استغلالها أيما إحكام مكّنتهم من تكديس رساميل طائلة ومن النزول إلى ميدان التجارة العالمية.

ان تعامل "الغرانة" التجاري والمصرفي مع أوروبا هو الذي يفسر اقتصار تواجدهم السكني على تونس العاصمة خاصة، وبعض المدن الساحلية الاخرى (سوسة، المنستير، صفاقس...)

ان ارتباط هؤلاء "الغرانة" بأوروبا يؤهلهم أكثر من بقية اليهود للاطلاع من مواقع ثابتة على مجريات الأمور على الساحة الصهيونية الأوروبية.

ب - اليهود "التوانسة" :

انّ التطور اللامتكافئ بين "الغرانة" و "التوانسة" الذي سار على نسق سريع بداية من الستينات لصالح "الغرانة" زاد في توسيع الهوة الطبقية بين الطائفتين. وعلى الرغم من وجود فئات محدودة العدد من الموسرين في صفوف "التوانسة"، فان سوادهم الأعظم المتمركز في قطاع التجارة التفصيلية لا يزال منحصرا في دائرة الكدح وراء الرغيف. وإنّ أبلغ مؤشر على هذا الواقع الطبقي المتدني يتمثل في الاعداد الوافرة من الاسكافيين والقصابين والحذائين وباعة التفاهات السّكرية الذين تعج بهم

"الحارة. ولم ينتعش من النجاحات الاقتصادية "للغرانة" ومن الحضور الفرنسي بتونس إلا بعض خريجي المدارس الأوروبية بالبلاد التونسية الذين استطاعوا تحصيل شغل ببعض المؤسسات الاقتصادية الأوروبية و "الغرنية" (كتبة، مستخدمون، وكلاء تجاريون من الصنف الأدنى). أما الدرك الطبقي الأسفل، فيقبع فيه المسحوقون من المومسات وهنّ كثيرات، والخدم والمترشدين والمتسولين والمشوهين جسديا. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ نسبة هؤلاء المعوزين بالقياس إلى التعداد العام للسكان اليهود أقل بكثير من نسبة المعوزين المسلمين بالقياس إلى التعداد العام للسكان المسلمين، اذ لا يتجاوز عددهم بضعة آلاف[7]، أي بنسبة تتراوح بين 10 و 15٪ من مجموع السكان اليهود. ويوجد كذلك بعض اليهود البدو في منطقتي السرس وورغمة[8].

ان الواقع الطبقي المتدني لأغلبية اليهود "التوانسة" يمثل موضوعيا أرضا خصبة للعمل الصهيوني.

أما من الناحية التعليمية، فقد بدأت "الظلامية" (L'OBSCURANTISME) تتقشع بفضل المدارس التي أنشأتها "الرابطة اليهودية العالمية"[9] بتعاون مع "الانقلو جويش أسوسياشن" اللندنية (ANGLO-JEWISH ASSOCIATION) بداية من سنة 1878، وبفضل مدارس البعثات التبشيرية والمدارس الفرنسية الرسمية. وقد بدأت هذه المدارس تستقطب أعدادا وافرة من التلاميذ، إلى درجة أن عدد التلاميذ اليهود التونسيين[10] ظلّ إلى سنة 1910 أرفع من عدد تلاميذ الجاليات الأخرى كما تبيّن ذلك الجداول الرقميّة التالية[11]:

السنة	الفرنسيون	المسلمون	اليهود	الايطاليون	المالطيون
1899	3832	3237	4585	4462	1691
1900	3425	3394	4622	3960	1575
1901	3137	3820	4746	3526	1522

لقد مثل التعليم بالنسبة "للتوانسة" وسيلة للارتقاء في السلم الطبقي ولاكتساب صمام أمن ضد الاذلال العنصري المحتمل. ورغم تهافت "التوانسة" على التعليم، فان الجمهور العريض لا يزال في أواخر القرن الماضي يرزح تحت أثقال الظلامية، ولا يفقه من اللغات إلاّ اللهجة "العبرية - عربية"، وهي عربية محلية ممزوجة بكلمات أوروبية وتكتب بالأحرف العربية. ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أنّ نسبة الذين يفهمون هذه اللهجة من "الغرانة" ضعيفة جدا. ولتحصين أنفسهم ضدّ تعديات الأغلبيّة المسلمة، تسابق "التوانسة" للحصول على "الحمايات القنصلية" وحتى الجنسيّات الأوروبيّة. وقد وجدت الدول الأوروبيّة المتناحرة على البلاد، وهي خاصة فرنسا وبريطانيا وايطاليا، في اندفاع اليهود "التوانسة" نحوها فرصة سانحة لترسيخ أقدامها في البلاد. وقد تصرف اليهود الحاصلون على حماية الدول الأوروبيّة بصلفٍ تجاه ممثلي الدولة التونسيّة.

2) التناقض بين اليهود والسكان المسلمين :

انّ التناقض القائم بين المسلمين واليهود في تونس هو تناقض ديني وثقافي، لكنه أساسا تناقض اقتصادي، فاذا كان العامل الديني والثقافي هو المهيمن (DOMINANT) لأنه يبدو للعيان، فان العامل المادي هو المحدد في نهاية المطاف (SURDÉTERMINANT) لطبيعة العلاقة بين اليهود والمسلمين. إنّ الشرائح والفئات المسلمة المعادية لليهود لا ترفض في هؤلاء اليهود يهوديتهم، وإنما تستفظع ممارساتهم الربويّة الاستغلالية، وليس كما يقول ألفراد فالنزي (ALFRED VALENSI) مؤسس الحركة الصهيونية بتونس[12] <<إنّ اللاسامية (L'ANTISEMITISME) التي تتخذ طابعا مزمنا وشرسا في بعض البلدان وتضمر حينا وتطفو على السطح حينا آخر في بلدان أخرى، تمثل ظاهرة لا يخلو منها مجتمع يتواجد فيه البعض من اليهود أو الكثير منهم>>. إنّ تمترس المسلمين وراء الدين في معاداتهم

لليهود المستغلين (بكسر الغين) لا يمثل إلاّ ظاهرة طبيعيّة جداً في مجتمع يشكل فيه الاسلام الايديولوجيّة السائدة وترزح أغلبيّة سكانه تحت أثقال الأميّة والتعصّب والتفسير المتزمت والماضوي للاسلام. لقد ذكر المؤرخ والوزير أحمد بن أبي الضياف الذي كان يكنّ صداقة خاصة لليهود أنّه على إثر تسوية اليهود والمسلمين عام 1857 <<...أنف جهّال الحاضرة وغيرها من ذلك، ورأوه لجهلهم من أشراط السّاعة>>[13].

لقد حرص القائمون على شؤون الحكم في البلاد على حماية اليهود من تعديّات أوغاد العامّة، وذلك لتعزيز ارتباط هؤلاء اليهود بتونس والحيلولة دون جريهم وراء الحماية الأوروبيّة، فهذا حسن المقرون رئيس ضبطية العاصمة (الشرطة) لا يتوانى عن تأديب بعض الصبيان والأوباش بطريقة مشهودة، لأنهم اختطفوا "الشاشية" الحمراء (غطاء رأسي) من فوق رؤوس بعض اليهود، وهي الشاشية التي كانت محرمة عليهم قبل صدور قانون عهد الأمان" 1857) <<... بطحهم ... في قارعة الطريقة العامة وعاثت في أبشارهم أيدي الضرب، كل على قدر طاقته ليرى مبصرٌ ويسمع واعٍ... وتمكّن ببعض همج الصبيان، فأوجع أرجلهم وسرّحهم يمشون على الركب، وسجن من سجن، وأعاد الضرب لبعضهم وسرّح البعض>>[14].

وطالب أحمد بن أبي الضياف الوزير والمؤرخ والمتأثر بالفكر اللّيبرالي الأوروبي وخاصة بفكرة المواطنة (LA CITOYENNETÉ) . - بأن يكون اليهود ممثلون في المجلس الأكبر (برلمان) الذي انبثق عن دستور1861. إلاّ أنّ الجنرال حسين الذي كان هو أيضا من أعيان الدولة المستنيرين والمتأثرين بالحداثة الأوروبيّة - اعتبر طلب ابن أبي الضياف سابقا لأوانه، وردّ عليه قائلا : <<... نسأل جنابك أيها الفاضل أي دولة من دول الأجانب تنكر علينا وتزداد نفرتها منّا عند عدم قبول اليهود في هذا المجلس ؟ أدولة اسبانيا التي لم يصح عندنا إلا الآن هل رضوا بدخول اليهود إلى أرضهم أم لا ؟ أم دولة ايطاليا، ولم نسمع بوجود يهودي له رتبة سياسيّة فيها إلى الآن، أم دولة

النمسا ودول ألمانيا التي لم تزل يهودهم إلى تاريخ أمس ممتازين بلبس البرانيط الصفر ؟ أم الدولة الانكليزية وأهل القمرة منهم منذ أكثر من خمسين سنة في أشدّ الصراع هل يقبلون اليهود عضوا في مجلسهم الأكبر أم لا ؟ >>[15].

إنّ المقولة التي ستظل من ثوابت المفكرين الصهانية - مثل ألفرادفالنزي - والتي تسحب اضطهاد اليهود على كل زمان ومكان لا تصمد أمام القراءة العلمية لتاريخ اليهود بالبلاد التونسية. إنّ أي يهودي لا يدخل في الفضاء الاجتماعي إلاّ كموقف طبقي بدرجة رئيسيّة، فهناك يهودي "الحارة" المضطهد (بفتح الهاء) على يد غيره من اليهود وعلى يد بعض المسلمين، وهناك اليهودي "القرني" المضطهد (بكسر الهاء) لغيره من اليهود وللمسلمين. كما أنّ من اليهود من تقلد مناصب هامة في الدولة التونسيّة "المسلمة" قبل 1881 مثل نسيم شمامة "قايد" اليهود وكبير قبّاض الضرائب الحكومية بالبلاد قبيل انتفاضة 1864، أو أطباء في قصور البايات مثل ابراهيم لمبروزو (A. LUMBROSO) وڤياسومو كستلنوفو (G.CASTELNUOVO). لقد عاش اليهود في تونس ألوانا من الاضطهاد على يد فئات معينة من المسلمين، لكن هذا الاضطهاد يعتبر مزاحا مقارنة بالاضطهاد الذي عاناه اليهود على يد الأوروبيّين في القرون الماضية. وإنّنا لا نبالغ إذا قلنا إنّ التناقض بين السكان المسلمين الحضر في تونس والسكان المسلمين البدو كان أكثر حدّة في القرون الماضية من التناقض بين المسلمين واليهود في البلاد: ألم يصدر أئمة مثل ابن عرفة وابن ناجي فتاوي في العصر الحفصي تنص على محاربة أبناء بلدهم من البدو، والاجهاز على جرحاهم، وعدم بيعهم أي شيء بما في ذلك الأحذية ! وماذا كانت تساوي بعض العبارات القذرة التي كان يطلقها على اليهود من حين لآخر بعض أوباش المسلمين مقارنة بهذا المثل الذي كان يردّده حضر مدينة القيروان ويقصدون به بدو جلاص :

لا تربّح العربي ياربّي

ولا ترحملو دين

إذا تحرك سرقـــــوا

وإذا تكلّم كذبوا

إنّ المحدد في نهاية المطاف للعلاقة بين اليهود في تونس والمسلمين هو العامل الاقتصادي، أما العامل الديني والثقافي، فلا ننكره، لكنه ثانوي. <<لقد عاشت اليهودية ليس على الرغم من التاريخ وإنما في صلب التاريخ>> كما قال <<اليهودي>> كارل ماركس مؤسس المذهب الشيوعي(16). لقد مثّلت التجارة الشريان الحياتي الرئيسي لأغلب اليهود، ناهيك أن كلمة "يهودي" أصبحت مرادفا لكلمة تاجر، لا في البلاد التونسية فحسب، بل في العديد من بقاع العالم. وهذا ما حدا بالتروتسكي أبراهام ليون(17) إلى استعمال مفهوم "الشعب الطبقة" للحديث عن اليهود. أما الصهيوني "الماركسي" بار بُورُوخُوف، فقد شيد نظرية "الهرم المقلوب" واقترح أنّ الحل الأمثل للمسألة اليهودية يكمن في فك ارتباط اليهود بالتجارة وجعل الهرم ينتصب على قاعدته الأصلية، أي بناء مجتمع يهودي يمارس فيه اليهود علاوة على التجارة، المهن "المنتجة" كالصناعة والفلاحة. وللتدليل على التواجد المكثف لليهود في قطاع التجارة في تونس، نسوق هذه النبذة المقتطفة من كتيب لـ "جيل سوران" (JULES SAURIN) بعنوان "دليل المعمر المهاجر إلى تونس" كان صدر بتونس سنة 1896 : << ... إنّ التجار اليهود كثيرون جدا بالقياس إلى عدد سكان البلاد، إذ أنهم يتوزعون بمعدل تاجر لكل عشرين ساكنا، بينما لا يشكلون في الجزائر إلا 1٪ فقط من عدد السكان>> .

إنّ القطاعات "المنتجة" مثل الفلاحة لم تُغْر جهابذة المال "الغرانة" بعد صدور قانون عهد الأمان (1857)، وذلك بالرغم من الثروات الكبيرة التي كدسوها في النصف الثاني من القرن الماضي، وتوظيفاتهم المالية لم تتجه إلا إلى المضاربات العقارية والتجارة والربا.

إنّ البلاد التونسية ككل المجتمعات ما قبل الرأسمالية التي يحتل فيها الرأسمال النقدي مكانة ثانوية جدا، تعتبر التاجر الذي يستغل المنتج والمستهلك في آن واحد بمثابة "جرة بندور" التي تنسب إليها الميثولوجيا الاغريقية كل الشرور، لكن رغم هذه النظرة العدائية التي تكنها للتاجر، فانه ليس بامكانها مقاطعته، وذلك لأنها بحاجة إلى خدماته، إذ ليس بامكان أي مجتمع الانطواء الاقتصادي التام على نفسه. فمن الطبيعي إذن أن ينظر السكان المسلمون إلى التجار اليهود بعين الريبة، كما أنه ليس من المصادفة في شئ أن يسود الاعتقاد لدى كثير من الناس إلى زمن ليس ببعيد بأنّ تجار صفاقس وجربة المسلمين الذين اقترفوا "ذنب" ممارسة التجارة وحذقها ينحدرون من أصل يهودي !!.

إلى جانب تورم قطاع التجارة في التركيبة المهنية لليهود، فانّ عداء بعض الفئات المسلمة لليهود في تونس يعود إلى سبب آخر هو تعاطي الربا من قبل عدد كبير من التجار اليهود. "انّ الرأسمال الربوى هو الأخ التوأم للرأسمال التجاري" كما يقول كارل ماركس[18] لأنه ما لم يصبح الشكل السلعي[19] هو السمة الرئيسية للانتاج فانه من العسير الحصول على المال، وبالتالي فان كل مسلم يجد نفسه في ضائقة مالية لا يبقى له من خيار إلاّ الاقتراض من اليهود ، أي من أولائك الذين استحوذوا على القسط الأوفر من الرأسمال النقدي المتداول في المجتمع. اننا لا نسوق جديدا حين ننبه إلى أن الرأسمال الربوى لا يعشش إلا في مجتمع ينتج حدا أدنى من السلع، ويقوم على ملكية المنتج لوسائل انتاجه، وهما سمتان توفرتا في المجتمع التونسي في القرن الماضي. انّ الرأسمال الربوى يعتبر نمط الانتاج الرأسمال عدوا له، لأنّ القاعدة التي تنبني عليها الرأسمالية هي فصل الكثير من المنتجين المباشرين ما قبل الرأسماليّين عن وسائل إنتاجهم (الأرض والآلات الحرفية) وتحويلهم إلى كادحين لا يملكون سوى طاقتهم العضلية والذهنية، وهؤلاء المفقرون لا يملكون ضمانات يوفرونها للمرابين،

وبالتالي فهم لا يعتبرون حرفاء جانبهم مأمون. كما أن النظام الرأسمالي ببنوكه يسحب البساط من تحت أرجل المرابين لأنه يقدم القروض لطالبيها بشروط أيسر بكثير من شروط "شيلوك"[20]، ومن سار على دربه من اليهود. وهذا ما فهمه الفرنسي المقيم في تونس "مارك فورنال" (MARC FOURNEL) الذي قال عن الرأسماليين الفرنسيين سنة 1886 ما يلي[21] : <<... انهم لم يعلموا بعد، أنه يوجد على بعد خطوات معدودات من فرنسا بلد يعير فيه بالغباء كل من يقرض ماله بفائض 10٪ وبأفضل الضمانات. اني على يقين من أنه يكفي أن يعلم الرأسماليون الفرنسيون بهذا الخبر حتى تتحول فوائض 16، 18، 20 و 30٪ التي يسلطها اليهود على حرفائهم إلى عالم الاساطير>>[22]. لقد تفاقم النشاط الربوي للتجار اليهود منذ أن اختل ميزان القوى الاقتصادي بداية من أواخر العقد الثاني من القرن التاسع عشر اختلالا ساحقا لصالح أوروبا على حساب البلاد التونسية. وقد تغلغل المرابون اليهود لا في أوساط "العامة" فحسب بل حتى في أوساط "الخاصة"[23]. إن دور المرابين اليهود في استنزاف قوى الانتاج كبير جدا لأنّ "القائد" أو الملتزم الجبائي الذي يسقط في شباكهم لا يستنكف من اعتصار السكان لكي يسدد الديون المتخلدة بذمّته. لقد كانت قطاعات عريضة من السكان تعيب على أحمد باي تحوله من باي للمسلمين إلى باي للنصارى واليهود[24]. كما أن سكان العاصمة لم يترددوا من النزول إلى الشوارع للتعبير عن استنكارهم لصدور قانون عهد الأمان[25] الذي أزاح المتاريس أمام تحركات الرأسمال اليهودي والأوروبي. أما انتفاضة 1864 التي غطت كل البلاد تقريبا، فقد نادت بشعارات معادية لليهود[26]. كما أنّ عددا كبيرا من مالكي الزيتون بالساحل اضطر تحت ضغط جيش الباي (محلة زروق) والمرابين اليهود لبيع ممتلكاته بأبخس الأثمان[27]. وقد أصبحت البلاد التونسية في بداية سبعينات القرن 19 عبارة عن "مملكة قرنية" على حد قول المؤرخ الفرنسي المعاصر "جان غانياج"(JEAN GANIAGE)[28]، كما أنّ أحمد ابن

أبي الضياف ذكر في أواخر ستينات القرن 19 أنّ << ... أكثر أهل الثروة في البلاد اليهود>>[29].

إنّ الحديث عن الربا اليهودي لا يعني أنّ المسلمين في تونس لم يمارسوا الرّبا. لقد ذكر ابن أبي الضياف متحدثا عن "لزمة" الشمع والعسل في عهد أحمد باي (1837 - 1855) : << ... كانت هذه اللزمة في أوائل هذا القرن بيد جماعة من يهود البلاد، وليتها دامت بأيديهم، إذ لم يفعلوا مثل هؤلاء المسلمين ولا ما يقرب منه>>[30].

إنّ الفرق بين المسلمين واليهود فيما يتعلق بممارسة الربا فرق كمي، إذ أنّ نسبة الممارسين للربا من اليهود قياسا بمجموع اليهود في البلاد أرفع بكثير من المرابين المسلمين قياسا إلى مجموع المسلمين. وتعود محدودية عدد الممارسين للرّبا إلى الامكانية المتاحة أمامهم للاشتغال - لا بالتجارة فقط مثل اليهود - وإنما كذلك بالفلاحة والصناعات الحرفية. أما تحريم الاسلام للربا - وهل هناك اتفاق حول معنى الربا ! - فهمو عامل ثانوي جداً.

لقد كان من اليسير على السياسيّين في البلاد التونسيّة تحويل وجهة غضب الثائرين والناقمين على الدولة وتسليطه على اليهود "المرابين"، فهذا على سبيل المثال قايد جربة أبو العباس حميدة بن قاسم - أيام استيلاء على برغل على جربة - لما << ... ظهرت له الخيانة في وجوه أتباعه الراكبين معه، فأمرهم بنهب حارة اليهود لشغلهم بها عن نفسه>>[31] كما أورد ذلك المؤرخ ابن أبي الضياف المعاصر لهذا الحدث.

إنّ حقد الكثير من السكان المسلمين على المرابين اليهود، والذي ازداد جموحا في النصف الثاني من القرن 19، يمثل موضوعيًا منفذاً للرعاية الصهيونيّة في تونس.

3) التناقض بين اليهود والأوروبيين في تونس :

لقد بدأت تتولد قبيل 1881 لدى تجار مرسيليا وجنوة قناعة بأن "الغرانة" أصبحوا

يشكلون عليهم خطرا يمكن أن يهدّد سيطرتهم على التجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط، فبدؤوا يعدون العدة لقطع الطريق على هؤلاء المنافسين الطموحين. وقد قامو بتعبئة دعائية ضد "الغرانة" بواسطة الجرائد[32] والكتب[33]. ولما بسطت الامبريالية الفرنسية سيطرتها على تونس سنة 1881، شنّ الرأسماليون الفرنسيون ممثلين في "مارك فورنال" MARC FOURNEL[34] وبول جاكينو دوازى (P.J.D'OISY)[35] وفيكتور دي كارنيار V. DE CARNIERES[36] وكولان دي لامور (COLLIN DE LARMOR)[37] حملة مسعورة ضد "الغرانة"، وليس لهذه الحملة من غاية سوى كسر شوكة "الغرانة" وتدجينهم وحصر نشاطهم الاقتصادي ضمن آفاق تشكل صمام أمن لمصالحهم. إنّ هؤلاء الرأسماليين يقرضون المال وبفائدة عن طريق بنوكهم، ولكن ما دام نمط الانتاج الرأسمالي ليس مهيمنا، فان المرابي اليهودي يمثل بالنسبة لهم المنافس الذي يجب صرعه. وقد عبر عن هذه الحقيقة بجلاء المقيم العام الفرنسي آنذاك "ديني ميلي" (RENE MILLET) حين قال[38]. << ... يكفي أن تحل سنة ذات مسبغة حتى يجد اليهود أنفسهم بين فكي طوق : حقد حرفائهم المحليين من جهة، وضغائن التجار الفرنسيين الذين يرون فيهم منافسين شديدي المراس من جهة أخرى>>.
إنّ الرأسماليين الفرنسيين في معارضتهم المحمومة "للغرانة" كانوا يريدون الانفراد باستغلال ثروات البلاد التونسية وقوة عمل المسلمين واليهود. وقد عبّر أحد مبعوثي "الرابطة اليهودية العالمية" الذي زار تونس في السنوات الأولى للعهد الاستعماري عن هذا المناخ المثقل باللاسامية فقال[39] : << ... لقد بدأت تترسخ منذ مدة في المستعمرة الفرنسية الجديدة بدعة يجب دحضها، فالعنصر الفرنسي الحديث العهد بتونس أصبح يحمل اليهود مسؤولية كل الاخفاقات التي يمني بها وكل العراقيل التي تواجهه >>.

إنه إذا كان من المستعصي على هؤلاء الرأسماليين الفرنسيين تصفية السطوة

الاقتصادية "للغرانة" بالسرعة التي يريدونها، فانّ منافستهم للمؤسسات المتوسطة والصغيرة لليهود "التوانسة" أتت أكلها بسرعة، وليس بامكاننا اعطاء صورة رقمية حول حجم الافلاسات اليهودية بسبب جدب الوثائق، لذلك نكتفي بايراد ما ذكره اليهودي ايلي كوهين حضرية عن افلاس جده حيث يقول[40] : << ... لقد كان (جدي) من الاغنياء الكبار أو على الأقل ممن ينعمون بالعيش الرغيد، لكن المغازة الكبرى التي كان يملكها لم تصمد في السنوات الأولى للحماية أمام منافسة المغازات العصرية لها، وقد قضى نحبه مفلسا سنة 1896>> .

إنّ الخطين اللذين ستسير عليهما سياسة السلطات الفرنسيّة تجاه كبار التجار والصناعيين اليهود حتى سنة 1956 هما : من جهة تطويق هؤلاء البرجوازيين وضبط نشاطهم الاقتصادي ضمن حدود معيّنة، ومن جهة أخرى عدم التفريط في هؤلاء البرجوازيين وابقائهم على طرف جسر مفتوح يمكن لها بواسطته اسكاتهم ببعض التنازلات في اللحظة الأنسب. فمنذ السنوات الأولى للعهد الاستعماري سارعت فرنسا بترتيب الأوضاع الداخلية لليهود وضبطها بقوانين تكفل لها السيطرة التامة عليهم.

وهذه القوانين تتعلق بالمسائل التالية :

1 - إلغاء المجلس الديني الذي يترأسه الحاخام الأكبر، وتعويضه بلجان يعين أعضاؤها من بين "الغرانة" و "التوانسة" لإدارة صناديق الإغاثة والشؤون الخيرية.

2 - سنّ ضريبة قارة على اللحم بعد أن كان تحديدها من مشمولات زعماء الطائفة.

3 - إلغاء وظيفة "قائد اليهود" وتعويضها بوظيفة مدنية بحت يسمى صاحبها : ممثل الحكومة لدى صندوق الإغاثة والشؤون الخيرية.

4 - بعث محكمة حاخامية يعيّن أعضاؤها من بين "الغرانة" و "التوانسة" تقتصر

صلاحيتها على البتّ في القضايا المتعلقة بالحالة الشخصية لليهود الحاملين للجنسية التونسيّة[41] .

وقد أبقت السلطات الاستعماريّة على الانفصال بين "التوانسة" و "الغرانة"، فلم تستجب لمطلب تكوين "كونسيستوار" الذي تقدم به بعض الديمقراطيين البورجوازيين اليهود، وفي هذا الصدد يقول فيكتور دي كارنيار (VICTOR DE CARNIERES) رأس عتاة الاستعماريين[42] : <<...انّ شعار انشاء كُونْسِيسْتَوار يعني بالنسبة لنا ما يلي : توحيد مختلف الطرق الدينية لصالح "الغرانة" ألدّ أعدائنا، الاعتراف رسميا بالكيان اليهودي ... السماح بتكوين دولة وسط الدولة. إني أذكر بأنّ فرنسا لم تحتل الايالة لكي تجعل من مدينة تونس بيت مقدس المستقبل >> . ومن باب ذر الرماد في العيون، منحت فرنسا اليهود عددا من المقاعد في مجالس البلديات، لكن الذي تجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ عدد هذه المقاعد لا يتناسب وحجم اليهود العددي، فمرسوم 10 جوان 1885 مثلا لا يمنح اليهود إلاّ مقعدا واحد في مجلس بلدية العاصمة في حين أنهم يشكلون ثلث سكان المدينة تقريبا في آخر القرن الماضي[43] .

لقد كانت سيطرة فرنسا على تونس عام 1881 بالنسبة لليهود بمثابة مفتاح لمخزن الآمال، اذ أنّ فرنسا بثورتها البورجوازية لسنة 1789 سبقت كل بلدان أوروبا في اتجاه الخروج باليهود من هامشيتهم وإدماجهم في صلب مجتمعها. وهذا الموقف الايجابي من اليهود الذي عرفت به ثورة 1789 هو الذي حدا بيهود تونس إلى اعتبار الاستعمار الفرنسي بردا وسلاما عليهم، فارتفعت أصواتهم منذ السنوات الأولى للعهد الاستعماري مطالبة فرنسا إمّا بتجنيس اليهود جماعيا على غرار يهود الجزائر[44] ، أو بمنحهم على الأقل حق الانسلاخ عن المحاكم المسلمة والاحتكام إلى المحاكم الفرنسية[45] . وقد اعتبرت السلطات الفرنسيّة هذين المطلبين أمرين ليس فيهما حظ لمختار، فاقتصرت على فتح باب التجنيس أمام الترشحات الفردية (مرسوما 29

جويلية 1887، و28 فيفري 1889) وبشروط مشطة يعسر على اليهود التونسيين الايفاء بها مثل "تقديم خدمات جليلة لفرنسا" ؛ أو قضاء ثلاث سنوات في الخدمة العسكرية ضمن وحدات الجيش الفرنسي، أو خمس سنوات ضمن وحدات اللفيف الأجنبي ، مع العلم أنّ المتطوعين اليهود ليس لهم الحق آنذاك إلاّ في الالتحاق بوحدات اللفيف الأجنبي. أما مطلب الاحتكام إلى المحاكم الفرنسية، فانّ السلطات الفرنسيّة رفضته لأنه يمثل << ... تطبيقا مقنعا لمرسوم كريميو على تونس >>[46].

ولمنع اليهود من الارتماء في أحضان الدول الأوروبيّة الممثلة ديبلوماسيا في تونس، أوقفت السلطات الفرنسيّة باتفاق مع هذه الدول تيار منح الحمايات القنصلية لليهود التونسيين، كما أنها شددت الحراسة للحيلولة دون حيل الانتساب إلى الجزائر التي لجأ إليها بعض اليهود التونسيين للحصول على الجنسية الفرنسيّة[47].

إنّ المرارة التي ولدتها لدى اليهود سياسة فرنسا تجاههم تمثل موضوعيا منفذا للدعاية الصهيونية.

4) المحاولة التنظيمية الأولى:

تمت أول محاولة فاشلة لبعث كيان تنظيمي صهيوني في تونس في أواخر سنة 1897، أي بعيد انعقاد مؤتمر بازل، على يد اليهودي قابريال علوش الذي كانت له صلات بالصهيوني الفرنسي الشهير برنار لازار (BERNARD LAZARE)[48]. ويذكر جاك فيهيل (JACQUES VEHEL)[49] أحد الذين واكبوا هذه المحاولة أنّ بادرة قابريال علوش استمدت حوافزها من استفزازات جريدة (L'ECHO TUNISIEN) اللاسامية التي أنشأها سنة 1897 الفرنسي كولان دي لارمور(COLLIN DE LARMOR) أو كما يسميه اليهود آنذاك (COLLIN ET SES REMORDS) أو (COQUIN DE LA MORT) .

وقد سبقت محاولة قابريال علوش محاضرة ذاع صيتها في أوساط اليهود ألقاها

اليهودي جاك شالوم (JAQUES CHALOM) حول "الصهيونية واليهود في تونس" على منبر منتدى أدبي فني أسسه سنة 1896 ألفراد علوش (ALFRED ALLOUCHE) وجيل بونان (JULES BONAN) وجاك شالوم (JACQUES CHALOM) وجاك فيهيل (JACQUES VEHEL). وفي سنة 1898، وصلت إلى المؤتمر الصهيوني العالمي الثاني برقية من "الشبيبة الصهيونية التونسية" التي لم يكن لها في الواقع أي وجود تنظيمي. وقد قام المؤتمر الصهيوني العالمي الثاني بدعاية في اتجاه تونس كما تدل على ذلك النبذة التالية المقتطفة من رسالة وجهها المسمى "جاك بيحار" (JACQUES BEHAR) بتاريخ 29 ماي 1917 إلى "جوزيف غانونة" مدير جريدة "تينيزيا" (TUNISIA)[50]: <<... لقد بذلت لعشرين سنة خلت جهدا جهيدا بصفتي نائبا للجنة العمل الصهيوني في شمال افريقيا، من أجل انتداب المؤيدين (للصهيونية) من المغرب الأقصى إلى حد مصر>>.

5) العوامل المساعدة على غرس الوعي الصهيوني لدى اليهود :

أ - اللاسامية المدعومة من السلط السياسية :

لقد كانت كافة المؤشرات ضاغطة في اتجاه لفت أنظار اليهود للصهيونية، فقد استغل الرأسماليون الفرنسيون "قضية دريفوس" (L'affaire Dreyfus)[51] التي شغلت فرنسا ومستعمراتها زمنا طويلا لكي يضيقوا الخناق على "الغرانة" ومن ورائهم على كل اليهود. ففي نوفمبر 1898 استغل الفرنسيون فرصة عرض مسرحية لايميل زولا (EMILE ZOLA) لينادوا بشعارات معادية لليهود[52]. وفي فيفري 1899 تخللت الاحتفالات بثلاثاء المرفع (LE MARDI GRAS) مناوشات بين الفرنسيين واليهود[53]. وفي أفريل 1901، على اثر انتهاء عرض مسرحي حول المسيح، ردد المتفرجون شعارات مناوئة لليهود[54]. كما أنّ المدارس لم تبق بمنأى عن الغليان اللاسامي، وفي هذا المضمار اشتهر تلاميذ المدرسة الكولونيالية الفلاحية بصولاتهم وجولاتهم ضد التلاميذ اليهود.

لقد كانت كل هذه التظاهرات الفرنسية المعادية لليهود تحظى بتأييد ضمني، وأحيانا علني من السلطات الاستعماريّة. وقد امتد هذا التأييد أيضا إلى التظاهرات المسلمة ضد اليهود، ففي أيام 27 و 28 و 29 مارس 1898، جدت اصطدامات عنيفة بين فئات من اليهود وفئات من المسلمين من الشرائح الشعبية[55] جاءت كتتويج للمناخ اللاسامي الذي وطد دعائمه الفرنسيون على المستويين الرسمي وغير الرسمي.

إنّ السياسة التي ستتبعها السلطات الاستعماريّة على امتداد الفترة بين 1881 و1956 تتمثل في توظيف التناقض القائم بين المسلمين واليهود في خدمة مصالحها، اذ بامكانها في أي وقت انعاش هذا التناقض وتصعيده إلى درجة الصدام، فيصبح اليهود عبارة عن كابح للصراع الاجتماعي، وبذلك تحول حقد الفقراء المسلمين غير المسيس ضد الرأسمالية الاستعمارية إلى حقد ضد عدو "ديني" تسقط عليه كل أسباب المعاناة الجماهيرية. وفي هذا المضمار، يقول الاشتراكي الديمقراطي ايلي كوهين حضرية (E.C. HADRIA) الذي خبر السلطات الاستعماريّة زمنا طويلا[56]. «... لقد شهدت افريقيا الشمالية منذ الانتصاب الفرنسي بها حركات لاسامية محدودة النطاق بلغت حد تقتيل بعض اليهود على يد بعض المسلمين، لكن الذي لا يتسرب إليه أدنى شك هو أن تلك المجازر بلا استثناء لم تكن لتحدث لولا تغاطي سلطات الحماية عنها أو تواطئها معها أو تحريضها عليها».

لقد أصبح اليهود في آخر القرن الماضي بين مطرقة فرنسا وسندان المسلمين، فكان رد فعل الصهاينة محاولة ثانية لتأسيس تنظيم صهيوني أجهضت في المهد كسابقته[57]. غير أنّ الأفكار الصهيونية بدأت تسرى بسرعة في أوساط اليهود، وقد ساعدت الصحافة اليهودية كثيرا على ترويجها.

ب - الصحافة اليهودية :

تنقسم هذه الصحافة إلى ثلاثة أصناف :

- الصحافة الناطقة بالعبرية - عربية، وهي الأكثر ذيوعا لأنها تتوجه إلى الجماهير العريضة من اليهود في الحارة وفي وسط البلاد وجنوبها.

- الصحافة الناطقة بالفرنسية، وتتشكل قاعدتها من المتعلمين.

- الصحافة ذات اللغة المزدوجة (عربية - عبرية وفرنسية) وهي التي تحاول أن تكون جسرا بين النوعين من القراء[58]. يقول هنري معارك (HENRI MAAREK) أحد صهاينة تونس سنة 1919 حول دور الجرائد العبرية عربية في بث الأفكار الصهيونية ما يلي[59] : << ... لقد أعطت (هذه الجرائد) بعدا جديدا للتطلعات الماشيحانية[60] المبهمة لدى الجماهير، ورسخت في أذهانها تعريفا أكثر علمية وواقعية للقومية اليهودية التي ننتظر كلنا ساعة ترميمها. لقد مهدت لنا هذه الجرائد الطريق وجنبتنا مشقة الانطلاق من صفر >>. ان كثافة النشاط الصحفي اليهودي أمر ملفت للنظر، فقد تمكنا من احصاء أكثر من 50 جريدة يهودية صدرت في الفترة بين 1878 و 1911. وقد كانت ثمة من هذه الجرائد من تسمي نفسها جهرا "جريدة صهيونية" مثل جريدة البستان (بداية من 1904) وجريدة الاتحاد التي بدأت بالصدور سنة 1904[61]. وفي الفترة نفسها استطاع بعض المثقفين اليهود مثل رؤول فرجرون (RAOUL FORGERON) وفيلكس فلاك (FELIX FLACK) وألفراد فالنزى (ALFRED VALENSI) وجوزيف غانونة (JOSEPH GANOUNA) دس مقالات دسمة حول الصهيونية وقضايا اليهود بصفة عامة في عدد من جرائد الجالية الفرنسية بالبلاد التونسية.

ج - التعليم

إلى جانب الصحافة، فانّ تواصل انتشار التعليم في أوساط اليهود سهل للدعاية الصهيونية المكتوبة عملها، فالخط البياني لعدد التلاميذ اليهود التونسيين ظل متجها إلى الصعود المستمر وبمعدل مرتفع، كما تدل على ذلك الأرقام التالية[62]:

السنـــــة	عدد التلاميذ
1902	4368
1903	4605
1904	4890
1905	5533
1906	5529
1907	5806
1908	5990
1909	6466
1910	7330
1911	7500

د) فشل حركة المطالبة بالمواطنة الفرنسية

لقد ظل اليهود يأملون خيرا في فرنسا ويتوقعون منها أن تستجيب في نهاية الأمر لمطلبهم في الحصول على الجنسية الفرنسية.

إنّ شعار المطالبة بالجنسية الفرنسية شعار رفعه كبار الأغنياء اليهود المنتمين لطائفة "التوانسة" لأنهم كانوا يرون أن أحسن وسيلة لضمان مصالحهم الاقتصادية هي الحصول على الجنسية الفرنسية التي تمكنهم من النفاذ إلى مواقع الحسم والتقرير في جهاز دولة الاستعمار. أما الفئات اليهودية الأخرى التي احتضنت هي بدورها هذا الشعار، فقد كانت ترى أنّ "الوقوف في صف الغالب" هو الحل الأحسن الذي يوفر لها الحصانة ضد القهر العنصري ويفتح لها أبواب الارتقاء في السلم الاجتماعي.

لقد أحجم الأغنياء اليهود "التوانسة" عن المطالبة بالجنسية الفرنسية في فترة تأجج قضية "دريفوس"، لكن لما بدأت سحب اللاسامية تتقشع، عادوا للكر من جديد، ففجروا حملة اعلامية وجماهيرية واسعة النطاق بلغ زخمها أوجه في السنوات 1907 -

1908 - 1909. ويعتبر كتاب اليهودي ماردوخي سماجة الصادر بالفرنسية بتونس سنة 1905 تحت عنوان "توسيع رقعة التشريع والجنسية الفرنسية في تونس" خير معبر عن وجهة نظر هؤلاء الأغنياء. إنّ الفرضية التي انطلق منها سماجة (MARDOCHEE SMADJA) لاثبات شرعية المطالبة بالجنسية الفرنسية هي أن اليهود على امتداد التاريخ اعتبروا وعوملوا في تونس لا على أساس أنهم سكان متساوون في الحقوق مع بقية السكان المسلمين، بل كأجانب "ذميين"، ومن حقهم والحال تلك الاستفادة من القانون الفرنسي الذي يمنح حق الحصول على الجنسية الفرنسية لكل شخص أجنبي يقيم أكثر من ثلاث سنوات بالمستعمرة التونسية. ويرى سماجة أن صيغة التجنيس الجماعي تتعارض ومعاهدة "الحماية"، الموقعة بين تونس وفرنسا عام 1881، وهي المعاهدة التي دشّنت العهد الاستعماري الفرنسي في تونس، وكاجراء تمهيدي يقترح سماجة على فرنسا اصدار قانون يقضي بمنح اليهود التونسيين حق الاحتكام إلى المحاكم الفرنسية على غرار مرسوم 17 أفريل 1889 الذي يخول للسكان المحليين بالجزائر الاحتكام إلى القانون الفرنسي. ويبرر سماجة هذا الطلب بـ "تعصب" المحاكم المسلمة وبـ "تحجر" المحكمة الحاخامية اليهوديّة.

وقد طرحت قضية التجنيس على هؤلاء الأغنياء اليهود قضية أخرى، وهي علاقة التجنيس بالذاتية اليهودية، فانقسموا إلى شقين :

- الشق الأول كانت تمثله جريدة (LA JUSTICE) (العدالة) التي أنشأها ماردوخي سماجة سنة 1908. ويحث هذا الشق اليهود لا على الانعتاق (L'EMANCIPATION) فحسب عن طريق الحصول على المواطنة الفرنسية بل على الانصهار في صلب المجتمع الفرنسي والتخلي عن تركه التقاليد اليهودية البالية. وإذا كان سماجة "ليبرالي التفكير ولائكيا متسترا"[63] ، فان المحامي جاك شالوم يجاهر باتجاهه "الانصهاري" حيث يقول[64] << ... انّ اليهود، لو قدر لهم أن يختاروا بين التبعية لفرنسا أو بين الاندماج

أو الذوبان في صلب شعبها الذي كان أول من فتح لهم (في التاريخ) باب الانعتاق، فلن يترددوا في انتهاج السبيل الثانية>>. وقد لاقى هذا الشق "الاتصهاري" معارضة شعواء من رجال الدين ومن كل "السلفيين" اليهود من أمثال يهود جربة الذين ظلوا إلى زمن طويل بعد هيمنة فرنسا على البلاد يرفضون ارسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية. أما القاعدة الطبقية لهذا التيار "الاتصهاري"، فتتكون من كبار الأغنياء الذين كانوا مستعدين للتخلي حتى عن اليهودية في سبيل المحافظة على مصالحهم الاقتصادية.

أما الشق الثاني، فقد تحلق حول جريدة (LE DEFENSEUR) (المدافع) التي أنشأها سنة 1908 نسيم حداد (NASSIM HADDAD) وفيكتور سيالوم (VICTOR SCIALOM)، ويحث هذا الشق اليهود على الانعتاق، لكنه يرفض بشدة الاتصهار. وتتشكل قاعدته الطبقية من الأغنياء المتوسطين لليهود "التوانسة" خاصة. يقول ايلي كوهين حضرية عن هذين الشقين[65] : << ... لقد كانت (LA JUSTICE) تواجه معارضة حادة نسبيا من تجمع (LE DEFENSEUR) الذي تشرف عليه البرجوازية المعتدلة والموسرة. ورغم الخط الديمقراطي غير المتجذر لهذه البرجوازية، فانها غالبا ما تلتقي معها حول المشاكل الأساسية>> .

ولما كان مطلب الانعتاق هو الأرضية الدنيا التي يمكن أن يقف عليها الشقان، فقد كان ممكنا تنظيم تحركات مطلبية جبهوية قصد اقناع فرنسا بمنح اليهود التونسيين المواطنة الفرنسية. وقد تمثلت صيغ العمل المشترك في الاتصال المكثف بالدوائر السياسية في تونس وفي باريس (الرابطة الفرنسية لحقوق الانسان، الحزب الجمهوري الراديكالي والاشتراكي الفرنسي، الندوة الاستشارية في تونس (LA CONFERENCE CONSULTATIVE). وقد تمثلت أيضا في المشاركة الخطابية في المؤتمرات (المؤتمر الكولونيالي بمرسيليا سنة 1906 ومؤتمر افريقيا الشمالية بباريس سنة 1908). ولتدعيم موقفهم ولاعطائه طابعا جماهيريا، نظم هؤلاء البرجوازيون

اجتماعا احتجاجيا اشترك في آلاف اليهود يوم 3 أكتوبر 1909.

وقد قابل أغلب الفرنسيين في تونس هذه التحركات اليهودية بالاستنكار الشديد، وليس من المصادفة في شئ أن تظهر سنة 1907 جريدة لاسامية تحت اسم L'INDEPENDANT (المستقل).

إنّ محاولات اليهود الانسلاخ عن الذاتية التونسيّة والانتساب إلى الذاتية الفرنسية صعدت في حدة التناقض بينهم وبين المسلمين إلى درجة أنّ شعار مقاطعة التجار اليهود وجد كثيرا من المتحمسين له في أوساط المسلمين (66). وقد نظمت "لجنة من الوطنيين ذوي النزعة القومية الاسلامية" (67) بقيادة أحمد الصافي اجتماعا شعبيا يوم 10 ديسمبر 1909 للتنديد بارتداد اليهود عن الجنسية التونسية. أما "المستغربون" في الحركة الوطنية آنذاك، وهم حسن القلاتي وعبد الجليل الزاوش وعلي باش حامبة، فقد تصدوا كتابيا لكل الاطروحات اليهودية (68)، وأنكروا أن يكون اليهود أجانب في تونس، واعتبروهم مواطنين تونسيين بالمعنى التام للكلمة، وعلى هذا الأساس طالبوهم بالوقوف إلى جانبهم للعمل على اجتثاث مساوئ هذا التشريع.

ورغم المساعي التي بذلت، فان الأغنياء اليهود لم يجنوا من الحملة المطلبية التي قادوها إلاّ مكسبين ضئيلين تمثلا :

أولا : في مرسوم 3 أكتوبر 1910 الذي يعتبر حيازة الشهادات الجامعية العليا شرطا أساسيا للحصول على الجنسية الفرنسية.

ثانيا: قانون "مسيمي"(MESSIMY) الذي يمنح اليهود حق انجاز الخدمة العسكرية في صلب الجيش الفرنسي، لا ضمن اللفيف الأجنبي كما كانت الحال من قبل.

إنّ هذا التنازل الطفيف من جانب فرنسا لم يأت اعتباطا، بل بفعل وطأة الحملة المطلبية للأغنياء اليهود، ولا يهدف إلاّ لامتصاص نقمة هؤلاء الأغنياء وابتلاع بوادر وعيهم الجنيني بطبيعة فرنسا الامبريالية. ويكفي أن نعرف بانّ 299 يهوديا تونسيا

فقط تمكنوا من الحصول على الجنسية الفرنسية في الفترة بين 1910 و 1923[69] لتتضح لنا الابعاد الحقيقية لقانون 1910 وقانون "مسيمي".

إنّ فرنسا بسياستها هذه دفعت بالوعي الاحتجاجي والمعادي لها مسافات في أوساط اليهود، وقد بدأت تفقد في أعين عدد كبير من اليهود رصيدها الديمقراطي المـوروث من ثورة 1789. ورغم أنّ البرجوازيين اليهود "التوانسة" لم يفقدوا أملهم نهائيا في فرنسا - نظرا لسياسة الجسر المفتوح التي تسلكها إزاءهم - فانهم بدؤوا يولون بعض اهتمامهم للصهيونية.

إنّ كل تحرك يهودي يمني بالفشل أو الاثباط يعطي للصهيونية رصيدا جديدا من الطاقة.

6) المواقف المختلفة لليهود من الصهيونية :

لقد بدأت الأفكار الصهيونيّة تنتزع أول الأمر العطف والحماس في صفوف الفئات والشرائح اليهودية الوسطى والدنيا. وقد تجلّى ذلك بأكثر وضوح بداية من 1904 إثر رفع التضييقات المالية التي كانت مسلطة على الصحافة. وقد أخذ بعض اليهود يكتبون على واجهات محلاتهم بالأحرف الغليظة "مغازة صهيونية" "مطعم صهيوني" "اسكافي صهيوني"[70]. كما أنّ بعضهم بدأ يواظب على قراءة جريدتي L'ECHO SIONISTE (الصدى الصهيوني) التي كانت تصدرها الفدرالية الصهيونية الفرنسية و L'HAZEFIRA (هازيفيرا) وهي صحيفة صهيونية تصدر بفرصوفيا (روسيا)، كما أنّ البعض الآخر أصبح يراسل بانتظام بعض كبار الصهاينة في أوروبا من أمثال الصهيوني الشهير ناحوم سوكولوف[71]. وفي عام 1906، نشر ألفراد فالنزي (الذي سيكون مؤسس أول تنظيم صهيوني بتونس عام 1911) دراسة بالفرنسيّة وبالعبريّة - عربيّة في تونس عن الصهيونيّة، وهي الدراسة التي كان نشرها في باريس في LA REVUE POLITIQUE ET PARLEMETAIRE (المجلة السياسيّة

والبرلمانيّة)[72] . لقد استقطبت الدعاية الصهيونية في مرحلة نشوئها "البروليتارى، وصاحب المحل الصغير في الأسواق والعامل والمستخدم"[73]، أما كبار البرجوازيين ومتوسطيهم، فان مواقفهم من الصهيونية تراوحت بين الاحتراز الكبير واللامبالاة التامة. أما رجال الدين، فقد كانوا في أغلبهم يعتبرون الصهيونية "حركة طوباوية ولاتكية"[74] لأنّ الماشيح (LE MESSIE) هو وحدة المسؤول على ارجاع اليهود إلى فلسطين. أما "الشبيبة السكري بفُتات الثقافة التي تلقتها"[75] فانّ نفورها من الصهيونيّة يأتي نتيجة لاعتقادها الواعي أو غير الواعي بأنّ الحل الأمثل لل "المشكلة اليهودية" هو اندماج اليهود في صلب مجتمعاتهم. وقد وجدت هذه الشبيبة في مدارس الرابطة اليهودية العالمية والمدارس الفرنسية خير مؤهل لها للذوبان في صلب الحضارة الفرنسية.

7) بعث أول تنظيم صهيوني :

لقد تمكن الصهاينة سنة 1911 من الخروج بالصهيونية من طور الأفكار السائبة إلى طور الوجود التنظيمي. وقد تجسدت هذه القفزة النوعية للصهيونية بصدور مرسوم جانفي 1911 الذي يقضي بمنح منظمة الأغودات صيون (AGHOUDAT SION) تأشيرة لممارسة النشاط العلني. ويرجع الدور الكبير في تأسيسها إلى المحامي ألفراد فالنزي (ALFRED VALENSI) .

ولد هذا الصهيوني المؤسس في تونس يوم 25 جانفي 1878 في عائلة "غرينة" موسرة، وهو متجنس بالجنسيّة الفرنسيّة. درس في تونس بمعهد القديس شارل وبمعهد كارنو، ثم واصل تعليمه العالي في فرنسا في جامعة مونبيلي (كلية الحقوق)، وحصل على الدكتوراه سنة 1905. شغل خطة الكاتب العام للطلبة الصهاينة بهذه الجامعة، كما عمل مراسلا لبعض الجرائد الصهيونيّة في برلين وكولونيا (ألمانيا) وترياست (إيطاليا)[76]. وكان لا يفهم "العبرية - عربية" إلاّ بصعوبة كبيرة، كما أنّ نظرته للدين

اليهودي نظرة إلحاديّة بحت. وقد عمل مراسلا لأول جريدة صهيونيّة في العالم (DIE WIELT) (دي فيلت) التي أسسها تيودور هرتزل.

لقد استقرت "الأغودات صيون" في تونس العاصمة بنهج "غلاسيار" رقم 52 بـ "الحارة"، وأصبحت تصدر نشرية شهرية باللغة العبرية تحت اسم : (LA VOIX DE SION) (صوت صيون). وقد سبقت ميلاد "الأغودات" بقليل محاول تنظيمية قام بها جاك بيلي (JACQUES BELAIS)[77]، ولكنها قبرت في المهد.

إنّ العناصر التي اضطلت بدور نشيط في بعث "الاغودات" للوجود تنتسب في أغلبها إلى قطاع المهن الحرة (الطب، المحاماة، الصحافة، الصيدلة، التقنيات التجارية)، كما أنها تنتمي بنسبة كبيرة إلى طائفة "الغرانة". ولا يفوتنا أن نذكر هنا أنّ بعض الاحبار شاركوا في بعث "الاغودات" مثل الحبر "الغرني" يعقوب بخاري (JACOB BOCCARA).

إنّ السؤال المطروح هو الأسباب الكامنة وراء طول المدة التي تطلبها تجسد الصهيونية في هيكل تنظيمي، فلقد عقدت الحركة الصهيونية العالمية تسعة مؤتمرات قبل أن تبرز "الاغودات" للوجود في تونس.

إنّ السبب الرئيسي هو القصور الذاتي للعناصر الصهيونيّة الطليعية التي طرحت على نفسها مهمة ترجمة الصهيونية على المستوى التنظيمي. ولعلّ الانتماء الطبقي البرجوازي الصغير والمتوسط لهذه العناصر الصهيونيّة هو الذي يفسر قصر نفسها ونزوعها إلى التسيب والانفلاتية. وفي هذا الصدد يقول جاك فيهيل، أحد هؤلاء الصهاينة في شبه عملية نقد ذاتي[78] : << ... في كل مرة تتهاطل الانخراطات ولكن من سوء الحظ، فالحماس لا يعمر طويلا والمثابرة بذرة لا تحظى غالبا بالرعاية الكافية، اذ تلتهب مشاعرنا وتتأجج، لكننا نكتشف من الغد أن ما حصل بالأمس لم يكن سوى حريق هشيم>>. إنّ موقف هؤلاء المثقفين الصهاينة كانت تحكمه في فترة ما قبل 1911 وحدة أضداد. فبحكم منزلتهم في السلم الطبقي، كانوا يرون في الصهيونيّة

مصعدا قد يمكنهم من تحقيق طموحاتهم الاجتماعيّة، لكن من ناحية أخرى، فانّ مصالحهم كبرجوازيين صغار ومتوسطين كانت تجذبهم إلى الوراء وتجعلهم لا يتقدمون في اتجاه الصهيونيّة إلاّ خطوات متباطئة. إنّ هذا التأرجح لا يمكن تجاوزه بسهولة من قبل هؤلاء الصهاينة.

أمّا العامل الثاني الذي يفسر البروز المتأخر "للأغودات" فيتمثل في الظروف الموضوعية المحيطة بالصهيونيّة في تونس. فالاضطهادات التي سلطت على اليهود في البلاد التونسية تعتبر "مزاحا ثقيلا" بالقياس إلى ما عاناه اليهود في أوروبا من جراء التطورات الهوجاء للرأسمالية. وفي هذا المضمار يقول الصهيوني بيار لا تريش (PIERRE LE TREICHE) عن يهود تونس[79] «... إنّ ما لحقهم من أذى ابان السيطرة الرومانية وبعد الغزو العربي لا يمكن مقارنته بأي من الأحوال بواقع الاذلال والمعاناة الذي جعل من اليهود شهداء بأتم معنى الكلمة في أوروبا ابان العصور الوسطى وفي بعض البلدان الأخرى حديثا. فلا ينبغي أن نستغرب اذن من النمو البطئ للصهيونية بالايالة التونسيّة». إنّ تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونيّة العالميّة، في كتابه "الدولة اليهودية" لم يحشر تونس في زمرة البلدان المعادية لليهود[80] ،كما أنّ اسم تونس لم يرد على لسان «ألفراد فالنزى» الذي استعرض في كراساته الدعائيّة البلدان التي يتعرض فيها اليهود إلى الاضطهاد[81]. أما العامل الموضوعي الثالث الذي شارك ولو بنسبة ضئيلة في عرقلة ميلاد "الاغودات" فيتمثل في انقسام اليهود إلى "غرانة" و "توانسة"[82].

إنّ خلق "الاغودات صيون" كان أساسا لاثبات الوجود الصهيوني، ولم يأت نتيجة لحوارات ايديولوجية وسياسيّة معقمة بين صهاينة تونس، فقد طغى الاعتبار التنظيمي الفني على الاعتبارات الايديولوجية والسياسيّة في صفوف العناصر المؤسسة.

المصادر والمراجع والحواشي

1) Soumille (P.) : **Européens de Tunisie et questions religieuses (1892-1901). étude d'une opinion publique**, Paris C.N.R.S. 1975,P. 189.

2) Sebag (P.) et Attal (R.) : **L'évolution d'un ghetto nord africain : La Hara de Tunis**, Paris, P.U.F., 1959.

3) Ouled Mohamed (L.) : **L'imaginaire et la ville : le cas de Tunis au XIXème siècle**, thèse de 3ème cycle de sociologie, Paris, 1977.

4) Lumbroso (L.) : Les Granas de Tunisie de 1490 à nos jours, **La Gazette d'israél du 14-6-1951.**

Gazès (D.):**Essai sur l'histoire des israélites de Tunis**,Paris,1888.

5) Ganiage (J.) : La crise des finances tunisiennes et l'ascension des juifs de Tunis (1860-1880), **La revue tunisienne** N° 442-443, Tunis, 1955.

6) Haggège (C.) : **Les juifs de Tunisie et la colonisation française (jusqu'à la première guerre mondiale)**, thèse de 3ème cycle d'histoire, Paris, 1973.

7) Chalom (J.) : **Les israélites de la Tunisie, leur condition civile et politique**, Paris 1908, P. 191.

إنّ عددهم يتراوح بين 6000 و 7000 نسمة في تونس العاصمة حسب جاك شالوم. غير أنّ هذا الرقم لا يخلو من المبالغة لأنّ شالوم الذي كان يناشد فرنسا منح اليهود التونسيين الجنسية الفرنسية، تعمد في كتابه المذكور أعلاه رسم لوحة داكنة جدا لأوضاع اليهود.

8) انظر :

DE REYNAUD (E.P) : **Description de la régence de Tunis**,Paris,1853.

الحشائشي (محمد بن عثمان) : العادات والتقاليد التونسيّة : الهديّة أو الفوائد العلميّة في العادات التونسيّة (1904)، تونس، دار سراس، 1994.

9) الرابطة اليهودية العالمية L'ALLIANCEISRAELITEUNIVERSELLE تنظيم يهودي عالمي تأسس في باريس سنة 1860 بهدف نشر التعليم بين اليهود وإعانتهم ماديا ومعنويا.

10) يهود تونسيون، أي حاملون للجنسية التونسيّة وينتمي أغلبهم إلى طائفة "التوانسة".

11) Rapport au président de la république française sur la situation de la Tunisie, années : 1899, 1900 et 1901.

12) Valensi (A) : **Sion et liberté**, Tunis, 1919.

13) ابن أبي الضياف (أحمد) : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس، ستينات القرن 20، جزء 4، صفحة 260.

14) المصدر نفسه ج 5، الصفتان 164 و 165.

15) الطويلي (أحمد) : الجنرال حسين : حياته وآثاره، تونس، 1994.

16) كارل ماركس : المسألة اليهوديّة، ترجمة محمد عيتاني، مكتبة المعارف بيروت 1956، ص 56.

17) ليون (ابراهيم) : المفهوم المادي للمسألة اليهودية، دار الطليعة، بيروت 1973.

18) Karl Marx: Le **Capital**, livre III,Paris, éditions sociales, 1976,P.548

19) المقصود بالسلعة هنا (LAMARCHANDISE) الانتاج المعد للتسويق وليس للاستهلاك الخاص.

20) شيلوك : هو اسم المرابي اليهودي في مسرحية شكسبير الشهيرة : تاجر البندقية.

21) FOURNEL (M.) : **La Tunisie, le christianisme et l'islam dans l'Afrique septentrionale**, Paris, 1886, pp. 36, 37, 38 et 39.

22) أغلب الاستشهادات الواردة في هذه الدراسة ترجمتها عن الفرنسية.

23) ابن الطيب النوري : جهة توزر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شهادة كفاءة في البحث، كلية الآداب، تونس، 1977.

انظر أيضا أطروحة الحلقة الثالثة لأولاد محمد الحبيب التي تقدم ذكرها.

24) Raymond (A.) : La France, la Grande Bretagne et le problème de la réforme à Tunis (1855-1857) **Etudes maghrébines, mélanges charles andré julien**, Paris, P.U.F. 1964.

25) Chateur (K.) : Le constitutionnalisme en Tunisie au XIXème siècle, **les cahiers du C.E.R.E.S.**, N° 40-41-42 et 43, Tunis, 1975.

26) المصدر ذاته.

27) Slama (B.) : **L'insurrection de 1864 en Tunisie**, Tunis, M.T.E., 1967.

28) Ganiage (J.) : نفس المصدر

29) ابن أبي الضياف (أحمد) : المصدر المذكور سابقا، ج 6، ص 82.

30) المصدر ذاته ج 4 ص 56.

31) المصدر ذاته ج 3، ص 23.

32) Le sémaphore de Marseille مثلا

33) على سبيل المثال :

Maltzan (V.) : **Reise inden regenschaften Tunis und Tripolis**, Leipzig, 1870.

De souhesmes (D.) : **Tunis, histoires, mœurs, gouvernement**, Paris 1875.

34) FOURNEL (M.) نفس المصدر.

35) D'Oisy (P.J.) : **Autour d'un ramadan tunisien**, Paris, 1887.

كما أن مؤلف هذا الكتاب أنشأ سنة 1888 جريدة "القصبة" التي تسمي نفسها "جريدة معادية لليهود والرق".

36) صاحب جريدة LA TUNISIE FRANCAISE .

37) أنشأ سنة 1897 جريدة لا سامية تحت اسم L'ECHO TUNISIEN (الصدى التونسي).

38) انظر جريدة LE TEMPS الباريسية ليوم 3-1-1889.

39) Cazès (D.) : نفس المصدر

40) Hadria (C.) : **Du Protectorat française à l'Indépendance tunisienne, Souvenirs d'un témoin socialiste**, Nice, C.M.M.C., 1976, P. 8.

41) Arditti (R.): **Recueil des textes législatifs et juridiques concernant les Israélites de Tunisie de 1857 à 1913**,Tunis,1915.

42) جريدة LA TUNISIE FRANCAISE ليوم 30-9-1893.

43) تقدر سلطات الحماية عدد السكان المسلمين للعاصمة في آخر القرن الماضي بـ 80.000 نسمة تقريبا. انظر :

Ganiage (J.) : La population de la Tunisie vers 1860, essai d'évaluation d'après les registres fiscaux, **Population** (21 ème année) N° 5, institut national d'études démographiques, Paris, 1966.

44) أدولف كريميو (ADOLPHE CREMIEUX) : وزير العدل الفرنسي الذي منح الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر بمقتضى مرسوم 24-10-1870.

45) في ديسمبر 1898، وقع عدد من المحامين الفرنسيين العاملين في تونس عريضة تطالب بمنح اليهود التونسيين حق الاحتكام إلى المحاكم الفرنسية.

46) من تصريح أدلى به ريني ميلي (RENE MILLET) المقيم العام الفرنسي لجريدة LE TEMPS الباريسية ليوم 3-1-1889.

47) Smadja (M.) : **L'extension de la juridiction et de la nationalité francaises en Tunisie**, **Tunis**, 1905, PP. 24 et 25.

48) برنار لازار : (1865-1903) كاتب وصحفي فرنسي واحد العناصر البارزة في الحركة الصهيونيّة العالميّة.

49) Vehel (J.) : Le sionisme en Tunisie : apercu historique, **l'Egalité** du 22-30 avril 1919.

50) و ع ح ت، الحركة الوطنية، ص 8 م العنصر اليهودي و -42.

51) لقد تصاعدت في فرنسا آنذاك موجة اللاسامية في صفوف البروليتاريين والبرجوازيين الصغار الذين سلط عليهم المهاجرون اليهود من أوروبا الشرقية منافسة كبيرة في سوق الشغل، فلم تتردد

البرجوازية الحاكمة في تحويل عداء البروليتاريين والبرجوازيين الصغار لها إلى عداء لليهود. وكان الضابط اليهودي دريفوس (DREYFUS) بمثابة كبش الفداء الذي ضحت به البرجوازية لفك زخم الصراع الطبقي المحتد.

52) SOUMILLE نفس المصدر 203.

53) المصدر ذاته ص 205.

54) المصدر ذاته ص 216.

55) و ع ح ت، س E ص 550 م 16.

56) Hadria (E.C.) نفس المصدر ص 20.

57) Vehel (J.) نفس المصدر.

58) للتدقيق والتوسع انظر:

Vehel (J.) : La presse judéo-tunisienne de langue française, **le réveil juif** du 1-8 avril 1932.

Canal (A.) : **La littérature et la presse tunisiennes de l'occupation à 1900**, Paris (date de parution non indiquée).

Zawadovski (G.) : Index des journaux indigènes de Tunisie, **la revue des études islamiques** 2-3,1937.

Hoebrecht (CH.S.) : **La presse maghrébine**, Paris C.N.R.S. 1969.

انظر أيضا : و ع ح ت، س E ص 531 (الصحافة).

59) Maârek (H.) : **L'activité sioniste en Tunisie**, Tunis, 1919, P. 8.

60) الماشيح (LE MESSIE) : نبي من نسل داود يعتقد اليهود أنه سيظهر يوما ليجمع شتاتهم ويعود بهم إلى أورشليم ويبني المعبد.

61) Vehel (J.) : مَقَالَةٌ حول الصحافة المذكور أعلاه.

62) Rapport au président de la république sur la situation de la Tunisie, années 1902...1911.

63) Hadria (E.C.) : Les milieux juifs de Tunisie avant 1914 vus par un témoin, **le mouvement social** (France) N° 60, Juillet - Septembre 1967.

64) CHALOM (J.) نفس المصدر ص 4 و 5.

65) المصدر المذكور سابقا . Hadria (E.C.) : Les milieux juifs .

66) أحمد توفيق المدني : حياة كفاح، الجزء الأول، الجزائر 1976 ص 53.52.51

67) محمد الفاضل بن عاشور : الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الجامعة العربية، القاهرة 1956 ص 95.

68) كتيب طبيعته جريدة LE TUNISIEN (التونسي) بتونس سنة 1909 ويحتوي على المقالات التالية:

- Guellati (H.) : **La justice tunisienne**

- Zaouche (A.) : **Les israélites et la justice**

- Hanba (A.B.) : **Les israélites tunisiens**

69) La statistique générale de la Tunisie (1911-1923)

70) Vehel (J.) : Le sionisme ... المصدر المذكور سابقا

71) ناحوم سوكولوف (1859-1936) : صحفي وكاتب يهودي وأحد قادة الحركة الصهيونيّة العالميّة.

72) SEBAG (P.) : **Histoire des Juifs de Tunisie des Origines à nos jours**, Paris, L'Harmattan, 1991, P 168.

73) MAARE K (H.) نفس المصدر.

74) المصدر ذاته.

75) المصدر ذاته.

76) LAMBERT (P.) : **Dictionnaire illustré de la Tunisie**, Tunis, Saliba, 1912.

77) ج LA VOIX D'ISRAEL ليوم 15-1-1922.

78) Vehel (J.) : Le sionisme ... المصدر المذكور سابقا

79) Le Treiche (P.) : Le sionisme en Tunisie, **La voix juive** du 12-7-1930.

80) Herzel (TH.) : **L'Etat juif**, Paris, 1926, P. 72.

81) Valensi (A.) : **Le sionisme**, Tunis, 1913.

82) MAAREK (H.) نفس المصدر.

الباب الأول

***

الفصل الثاني

مرحلـــــة الدبيـــــب

(جانفي 1911 - نوفمبر 1917)

إنّ الحقيقة التي ستفرض نفسها على الصهاينة في هذه المرحلة هي أنّ إلتزامهم بالميثاق الذي انبثق عن المؤتمر الصهيوني العالمي الأول لا يمثل شرطا كافيا لقيام الوحدة بينهم واستمرارها، ومرد ذلك ما يتسم به هذا الميثاق من عمومية تجعله يقبل شتى التأويلات.

1) تحركات الاغودات صيون :

إنّ مرسوم 19 جانفي 1911 الذي يمنح الشرعية لهذه المنظمة قد فتح باب العمل الدعائي على مصراعيه أمام الصهاينة. وقد استأثر العمل الإعلامي بالحيز الأكبر من نشاطهم، إذ أنهم رسموا لانفسهم بادئ ذي بدء مهمة توسيع رقعة الوعي بوجود قضية صهيونية في صفوف اليهود، وتجريد تطلعات هؤلاء لفلسطين من الصوفية التي تكتنفها.

لقد كان أول عمل قامت به "الاغودات" على المستوى الخارجي هو الانضمام إلى المنظمة الصهيونية العالمية، لكن عن طريق الفدرالية الصهيونية الفرنسية لأنّ تونس "محمية" فرنسية آنذاك ومن مشمولات وزارة الخارجيّة الفرنسيّة لا وزارة الداّخلية (مثل الجزائر).

لقد كان أتباع الاغودات يدفعون، علاوة على رسم الانخراط في هذه المنظمة، ضريبة "الشاقل" (Le CHEKEL) التي تذهب عائداتها للمنظمة الصهيونية العالمية، وكانت قيمتها فرنكا فرنسيا 1,25 قبل الحرب العالمية الأولى، فأصبحت خمسة فرنكات في أعقابها. ويمنح "الشاقل" لدافعه حق الترشح أو ترشيح غيره لتمثيل صهاينة تونس في المؤتمرات الصهيونيّة العالميّة. وقد بلغ عدد "الشاقليين" حسب مصلحة الاستعلامات الفرنسية بتونس الألف سنة 1913، لكن انحدر سنة 1917 إلى ما بين 250 و300[1].

أما عن وسائل دعاية الاغودات، فالى جانب نشريتها الشهرية

LA VOIX DE SION (صوت صهيون)، فقد أصدرت جملة من الكراسات الدعائية حول مقومات الايديولوجية الصهيونيّة، حررها بالفرنسيّة ألفراد فالنزى. ولكي لا يبقى نطاق من تشملهم هذه الكراسات محصورا في اليهود الذين يتقنون اللغة الفرنسية، فقد تولى يعقوب كوهين (JACOB COHEN) مؤسس جريدة "الصباح" (ومديرها)، الذائعة الصيت، ترجمة أهم هذه الكراسات إلى اللهجة العبرية عربية، وهي لغة الجمهور العريض من اليهود "التوانسة" أي سكان "الحارة" و "سيدي بومردوم" ووسط البلاد وجنوبها[2]. وقد نشر ألفراد فالنزى في السنوات ما بين 1913 و 1917 عدة مقالات حول الصهيونية في جرائد ومجلات صهيونية أو متصهينة تصدر بفرنسا وبلجيكا.

كما أعاد في تونس نشر دراسة عن الصهيونيّة كان أصدرها في تونس عام 1906. وقد أطلق الصهاينة على مقر "الأغودات" اسم "الجامعة الشعبيّة" لأنّهم كانوا يستجلبون إليه كل يوم سبت جموعا من اليهود ويلقون عليهم الخطب والمحاضرات. ويذكر جاك فيهيل المشار إليه سابقا بأنّ[3] << ... أحد صناديد الضباط السامين للقوات المتمركزة بتونس ممن يهتمون كثيرا بالصهيونية قد أودع، قبل أن يلبي داعي الوطن عند صديقنا فيلكس طيب (FELIX TAIEB) عددا من المؤلفات حول المسألة (الصهيونية) وألح عليه أن يسهل تداولها بين كل الذين يرغبون في الإطلاع عليها >>. وقد أسست الاغودات مكتبة صهيونية، لكنها فشلت في تنظيم حلقة لتدريس اللغة العبرية[4]. وحول ارتباطات الاغودات بالخارج، يقول جاك فيهيل أنه قد استمع قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى "خطبة دعائية ألقاها بالعبرية مبعوث جاء من أوروبا>>[5]. وقد احتل العمل "الجباني" مركزا هاما في نشاط الاغودات، فعلاوة على الشاقل، هناك التبرعات المالية الطوعية لمؤسسة الصندوق القومي اليهودي (KEREN KAYAMET LEISRAEL)[6]. وقد أرسلت الاغودات يعقوب بخارى ممثلا عنها إلى المؤتمر الصهيوني العالمي العاشر الذي انعقد ببازل في أوت 1911. ويصف

جاك فيهيل عودة هذا الحبر "الغرني" قائلا : << ... لقد كانت عودة مبعوثنا جد مؤثرة حتى أنّ بعضنا لم يتمالك عن البكاء >>[7].

لقد تمحورت عملية التكييف الذهني التي أخضع لها الصهاينة جماهير اليهود حول المقولات التالية التي صاغها ألفراد فالنزى في العديد من كراساته الدعائية :
<< إنّ هدف الصهيونيّة هو "تأمين استقلال سياسي لليهود في وطنهم الأصلي فلسطين >>[8]. والصهيونيّة هي << ... إحدى الحركات القومية التي تفجرت في القرن الماضي[9] وهي << ... ليست شيئا جديدا بالنسبة لليهود >> لأنّها تعود إلى << ... الغزو الروماني ليهودا >>[10]. والصهيونيّة تخدم مصلحة البروليتاري اليهودي أساسا لأنّ << ... اضطهاده لا ينبع فقط من وضعه بصفته بروليتاريا بل من وضعه بصفته يهوديا أيضا >>[11] و << ... البرجوازي اليهودي بامكانه أن يدفع عن نفسه - ولو إلى حد ما - غائلة الاضطهاد حتى في البلدان التي تتميز بعدائها الضاري لليهود. أما البروليتارى اليهودي الذي يعيش في النزع الأخير من جراء الخصاصة واللاسامية، فهو صاحب المصلحة الحقيقي في الصهيونيّة >>[12] كما << ... أنّ العامل اليهودي من حقه أن لا يعتبر الوطن اليهودي المرتقب أكبر المطامع التي يصبو إليها. أو ليست الصهيونيّة اشتراكية قلبا وقالبا >>[13].

إنّ الصهاينة يؤكدون بالحاح أن حركتهم حركة قومية ويعتبرونها امتدادا للحركة القوميّة للقرن التاسع عشر. وإذا كانت بعض الفئات من البرجوازيين الصغار والمتوسطين من يهود أوروبا قد اعتبرت الصهيونية بمثابة الحل المنشود لأوضاعها المتردية، فانّ ذلك مرده للخطرين الداهمين اللذين حاقا بها :

- خطر التصفية الاقتصادية وحتى الجسدية المسلط عليها من قبل البرجوازيات التي بدأت تنمو على أنقاض الطبقات الاقطاعية في أوروبا الوسطى والشرقية.

- خطر التدحرج إلى مصاف البروليتاريا الذي بدأ يتراءى لها منذ أن أخذت

أوروبا الغربية تتدرج في مغيب القرن التاسع عشر نحو مرحلة الامبريالية، مرحلة ظهور الشركات الاقتصادية الاحتكارية العظمى. غير أنّ تمسّك البرجوازيين الصغار والمتوسطين بالصهيونيّة لا ينبغي أن يحجب عنّا الحقيقة التالية، وهي أنّ الصهيونيّة تعبر أساسا عن مصالح البرجوازيين الكبار المرتبطين عضويا بالشركات الاحتكارية العالمية.

إنّ الصهاينة بتأكيدهم أنّ ميلاد الصهيونيّة يرجع إلى تاريخ تدمير المعبد اليهودي يعتبرون ضمنيا أن الصهيونيّة هي مرادف اليهودية، وهذا الخلط بين الصهيونيّة واليهوديّة معناه توجيه أصبع الاتهام لكل يهودي يرفض الصهيونيّة. إنّ ألفراد فالنزى "الملحد" لا يعتبر الدين الركيزة الأساسية للذاتية اليهوديّة، وإن كان لا ينكر أنّه يمثل أحد مقوماتها، لكنه كان يركز بصفة خاصة على اللغة العبرية لأنها "اللغة القومية لليهود" على حد قوله. أما إلحاحه على الطابع الاشتراكي للصهيونيّة، فيهدف إلى تزيين الصهيونيّة لليهود واستغلال التطلعات الاشتراكية في أوساط البروليتاريين والبرجوازيين الصغار، وتسخيرها لفائدة الصهيونيّة. وقد طعم فالنزى كتاباته الدعائية بنفحات من اشتراكية جان جوريس (JEAN JAURES) الاصلاحية. وكان يرى أنّ الصهيونيّة يجب أن تحظى بالولاء على حساب متطلبات الصراع الطبقي.

إنّ أفكار ألفراد فالنزى التي روج لها الدعاة الصهاينة في أوساط اليهود تنتسب إلى يسار << التيار الصهيوني العام >>. (LE SIONISME GENERAL) وهنا نجد ضرورة في القول بأنّ تحديد "يسارية" أي صهيوني أو "يمينيّته" يتوقف على المقياسين التاليين : مقياس رئيسي، وهو الموقف من الدين اليهودي، ومقياس ثانوي، وهو الموقف من النظام الرأسمالي. ونحن إذ نخلع على ألفراد فالنزى صفة "اليسارية" فلأنه كان ملحدا و "اشتراكيا اصلاحيا". أما الصهيونيّة العامة التي ينتمي إليها، فهي حركة

تمثل مصالح بعض الفئات من البرجوازيين الكبار ليهود العالم. وقد صاغ أصحابها مصطلح الصهيونيّة العامة سنة 1907 لكي يرسموا خط تباين بينهم وبين التيارات الأخرى التي بدأت تعبر عن نفسها آنذاك داخل المنظمة الصهيونيّة العالميّة. ويعتقد الصهاينة العامون أنّ الهدف الأسمى الذي يجب على كل صهيوني أن يضعه نصب عَيْنَيْهِ هو استعمار فلسطين، أما الايديولوجيات فليست واردة [14].

ويحتل الصهاينة العامون موقع "الوسط" في الحركة الصهيونيّة العالميّة. ويعتبر حاييم ويزمان (CHAIM WEIZMAIN) أشهر من مثلهم.

أما الكيان الصهيوني الذي تريد الصهيونيّة ترجمته إلى حقيقة، فانّ الدعاية الصهيونيّة في تونس لم يكن لها تصور واضح حول الشكل الذي يمكن أن يتخذه، فالمطالبة بـ "استقلال سياسي لليهود في فلسطين" شعار غامض جدا، فهل كان المقصود بالاستقلال السياسي دولة قائمة بذاتها أم مندمجة في اتحاد فدرالي مع كيانات سياسيّة أخرى؟

إنّ نقاط الخلل في نشاط "الاغودات صيون" كثيرة. فالمنتمون إليها لم يتحمسوا كثيرا لقواعد الانضباط، بل كانت مساهماتهم في العمل الصهيوني مصطبغة بطابع "حرفي" ومرهونة بتقلباتهم المزاجية. ثم انهم لم يخضعوا لأي شكل من أشكال المحاسبة الجدية، كما أنه ليس هناك من الصهاينة - قياديين كانوا أم قاعديين - من احترف العمل السياسي وتخلى عن مشاغله اليوميّة الأخرى. وقد عرقلت عمل "الاغودات" كذلك النزاعات التكتلية القائمة على خلافات ذاتية بحت. ولم تقم "الاغودات" بأي نشاط دعائي في الأوساط النسائيّة اليهوديّة[15]. كما أنّ الصهاينة لم يفكروا في أي تحرك في اتجاه الأوساط غير اليهوديّة سواء لكسب الولاءات أو لتحييد المناوئين.

2) انشقاق اليوشبات صيون : (YOCHEBET SION)

لقد بدأت "الاغودات" تتآكل من الداخل، وهي لم تجتز بعد خطواتها الأولى

فهناك من الصهاينة المؤسسين من كان يعتبر الصهيونيّة مجرد حركة "خيرية" (PHILANTROPIQUE) لصالح الفقراء اليهود كجوزيف غانونة مدير جريدة TUNISIA (تونس)[16]. وقد نشب خلاف سرعان ما احتد بين الصهاينة اللاّئكيّين وعلى رأسهم ألفراد فالنزي والصهاينة المتدينين الذين يصرون على تأدية الصلاة في مقر "الاغودات"[17]. ولما تعمق الخلاف بينهم، أصبح الخيار الوحيد بالنسبة للصهاينة المتدينين هو الانفصال التنظيمي، خاصة أنهم لم يتمكنوا من افتكاك قيادة "الاغودات". وهؤلاء المتدينون هم : جاك بيلي (JACQUES BELAIS) وجيل بونان (JULES BONAN) والحبر يعقوب بخاري الذي ورد ذكره، واسحاق حايي (ISAAC HAI) وايلي دانا (ELIE DANA)، وقد شكلوا منظمة اسمها اليوشبات صيون (YOCHEBET SION). وجعلوا لها مقرا بـ 7 شارع باب الخضراء بمدينة تونس[18]. وقد حصلت هذه المنظمة على التأشيرة في جوان 1914[19]. وكان أول رئيس لها جيل بونان، وهو خبير في المحاسبات التجارية. أما أول رئيس شرفي لها فهو ايلي فيتوسي (ELIE FITOUSSI)، ممثل اليهود في "الندوة الاستشارية". أما الجريدة الناطقة باسمها فتسمى : TUNIS REVUE (مجلة تونس). ورغم غياب التجانس الايديولوجي والسياسي بين أعضاء اليوشبات، فانّ الأرضية الدنيا التي كانت تجمعهم، هي اعتبار الدين اليهودي جوهر الصهيونية، وهذا ما حدا بجريدة LA VOIX D'ISRAEL (صوت اسرائيل) إلى اعتبار هذه المنظمة ذات اتجاه "مزراحي"[20]، نسبة إلى حزب المزراحي الصهيوني الذي تأسس في المجر سنة 1902 تحت شعار التوفيق بين الدين اليهودي والصهيونية. وفي اعتقادنا أنّ من بين الأسباب التي عمقت الشعور لدى هؤلاء الصهاينة المتدينين بضرورة الانشقاق عن الاغودات هو تركيز المؤتمر الصهيوني العالمي العاشر الذي حضره الحبر يعقوب بخاري على ضرورة احياء الثقافة العبرية. كما أنّ ميلاد "اليوشبات" يعتبر بمثابة ردة فعل على ظاهرة النكوص عن اليهودية

والانسياق في تيار الحضارة الفرنسية (L'ASSIMILATION) الذي أخذ يسري بسرعة كبيرة خاصة في أوساط الشباب اليهودي المتخرج من مدارس "الرابطة اليهودية العالميّة" الموالية لفرنسا. وقد سخرت اليوشبيات معظم جهودها لنشر اللغة العبرية ولتعميق الاحساس لدى اليهود بضرورة التشبث بتراثهم الحضاري وخاصة بعموده الفقري الدين. وفي هذا الإطار نظمت دروسا لتعليم اللغة العبرية، وأسست جمعيات غنائيّة ومسرحيّة لا تستخدم في عروضها إلاّ اللغة العبرية. ولانتزاع الصدارة من الاغودات، بذلت هذه المنظمة نشاطا محموما وصل إلى حد التهريج[21]، إذ أنهـا عكفت على تنظيم حفلات صاخبة تكاد تكون أسبوعية، وذلك بغية تجميع أموال أكثر من الاغودات لفائدة الصندوق القومي اليهودي. غير أنها عجزت بعد فترة قصيرة عن التمادي في هذا النشاط المضني. لقد كانت هذه المنظمة ترسل عائدات الشاقل والتبرعات المالية التي تتجمع لديها إلى (ZIONIST PROVISIONNAL COMITTEE) (اللجنة الصهيونيّة المؤقتة) في نيويورك، لكن صعوبة الاتصال بهذه المدينة البعيدة جدا ألجأتها إلى الانخراط في الفدرالية الصهيونيّة الفرنسيّة، وذلك في بداية 1918[22]. وقد بلغ عدد المنضوين تحت لوائها حسب مصلحة الاستعلامات 500 نفر في أواخر 1917[23].

3) المنظمات الصهيونية الأخرى :

إلى جانب الاغودات واليوشبات، توجد منظمتان أخريان ظهرتا في البلاد قبل صدور وعد بلفور هما "ترهام صيون" (TERHAM SION) في سوسة ويترأسها دافيد طوبيانه (DAVID TOUBIANA) ولا نعرف على وجه التدقيق متى نشأت، و "أوها في صيون" (OHAVE SION) في صفاقس التي تأسست بمقتضى مرسوم صادر في 17-7-1915. ومن الجدير بالذكر أنّ الخط السياسي السائد في هاتين المنظمتين هو الخط الصهيوني العام، لكن الثابت هو وجود تيارات أخرى ما زالت لم تكتسب قدرا أدنى من التجانس والوضوح.

4) الحركة الصهيونية في سنوات الحرب العالمية الأولى:

لقد خدم النشاط الصهيوني أثناء الحرب تحت وطأة جملة من الأسباب الموضوعية أساسا.

إنّ الشعار الذي وضعه الصهاينة نصب أعينهم منذ 1911 هو التحرك بحذر شديد. يقول الصهيوني هنري معارك (HENRI MAAREK) في هذا المضمار[24] <<...إنّ اليهود نظرا لقلة عددهم وخضوعهم لنظام خاص وتعايشهم مع فئات سكنية متباينة وغير متجانسة، لا يمكن لهم إلاّ ملازمة الحذر الشديد لأنّ أي تحرك مرتجل أو في غير محله قد ينسف رصيد التعاطف مع قضيتنا في أوساط بقية المواطنين >>. وحين اندلعت الحرب، أصبح شعار الحذر مطروحا بأكثر حدة مما سبق، نظرا للظروف الاستثنائية الناجمة عن حالة الحرب.

وقد تطوع للقتال إلى جانب فرنسا ما يربو عن 400 يهودي من ذوي الجنسية الفرنسية والجنسيّة التونسيّة[25]. كما تطوع إلى جانب ايطاليا عدد من اليهود من ذوي الجنسيّة الايطاليّة. ويوجد ضمن هؤلاء المتطوعين الذين حاربوا في كلا المعسكرين المتقاتلين أثناء الحرب عدد من الصهاينة من ذوي القدرات الذاتية المرموقة. وقد أثّر غيابهم بحدة في الحركة الصهيونيّة في تونس.

وقد أصبح النشاط السياسي ممارسة محفوفة بالاخطار منذ أن أعلنت فرنسا حالة الحصار في البلاد بهدف قطع الطريق أمام تحركات الجماهير "المسلمة" التي هبت لمعارضة السياسة الاستعمارية في مظاهرة دامية يوم 7 نوفمبر 1911 بمقبرة الجلاز بتونس العاصمة. فطبيعي أن يحصر الصهاينة نشاطهم ضمن حدود ضيقة جدا لكي لا يقعوا في مجابهة سافرة مع السلطات الفرنسيّة.

كما أنّ ولاء صهاينة تونس لفرنسا - وهي العدو اللدود لألمانيا - لم يكن فوق مستوى الشبهات، وهذا ما جعل وزارة الخارجية الفرنسيّة تطلب من السلطات الفرنسيّة

بتونس اخضاع مراسلاتهم مع الخارج لرقابة مشددة، خاصة أنّها تعلم علم اليقين أن قيادة الحركة الصهيونيّة العالميّة كانت قبل اندلاع الحرب موالية لألمانيا[26].

كما أنّ أوضاع العسر والشدة التي خلفتها الحرب في البلاد قضت على كل الجرائد اليهوديّة والصهيونيّة والمتصهينة، ففقد بذلك الصهاينة أهمّ وسائلهم الدعائية. ثمّ أنّ البداهة تفرض على الصهاينة تجنب كل ما من شأنه أن يستفز المسلمين الذين تضرروا من ويلات الحرب أكثر من غيرهم من بقيّة سكان البلاد.

5) الهبة اللاسامية (21 أوت - 1 سبتمبر 1917) :

إنّ الضريبة الباهضة التي دفعها السكان المسلمون للحرب والمتمثلة في سقوط الآلاف منهم في الخطوط الأماميّة للقتال، وتسخير عشرات الآلاف منهم في الخطوط الخلفية، وتردي أحوالهم المعيشية من جراء التهاب الأثمان واستفحال البطالة، جعلتهم يدركون أكثر من أي وقت مضى شراسة النظام الجائر الذي أقحمتهم فرنسا في دواليبه منذ 1881.

أما بالنسبة للجالية الفرنسيّة، فانّ الحرب أجبرت العديد من موظفيها وفلاّحيها وصناعييها وتجارها على قطع نشوة النهب الذي يمارسونه على حساب البلاد التونسيّة لتزج بهم في أتون المعارك.

أما اليهود الذين كانوا معفيين رسميا من الخدمة العسكرية، فقد استغلوا فرصة تغييب منافسيهم من التجار الفرنسيين ليعتصروا السكان في نهم عارم. ورغم أنّ السلطات الفرنسيّة جندت كل طاقاتها لوضع حد لمضارباتهم التجارية، فانها لم تنجح ولو نسبيا في ذلك. << ... إنّ رئيس الحجرة التجاريّة الايطاليّة بتونس وهو يهودي قد جنى أرباحا طائلة من عمليات التوريد >> على حد قول وزير الخارجية الفرنسي آنذاك[27]. ورغم الإعانة الطوعيّة، بشريًا وماديًا، التي قدمها اليهود لفرنسا أثناء

الحرب، ورغم سدهم لبعض الشغور الإداري الناجم عن إلتحاق الموظفين الفرنسيين بالجبهة[28]، ورغم ضريبة مرابيح الحرب التي سلطت عليهم، فان مساهمتهم هذه في دعم المجهود الحربي الفرنسي تبدو في منظور الفرنسيين ضئيلة جدا بالمقارنة إلى ما كدسوه من ثروات أثناء الحرب. وقد ازداد حقد الفرنسيين عليهم جموحا لانهم يعتبرونهم المستفيدين الوحيدين من واقع "الحماية" المفروض على تونس، بينما الفرنسيون وهم أرباب الدار تزهق أرواحهم بالعشرات في خطوط النار.

إنّ المسؤول الرئيسي عن التدهور المريع للظروف المعيشية لسكان البلاد من المسلمين خاصة، هي الطبقة الحاكمة الفرنسيّة بصفتها ممثلة للرأسمالية الامبريالية، وليس اليهود. وقد وجدت هذه الطبقة في اجماع كل السكان على استفظاع الممارسات الربوية لليهود أثناء الحرب فرصة سانحة لإثارة النعرة اللاسامية، وتحويل نقمة سكان البلاد عليها إلى نقمة ضد عدو "ديني" تسقط عليه مسؤولية المعاناة الجماهيريّة، وبذلك يدفع "اليهود" ثمن تهدئة التوترات الطبقية المعادية لها. وتنطبق على اللاساميين في تونس مقولة الاشتراكي الألماني أوغيست بابل (AUGUSTE BEBEL) << اللاسامية هي أشتراكية الاغبياء >>. لقد تدرجت مواقف السلطات الاستعمارية بهدف تغذية التناقض بين المسلمين واليهود وتصعيده إلى درجة الصدام - من التغاضي عن الأعمال المناوئة لليهود إلى التواطئ المتستر معها إلى التحريض شبه العلني عليها. وقد بدأت الاصطدامات بين الجنود التونسيين والفرنسيين المسرحين وقتيا وبين اليهود تتكاثر إلى درجة أن المحاكم بتت في 14 قضية من هذا القبيل سنة 1916[29]. وقد تمخض هذا المناخ المثقل باللاسامية عن موجة عارمة معادية لليهود لم تشهد البلاد لها مثيلا منذ 1881. ففي الفترة الزمنية الممتدة بين 21 أوت وفاتح سبتمبر 1917، انبرى العديد من السكان "المسلمين" المنتمين في أغلبهم إلى القاع البائس للمجتمع وعدد من الفرنسيين، فأثخنوا في

متاجر اليهود سلبا وتخريبا، وذلك في تونس وسوسة وقرمبالية وباجة والقيروان وصفاقس وبني خلاد وبوفيشة ومنزل بوزلفة. وقد لحقت بأكثر من مائة متجر يهودي أضرار جسيمة قدرتها سلطات "الحماية" بـ 20451575 فرنكا[30]، وقدرها اليهود بـ 33450820 فرنكا[31]. وقد شكل بعض البرجوازيين اليهود وبعض الصهاينة "لجنة الدفاع اليهودي"[32]، لتصفية آثار الهبة اللاسامية واتخاذ كل ما من شأنه أن يحصن اليهود ضد التعديات في المستقبل. وقد قامت هذه اللجنة بحصر كمي للاضرار، كما أنّها كتبت رسائل إلى رئيس الجمهورية الفرنسيّة والرابطة اليهودية العالميّة ،رابطة الدفاع عن حقوق الانسان والمواطن (المستقرة بباريس) لتندد بما أسمته بـ "اللامبالاة الآثمة"[33] التي أظهرتها السلطات الفرنسيّة إبان الهبة اللاسامية. وقد تحول رئيس الحجرة التجارية الايطالية بتونس وهو يهودي غُرني إلى باريس، وذلك لتحسيس القنصلية الايطالية بالأوضاع المأسوية لليهود في ظل الحكم الفرنسي. ولتبييض وجهها واسكات الأصوات المحتجة، وافقت السلطات الفرنسيّة على مبدإ النظر في تقديم تعويضات لليهود عن الخسائر المادية التي لحقتهم.

لقد أطلق "أوت 1917" في صفوف أغلبية اليهود، موجة عداء لفرنسا وفتح أعينهم أكثر على حقيقة نوايا فرنسا تجاههم. وكانت صدمة أوت بمثابة المنبه الذي صحا به عدد كبير منهم على حقيقة ضرورة الانضمام إلى الحركة الصهيونيّة أو إلى الحركات السياسيّة المعارضة لفرنسا في تونس، وهي الحركة الشيوعية والحركة الاشتراكيّة الديمقراطيّة والحركة الوطنيّة التونسيّة، وهي حركات سياسيّة معارضة للنظام القائم، لكن من مواقع مختلفة، ففيها من كان من موقع التصويب والتعديل وفيها من كان من موقع الرفض التام.

المصادر والمراجع والحواشي

1) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و - غير مرقمة تحمل تاريخ 2 - 12 - 1917.

2) Vehel (J.) : ... Le sionisme المصدر المذكور سابقا.

3) المصدر ذاته.

4) المصدر ذاته

5) المصدر ذاته

6)*ظهرت للوجود سنة 1901. وقد نص قرار انشائها على أنّ تستخدم أموالها المتأتية من التبرعات اليهودية في شراء الأرض في فلسطين وعلى منع بيع الأرض المشتراة أو رهنها بحيث تبقى ملكا "للشعب اليهودي".

7) Vehel (J.) : ... Le sionisme المصدر المذكور سابقا.

8) Valensi (A.) : ... Le sionisme المصدر المذكور سابقا.

9) المصدر ذاته

10) المصدر ذاته.

11) Valensi (A.) : Sionisme et lutte de classes, **l'écho sioniste**, Juin 1913, Paris.

(وقع ترويج هذا المقال في تونس).

12) المصدر ذاته.

13) المصدر ذاته.

14) انظر

- LAQUEUR (W.) : **Histoire du sionisme**, C. Lévy, Paris, 1973.

- زروق أسعد : نظرة في أحزاب اسرائيل، منظمة التحرير الفلسطينيّة، مركز الأبحاث، بيروت 1966.

15) MAAREK (H.) : ... L'activité المصدر المذكور سابقا.

16) ج Le Réveil Juif ليوم 11 - 10 - 1929.

17) MAAREK (H.) : Sionisme et religion, **la Gazette d'israél** du 16-2-1950

18) لا يزال هذا الشارع قائما إلى اليوم ويحمل نفس التسمية.

19) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و - غير مرقمة تحمل تاريخ 12 - 2 - 1917.

20) La voix d'israél ليوم 24 - 3 - 1921.

21) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و - غير مرقمة ولا تحمل تاريخا.

22) ج TUNISIA للاسبوع من 8 إلى 15 أفريل 1918.

23) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و - غير مرقمة تحمل تاريخ 12 - 2 1917.

24) MAAREK (H.) : L'activité sioniste ... المصدر المذكور سابقا.

25) ج Le Réveil juif ليوم 31 - 3 - 1933.

26) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و - غير مرقمة تحمل تاريخ 6 - 12 - 1917.

27) و ع ح ت، الحركة الوطنية ص 5 م 13 و 10.

28) La revue israélite ليوم 20 - 11 - 1924.

29) و ع ح ت، الحركة الوطنية ص 5 م 13 و 7.

30) و ع ح ت، الحركة الوطنية ص 5 م 13 و - غير مرقمة.

31) المصدر ذاته.

32) و ع ح ت، ملفات المشبوه فيهم م 1339.

33) و ع ح ت، الحركة الوطنية ص 5 م 13 و 10.

الباب الأول

***

الفصل الثالث

مرحلة الوقوف على الأرجل

(نوفمبر 1917 - أوت 1927)

إنّ السمة الرئيسيّة للحركة الصهيرنيّة في هذه المرحلة تتمثل في انتهاء عملية توزع الصهاينة على أهم التيارات التي كانت تشق الحركة الصهيونية العالمية آنذاك، بحيث يصبح من الممكن مع إطلالة العقد الرابع من القرن 20 أن يتجاوز الصراع بين الأطراف الصهيونيّة المزالق الذاتيّة التي كان ينجر إليها سابقا ويتمحور حول مسائل إيديولوجية وسياسيّة.

1) تكاثر المنظمات الصهيونية ونشاطاتها :

من بين كل حركات المعارضة السياسيّة الساعية إلى توسيع قواعدها الجماهيريّة، تعتبر الحركة الصهيونيّة من المستفيدين الرئيسيين من انعكاسات "أوت 1917" على اليهود، اذ استطاعت استقطاب أعداد لا يستهان بها منهم. وقد جاءت وثيقة بلفور (DECLARATION BALFOUR) (الصادرة عن بريطانيا يوم 2 نوفمبر 1917) في الإبان لتثبت لهؤلاء الوافدين على الحركة الصهيونيّة بأن الصهيونيّة ليست مجرد تعلل بالآمال الخادعة كما كان يخيل للعديد منهم من قبل. ومما تجدر ملاحظته، هو أنّ الصهاينة في تونس قد استشعروا أنّ الحرب لا بدّ أن تتمخض عن مكاسب للحركة الصهيونيّة العالميّة، اذ يقول ألفراد فالنزى في هذا الصدد سنة 1917[1] :"...على غرار كل الشعوب الحية التي تؤمل استرجاع حريتها الوطنية بعد هذه الحرب، فان اسرائيل واثقة من أنّ الاعتراف بحقوقها المقدسة آت لا ريب فيه".

لقد حول وعد بلفور المناخ المأسوي الذي خيم على اليهود الصهاينة بعد أوت 1917 إلى مناخ تفاؤلي سعيد، وأشاع في صفوفهم شعورا مشطا بالاعتداد بالنفس. وقد اعتبروه بمثابة صفعة لكل الذين امتهنوهم وأذلوهم في أوت 1917، لذلك فهم لم يستنكفوا من استفزاز بقية المتساكنين[2]، ووصل بهم الأمر إلى حد الاستخفاف بالاحتفالات التي كانت تدور بمناسبة انتصار "الحلفاء" والمجازفة بتنظيم مظاهرة

صاخبة في شوارع العاصمة. ولم يتوان الفرنسيون في الرد عليهم، فمزقوا العلم الصهيوني الذي كان يطوف به الصهاينة وألحقوا أضرارا ببعض المتاجر اليهوديّة. وقد كان المقيم العام الفرنسي آنذاك إيتيان فلاندان (ETIENNE FLANDIN) معروفا بكرهه لليهود. ولعله يكفي لتأكيد حقيقة مشاعره هذه أن نعرف أنه لم يتورع عن الاعلان على رؤوس الملا بأنه لا يقبل مبدأ تقديم تعويضات لليهود المتضررين في أوت 1917 ونوفمبر 1918 إلاّ حين يسحب هؤلاء كل الشكاوي التي تقدموا بها للمحاكم، خاصة وأنها موجهة ضد عدد كبير من مواطنيه[3]. وقد جمد المقيم العام الذي خلفه وهو ليسيان سان (LUCIEN SAINT) مسألة جبر الأضرار، بحيث لم تجتمع لجنة التعويضات التي شكلت لهذا الغرض إلاّ 16 جوان 1926، أي بعد تسع سنوات كاملة من الهبة اللاسامية. وقد قدرت هذه اللجنة الخسائر بـ 14810330 فرنكا مقابل 30650765 فرنكا التي يطالب بها اليهود[4]. إنّ السبب الكامن وراء طول المدة الفاصلة بين الهبة اللاسامية وحسم قضية الأضرار يرجع إلى المناخ اللاسامي الذي لم يفتر طوال هذه المدة. فمن باب المثال لا الحصر، لم يتمكن المحامون اليهود (أو المسلمون أيضا) من الانخراط في رابطة المحامين إلاّ بعد فوز المساندين لهم بأغلبية صوت واحد، هو صوت المحامي الفرنسي ديران أنغليفيال (DURAN ANGLIVIEL) أحد أقطاب الحركة الاشتراكية الديمقراطية في تونس[5]. وقد أصدر عدد من الفرنسيين سنة 1920 جريدتين لا ساميتين هما LE FALOT (الزري) و LA GAZETTE NATIONALISTE (الجريدة القومية)، كما جدت في النصف الثاني من جويلية من نفس السنة بعض الاصطدامات بين اليهود والمسلمين في حلق الوادي وتونس[6]. وقد ظهرت سنة 1921 جريدة لا سامية يديرها فرنسيون هي LA VOIX FRANCAISE (الصوت الفرنسي). وفي أفريل 1923 وماي 1924، شهدت أريانة بعض المناوشات بين المسلمين واليهود[7]. وفي سنة 1924 أوصدت رابطة الأطباء في

تونس باب الانتماء إليها أمام طبيبين يهوديين رغم أنهما من المتجنسين بالجنسية الفرنسيّة[8]. أما الملصقات الحائطية التي تطالب بمقاطعة التجار اليهود، فقد كانت. عملة شائعة في بداية العشرينات[9].

لقد احتفلت الاغودات بالذكرى الأولى لوعد بلفور بطلب من المكتب التنفيذي للمنظمة الصهيونيّة العالميّة بلندن[10]. كما أنها أرسلت هي والمنظمات الصهيونيّة الأخرى برقيات شكر إلى حكومات الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية الكبرى التي اعترفت بوعد بلفور. وقد روج الصهاينة في الأوساط اليهودية نص برقية الاعتراف بوعد بلفور التي أرسلها إلى ناحوم سوكولوف (NAHUM SOKOLOW)[11] في 16 - 2 - 1918 وزير الخارجية الفرنسي آنذاك ستيفان بيشون (STEPHEN PICHON) الذي كان شغل منصب مقيم عام لفرنسا بتونس من 1901 إلى 1907. كما أن الاغودات أرسلت بطلب من المنظمة الصهيونيّة العالميّة عريضة تناشد فيها مؤتمر الصلح المنعقد بباريس بتثبيت وعد بلفور في المعاهدات التي ستنبثق عنه[12]. وقد نسجت المنظمات الصهيونيّة الأخرى على منوالها. ولعل من الأمور الجديرة بالملاحظة هو أنّ حاييم ويزمان المسؤول الأول آنذاك في المنظمة الصهيونيّة العالميّة قد ذكر في حديثه مع ممثل الولايات المتحدة الأمريكية في مؤتمر الصلح أنّ الاستعمار التوطيني الفرنسي في تونس يعتبر بالنسبة للصهاينة مثالا يحتذى. يقول حاييم ويزمان في هذا الصدد في مذكراته[13]: " ...لقد استشهدت بالنجاح الرائع الذي حققه الفرنسيون في تونس آنذاك، وقلت أنّ في مقدور اليهود بمالهم من عزيمة ومال ونفوذ وحماس أن يحققوا في فلسطين ما حققه الفرنسيون في تونس". وفي غمرة الانتشاء الخمري بوعد بلفور، بدأت فكرة الهجرة إلى فلسطين تخامر بعض الصهاينة. ومن باب المثال لا الحصر، فقد طلب في أواخر أوت 1917 تاجر صهيوني من باجة يدعى فرنان طوبيانه

(FERNAND TOUBIANA) من سلطات "الحماية" الترخيص له في الهجرة إلى فلسطين حتى يكون "داعية متحمسا للحضارة الفرنسية"[14]. وقد طلبت في أواخر 1918 المنظمة الصهيونيّة العالميّة من الاغودات موافاتها بقائمة من المترشحين للعمل بالمستوطنات الصهيونيّة في فلسطين[15]. وفي جويلية 1920، سافر عدد من التجار الصهاينة إلى فلسطين لمعاينة الأوضاع هناك قبل أن يهاجروا إليها[16]. وقد عينت المنظمة الصهيونيّة العالمية سنة 1921 المحامي ألبار بسيس (ALBERT BESSIS) نائبا عنها في شؤون الهجرة التونسيّة إلى فلسطين. وقد غمر الغرور الصهاينة كثيرا بعد أن قامت عصبة الأمم بمنح الانتداب لبريطانيا على فلسطين، وبتكليفها بتسهيل ظروف انشاء دولة صهيونيّة في فلسطين. فعلى سبيل المثال، أحاط عامل منطقة الأعراض الوزير الأكبر علما في أكتوبر 1920 بأنّ صهاينة قابس يتبجّحون بالعلم الصهيوني على مرأى ومسمع من جميع السكان، وبالرغم من استنكار أعيان اليهود هناك لصنيعهم[17]. وقد أغرق الصهاينة في التفاؤل ظنا منهم أنّ "الوطن القومي" أصبح هدفا دانيا ويسيرا، فشرعوا في تأسيس التنظيمات الصهيونيّة. وقد تكاثرت هذه التنظيمات رغم أنه ليس لها من مبررات في أغلب الأحيان غير نزعات ذاتية، فزمر المثقفين الذين تسابقوا لتأسيسها لا يمثلون اتجاهات متباينة. لقد كانت كل منظمة تبرر ظهورها بأنها تمثل البديل الذي سيتجاوز "واقع الجمود" الذي يكبل سابقاتها، لكنها لا تكلف نفسها مؤونة جرّ هذه المنظمات "الجامدة" إلى مواقع متقدمة. فعلاوة على الاغودات واليوشبات و "ترهام صيون" و "أوها في صيون"، ظهرت سنة 1917 منظمة "بحوري صيون" (BEHOURE SION) أو الشبيبة الصهيونيّة لشمال افريقيا. وقد أسسها جوزيف غانونة (JOSEPH GANOUNA) مدير جريدة TUNISIA (تونس). وقد استقرت بـ 23 شارع البروتستان بتونس العاصمة. ويمثل مؤسس هذه المنظمة الاتجاه الذي يحمل الصهيونيّة مضمونا خيريا

(SIONISME PHILANTROPIQUE) لصالح المعدمين وضعاف الحال من اليهود[18]، وهو من المطالبين بمنح اليهود حق التقاضي أمام المحاكم الفرنسيّة، ويفتح باب الجنسية الفرنسيّة واسعا أمامهم، لكنه لا يخفي معارضته للذين ينادون بتمثّل الحضارة الفرنسية، وهذا ما يفسر تعاطفه مع اليوشبات واشتهاره في أوساط اليهود اليساريين بأنه محافظ سياسيا[19]. ويذكر جوزاف غانونة في برقية وجهها في فيفري 1918 إلى الفدرالية الصهيونيّة الفرنسية أنّ منظمته لها 500 منخرط[20].

وقد تأسست كذلك منظمة حيروث صيون (HIROTH SION) في القيروان في أواخر النصف الأول من 1919، وتأسست في الكاف منظمة بروصيون (PRO SION) في مطلع النصف الأول من 1920. وفي أواسط 1920، تأسست في نابل منظمتان صهيونيتان في آن واحد هما تبادي صيون (TIPPADI SION) وتكوات صيون (TIKWAT SION). وفي مطلع الربع الثاني من 1921، تأسست في تونس العاصمة منظمة مسامح صيون (MESSAMEAH SION). وفي أواخر النصف الأول من 1921، أسست مارسال قينسبورغ (MARCELLE GUINSBURG) بتونس العاصمة أول منظمة صهيونيّة نسائية في تونس تحت اسم هتيكفاه (HATIKVA).

وقد اندمجت بحوري صيون والاغودات في أواسط 1920، لكن ذلك لم يغير كثيرا من واقع التكاثر المحموم للمنظمات الصهيونيّة. وقد فشلت كل المساعي التي بذلت من أجل توحيد الاغودات واليوشبات.

ولقد أخذت الاغودات تصدر بداية من 1920 جريدتين باللهجة العبرية عربية، هما : كل صيون (KOL SION) (صوت صهيون) و "الوطن"، وذلك بغية :

- التعريف بالقضية الصهيونيّة في أوساط يهود الحارة وسيدي بومردوم ووسط البلاد وجنوبها الذين لا يتقنون إلا اللهجة العبرية - عربية.

- انتداب المؤيدين عن طريقهما.

- التصدي لجريدة الصباح (العبرية - عربية) التي ما إن عادت للظهور بعد الحرب حتى استرجعت بسهولة قاعدتها الجماهيرية العريضة. وهذه الجريدة رغم اتجاهها الصهيوني الخيري، فانّ الاغودات تريد حصر نفوذها ضمن حدود ضيقة جدا لأنها تدعو اليهود لتمثل الحضارة الفرنسية.

وإلى جانب تركيزها على الدعاية المكتوبة، وهي سمة تشترك فيها مع كل المنظمات الصهيونيّة، مارست الاغودات الدعاية الشفوية. وعلى سبيل المثال، تفيد مصلحة الاستعلامات أنّ ألفراد فالنزى قام بجولة دعائيّة في أوت 1923 بقابس ومدنين وجربة[21]. ورغم أنّ الاغودات تعتبر - وهذا طبيعي - أنّ مدينة تونس بضمها لأغلبية يهود البلاد، ينبغي أن تكون الحلقة الرئيسيّة في نشاطها، إلاّ أنها لم تهمل بقية التجمعات السكنية اليهودية خارج العاصمة، حيث عملت على تركيز فروع لها في صلبها. أما اليوشبات، فان الوثائق التي توفرت لدينا تلازم الصمت حول ما اذا كانت لها فروع داخل البلاد أم لا. أما ترهام صيون في سوسة، فقد أسست على حد قولها فروعا في المهدية والقيروان ومكنين وسبيطلة[22]. أما أوهافي صيون فاننا لا نعرف ما اذا كان لها اشعاع خارج مدينة صفاقس أم لا.

إنّ من الأمور الجديرة بالملاحظة، هو أنّ ما تسميه هذه المنظمات الأربع فروعا ليست في أغلب الحالات سوى أسماء بدون مضامين حقيقية، اذ يكفي أن يعلن بعض الانفار تعاطفهم مع هذه المنظمة أو تلك حتى تسارع هذه الأخيرة باعتبارهم فرعا من فروعها.

إنّ السمة البارزة في علاقات المنظمات الصهيونيّة ببعضها البعض هي العداء الشديد. ولم يكن السبب الكامن وراء ذلك عقائديا، بل كان مرده للتنافس الضاري حول اقتسام سوق المؤيدين للصهيونيّة أو المتعاطفين معها. وقد زرعت هذه الصراعات البلبلة والارباك في صفوف الصهاينة القاعديين، إلى درجة أنّ العديد منهم انسحب

تماما من الساحة الصهيونيّة. وقد زاد في توسيع شقة النزاع بين هذه المنظمات ارتباطها بالحركة الصهيونيّة الفرنسيّة التي تمثل "الرجل المريض" في الحركة الصهيونيّة العالمية. يقول هنري معارك التي تقدم ذكره سنة 1919[23] << ... لا يمكن لنا في هذا البلد الخاضع لفرنسا إلاّ السير في ركاب الصهاينة الفرنسيين وإعانتهم معنويا في نشاطهم الديبلوماسي، اذ ليس لنا من النفوذ ما يجعلنا قادرين على التأثير في رجال السياسة وفي الدول >>. إنّ ضعف الحركة الصهيونيّة في فرنسا يرجع أساسا إلى عمق حركة ذوبان اليهود في المجتمع الفرنسي وشمولها. وهذا العامل الموضوعي يجعل فرنسا على حد قول فريدمان روتنبارغ (FRIEDMAN ROTENBERG) أحد صهاينتها آنذاك << ... الأرض التي تفوق وعورتها كل ما يتصوره الانسان >>[24]. ففي سنوات الحرب، أصبحت الحركة هناك شبه مشلولة من جراء استفحال الخلافات داخلها، وقد تمكنا على ضوء ما توفرت لنا من وثائق من نسج خيوط هذه الخلافات[25]. فقد تأسست الفدرالية الصهيونيّة على تخوم القرنين 19 و 20[26]. وكان أول رئيس لها الاسكندر مارمورك (ALEXANDRE MARMOREK)، أما الجريدة الناطقة باسمها فهي (L'ECHO SIONISTE) (الصدى الصهيوني)، وكانت موالية للصهيونية السياسيّة (SIONISME POLITIQUE)، وهو الاتجاه الذي يرى أن المسألة اليهودية هي مسألة لا يمكن أن تحل إلا عن طريق الضمانات الدولية. غير أن هناك اتجاها آخر ما انفك يتدعم داخل الفدرالية، هو الاتجاه الصهيوني العملي (SIONISME PRATIQUE) الذي يرى أنّ حلّ المسألة اليهودية لا يمكن أن يتأتى عن طريق العمل السياسي والديبلوماسي، وإنما عن طريق التسرب إلى فلسطين وخلق الوقائع الاستيطانية بها. وقد استطاع الصهاينة العمليون أن يجلبوا لصفهم أربع منظمات صهيونيّة منخرطة في الفدرالية، ثم انشقوا عن الفدرالية في بداية الحرب العالمية الأولى، وشكلوا "لجنة مركزية" برئاسة المحامي مارك بليس (MARC BILLIS) وأخذوا يصدرون جريدة اسمها

(LA RENAISSANCE JUIVE) (الانبعاث اليهودي). وقد دار صراع عنيف بينهم وبين الصهاينة السياسيين الذين أصبحت قاعدتهم الجماهيرية تقتصر على ثلاث منظمات صهيونيّة فقط. وكان على رأس الصهاينة السياسيين آنذاك الدكتور كلاين (DOCTEUR KLEIN). أما جريدتهم فهي LE PEUPLE JUIF (الشعب اليهودي) التي عوضت L'ECHO SIONISTE (الصدى الصهيوني). وفي جويلية 1916، تمّ الاتفاق بين الصهاينة العمليين والصهاينة السياسيين على برنامج حد أدنى حصلت بمقتضاه الوحدة الاندماجية بين "الاخوة الاعداء" . ولتكريس هذا التصالح، أصبحت الجريدة الناطقة باسم الفدرالية المعادة البناء تحمل اسم (LA RENAISSANCE DU PEUPLE JUIF) (انبعاث الشعب اليهودي). وفي جويلية 1917، انتصر مارك بليس في انتخابات رئاسة الفدرالية، لكن الصهاينة السياسيين طعنوا في شرعية الانتخابات، فأعيدت في أواخر سبتمبر من نفس السنة، لكن الفوز حالف من جديد مارك بليس، فرفض الصهاينة السياسيون الانصياع من جديد لحكم الانتخابات، واعتبروا أنّ المنظمات الأربع الموالية لمارك بليس قد شاركت في الانتخابات بعدد من المنوبين يفوق حجمها العددي، فأصبحت اذن هناك فدراليتان، تزعم كل واحدة أنها هي الممثل الشرعي والوحيد للحركة الصهيونية في فرنسا. وحين وقع الاعلان عن وعد بلفور، أصبح الخلاف بين الصهاينة العمليين والصهاينة السياسيين لا مبرر له، فاندمجت الفدراليتان من جديد في صلب تنظيم موحد. ولتجنب النزاعات البيروقراطية، أعيد بناء الفدرالية على المنوال الأمريكي. وتجدر الاشارة هنا إلى أنّ الصهاينة الامريكيين الذين احتذى بهم الفرنسيون قد تبنوا بداية من 1917 مبدأ الانخراط الفردي عوضا عن مبدأ الانخراط الجماعي المعمول به سابقا. فقسموا تراب الولايات المتحدة الامريكية الى جملة من المناطق الترابية، بحيث لا يبقى من خيار أمام أي صهيوني إلا الانتماء الى الفرع الصهيوني الموجود بمنطقته الترابية. أما

اذا استقر نهائيا في منطقة ترابية أخرى، فانه يصبح آليّا تابعا للفرع الموجود بها. وقد انحازت اليوشبات وبحوري صيون لمارك بليس، وذهب الأمر بهذه الأخيرة إلى حد اتخاذه رئيسا شرفيا لها[27]. أما الاغودات وترهام صيون، فقد بقيتا مواليتين للفدرالية الأم. وقد أرسل ألفراد فالنزي برقية بتاريخ 13 - 3 1918 طلب فيها من الفدرالية الصهيونيّة الفرنسيّة تجميد علاقاتها مع اليوشبات[28]. أما عن موقف أوهافي صيون، فان الوثائق التي توفرت لدينا لم تفصح عنه. لقد أثر تأزم العلاقات بين المنظمات الصهيونيّة في تونس بشدة على تقدم العمل الصهيوني. وهذا ما حدا بالفدرالية الصهيونية الفرنسية الى التعبير عن اندهاشها سنة 1919 إزاء الحجم العددي الضئيل لمؤيدي الحركة الصهيونيّة التونسيّة رغم عراقة تاريخها بالبلاد[29]، كما أنّ حاييم ويزمان لم يتردد في المجاهرة باستيائه إلى الاغودات في رسالة وجهها لها بتاريخ 20 - 5 - 1920 إزاء تعمق الخلافات في صفوف الصهاينة وضعف الدعم المالي الذي يقدمونه للحركة الصهيونيّة العالميّة[30]. ونشير هنا الى أنّ مؤسسة الصندوق القومي اليهودي قد أرسلت في ماي 1923 مبعوثا عنها هو ابراهيم المالح، وذلك لاقناع صهاينة تونس بضرورة تصعيد مساندتهم المالية للحركة الصهيونيّة العالميّة. ولعله يكفي لتأكيد حقيقة حاجة الحركة الصهيونيّة العالميّة آنذاك للمال أن نعرف أنّ المسألة المالية استأثرت بالحيز الأكبر من مداولات المؤتمرين الصهيونيين العالميين الثاني عشر (1921) والثالث عشر (1923).

لقد رفعت الاغودات شعار ضرورة بعث فدرالية صهيونيّة تونسيّة، وذلك للخروج بالمنظمات الصهيونيّة من واقع التشتت التنظيمي إلى واقع التنسيق، لكنها اصطدمت بمعارضة مسعورة من جانب اليوشبات التي كانت ترى أنّ شعار الفدرالية هو كلمة حق أريد بها الباطل، لأن الاغودات لا تسعى في الحقيقة من وراء ذلك إلا لبسط هيمنتها عليها[31]. ورغم صدور مرسوم 22 - 10 - 1920 الذي يسمح بتكوين فدرالية، فان

اليوشبات لم تلن لها قناة، وظلت مناوئة لشعار الفدرالية. عندئذ وجدت الاغودات نفسها مرغمة، بعد أنّ استنفدت كل محاولات الحوار مع اليوشبات على تشكيل الفدرالية المرتقبة. وقد اتخذت هذه الفدرالية ألفراد فالنزي رئيسا لها، وأسست جريدة تحت اسم L'AVENIR SIONISTE (المستقبل الصهيوني)، غير أنّ مقاطعة اليوشبات لها - وهي ثاني منظمة صهيونية في تونس - ظلت تكبح قدرتها على التحرك، فكثر الطعن فيها[32]، وأصبح البعض ينعتها بـ "الفدرالية الشبح"[33]، وتهاطلت عليها الادانات من كل حدب وصوب، إلى حد أن مؤسسة الصندوق القومي اليهودي سحبت منها ثقتها في جوان 1922، وأخطرت صهاينة تونس بأن يوافوها في المستقبل بمساهماتهم المالية مباشرة وبدون المرور بالفدرالية[34].

2) الاتجاهات داخل الحركة الصهيونية :

أما بالنسبة للاتجاهات المتواجدة داخل الحركة الصهيونيّة التونسيّة، فقد ظلّ الاتجاه الصهيوني العام هو السائد حتى 1927. فقد مثل صهاينة تونس في "المؤتمر الصهيوني المصغر" الذي انعقد بلندن في جويلية 1920 صهيوني عام من الاغودات هو جوزيف برامي، كما مثلهم كذلك في المؤتمر الصهيوني العالمي الثاني عشر الذي انعقد بكارلسباد في سبتمبر 1921 صهيونيان عامان هما ألفراد فالنزي والمرأة مارسال فينسبورغ التي ستصبح زوجته فيما بعد. وترجع هيمنة الصهاينة العامين على الساحة الصهيونية التونسية حتى 1927 إلى ثلاثة أسباب :

- الاشعاع الكبير الذي يتمتع به ألفراد فالنزي، عميد الصهاينة في تونس.
- ضعف الاتجاهات الصهيونية الأخرى أو عدم اكتمال تبلورها.
- الانجازات البارزة التي حققتها الحركة الصهيونيّة العامة على الصعيد العالمي، وهي وعد بلفور وتثبيت هذا الوعد بوثيقة الانتداب البريطاني على فلسطين.

غير أن هذه الحركة بدأت تخسر العديد من مواقعها لصالح "اليمين" و "اليسار" نتيجة

عجزها عن مواجهة الاشكال الانتفاضية المتصاعدة التي بدأ يكتسيها النضال الوطني الفلسطيني من جهة، والانعكاسات السلبية للأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى لسنة 1929 على الحركة الصهيونية العالميّة من جهة أخرى. أما في داخل تونس، فان أكبر ضربة تعرضت لها، هي انسلاخ ألفراد فالنزى عنها وانحيازه للحركة التنقيحية (REVISIONNISTE) سنة 1925[35]، وهو تاريخ تأسيس حزب زوهار (ZOHAR) التنقيحي على يد الروسي فلاديمير جابوتنسكي (VLADIMIR JABOTINSKY). وإنّ أبلغ دلالة على الانحسار الذي شهدته هذه الحركة في تونس، هو أنها لم تقدم مرشحا عنها في انتخابات تمثيل تونس في المؤتمر الصهيوني العالمي الخامس عشر. وقد فاز في هذه الانتخابات التي دارت يوم 10 - 8 - 1927 روبار برانشفيق (ROBERT BRUNSCHWIG) وهو تنقيحي من الاغودات صيون. غير أنّ هذا الأخير لم يتمكن من اللحاق ببازل، فأوكل مهمة تعويضه الى فلاديمير تيومكان (VLADIMIR TIOMKIN)، وهو صهيوني روسي، وأحد أبرز قادة حزب زوهار. وقد كتب فلاديمير جابوتنسكي رسالة مطولة الى التنقيحيين في تونس ملؤُها التمجيد لفلاديمير تيومكان والشكر لهم على الثقة التي وضعوها في زميله في الحزب. لقد أعطى اعتناق ألفراد فالنزى للاتجاه التنقيحي دفعا كبيرا للحركة التنقيحية في تونس، وهذا يرجع للوزن الكبير الذي يتمتع به مؤسس أول منظمة صهيونية بتونس. وقد غادر ألفراد فالنزى تونس نهائيا في أواخر 1926 ليستقر بباريس. وقد خلفه على رأس الفدرالية فيكتور كتان (VICTOR CATTAN) وهو عضو في اليوشبات. ونشير هنا إلى أنّ هذه المنظمة تراجعت في موقفها الرافض للفدرالية. وقد اختار صهاينة تونس ألفراد فالنزى ليمثلهم في المؤتمر الصهيوني العالمي السادس عشر المنعقد في أوت 1929 بزوريخ، وكان آنذاك عضوا في المجلس العالمي الأعلى لحزب زوهار. وقد مات فالنزى على أيدي الإباديّين النازيين، وهو رهن الاعتقال في محتشد "الموت البطئ" المعروف باسم بيكانوالد (BUCCENWALD).

إنّ التنقيحيين في تونس، لم ينشئوا، بالرغم من النجاح الجماهيري السريع الذي حققوه، تنظيما خاصا بهم، بل بقوا منضوين تحت لواء الأطر السّابقة (الاغودات، اليوشبات، ترهام صيون ...). وهنا لا بدّ من وقفة للتعريف بالحركة التنقيحية العالمية. إنّ هذه الحركة "اليمينية" المتطرفة تعبر عن مصالح بعض فئات البرجوازية اليهودية الكبرى في العالم، وأهميتها تنبع من كونها تمثل الصهيونيّة في أجلى مظاهرها. فمنبت الخلاف بينها وبين بقية الاتجاهات الصهيونيّة الأخرى يتمثل في رفضها القيام بالمساومات التكتيكية. فقد كان فلاديمير جابوتنسكي يرى في التطرف "طهرانية" سياسية لا تسقط في رذيلة التراجع، بل دائما في خط واحد عمودي لا يلين ولا يهين. فهو يعارض سياسة المراحل والحلول المنقوصة التي انتهجها حاييم ويزمان، ولا يتورع عن التنديد أحيانا بانقلترا صاحبة الفضل الكبير جدا على الحركة الصهيونية، لا لشئ إلا لأنّ هذه الدولة الامبريالية تجد نفسها أحيانا مرغمة على كبح جماح الصهاينة بعض الشئ. كما إنّ جابوتنسكي، رغم الظروف الدولية غير المؤاتية وصغر مساحة فلسطين، وضعف الامكانيات المادية آنذاك للحركة الصهيونيّة، كان لا يستنكف من المطالبة بتهجير الملايين من اليهود الى فلسطين بهدف تهويدها بسرعة وتحويل العرب الفلسطنيين فيها الى أقلية. ورغم ميزان القوى المختل اختلالا ساحقا لغير مصلحة الصهاينة، فقد كان جابوتنسكي يطالب بقية الصهاينة بالكشف عن حقيقة نواياهم، والاعلان على رؤوس الملا أن مصطلح "الوطن القومي" الذي ينص عليه وعد بلفور معناه إقامة دولة يهودية فوق كل التراب الفلسطيني، بما في ذلك الضفة الغربية لنهر الأردن. وقد نادى جابوتنسكي أيضا بعسكرة (MILITARISATION) الشباب اليهودي في مختلف مناطق الشتات وفي المستوطنات الصهيونيّة في فلسطين، كما أنه عارض بشدة فكرة حاييم ويزمان الداعية لفتح الوكالة اليهودية (L'AGENCE JUIVE) لليهود غير الصهاينة.

إنّه إذا كان من الصواب القول بأنّ الحركة التنقيحية في تونس قد عبرت عن نفسها رسميا سنة 1927، فانه من الخطأ اعتبار ظهورها ناتجا فقط عن العامل الخارجي المتمثل في تأسيس حزب زوهار. لقد كانت هناك تربة خصبة سنة 1925 لاقتبال البذرة التنقيحية. فقد عادت الحركة الصحفية اليهودية لسالف نشاطها الكثيف منذ أن توقفت الحرب ورفعت حالة الحصار عن البلاد في مارس 1921، وخاصة منذ أن صدر في بداية 1920 قانون يخلص الصحافة من بعض عقالها. وقد تكاثرت الجرائد إلى درجة أنّ القراء اليهود والصهاينة ضاقوا ذرعا بغزارتها[36]. وليس هناك مجال لاستعراض كل هذه الجرائد، بل سنقتصر على تبيان المضامين التنقيحية الارهاصية لجريدتي : LA VOiX D'ISRAEL (صوت اسرائيل) و LE REVEIL JUIF (اليقظة اليهودية). إنّ جاك بيلي الذي ورد ذكره يعتبر أول من ساهم بواسطة جريدته الاسبوعية LA VOIX D'ISRAEL في تمهيد المناخ الذي ستنمو في رحمه الحركة التنقيحية. وقد ظهر أول عدد من صحيفته يوم 28 - 3 1920. وتنفرد هذه الجريدة عن سابقاتها بحدة لهجتها السجالية. فقد كانت تندد بالمارقين عن الدين اليهودي وخاصة باللائكيين[37]. كما أنها كانت تصب جام غضبها من حين لآخر على جريدة LA JUSTICE (العدالة) لسان حال كبار البرجوازيين اليهود لطائفة "التوانسة" التي كانت ترى أن الحل الأمثل "للمسألة اليهودية" في تونس ليس الصهيونيّة، بل الذوبان في صلب الحضارة الفرنسية. ورغم دفاع LA VOIX D'ISRAEL المحموم عن نقاوة الذاتية اليهودية المرتكزة على الدين أساسا، ورفضها للقيم الفرنسية، فانها كانت مع ذلك تحث اليهود على التجنس بالجنسية الفرنسية. وحين تأسس حزب زوهار، وجدت فيه ضالتها المنشودة، فهللت لمقدمه. وقد ركزت أكثر من كل الجرائد الأخرى على ضرورة الهجرة إلى فلسطين. وقد أعطى مديرها المثل، فهاجر إلى فلسطين في أواخر العشرينات. وفي هذا المضمار نشير إلى أنّ عدد المهاجرين من صهاينة تونس إلى

فلسطين لم يتجاوز إلى حد 1931 الستين نفرا[38]. وقد اتخذت المنظمة الصهيونية العالمية سنة 1927 قراراً يقضي بفتح باب الهجرة "الشرعية" أمام 10 صهاينة من تونس فقط كحد سنوي أقصى[39]، ويرجع ذلك إلى الأسباب التالية :

أ) التناقض العدائي القائم بين اليهود الإشكناز (يهود شرق أوروبا) الماسكين بدواليب الحركة الصهيونية العالمية منذ نشأتها، وبين اليهود السفاراد (يهود اسبانيا وحوض البحر الأبيض المتوسط) الذين لم يساهموا في الحركة الصهيونية الا مؤخرا، ومن مواقع ثانوية. وتجدر الإشارة هنا أن من بين أسباب موالاة السفاراد (ومن بينهم أغلبية صهاينة تونس) للحركة التنقيحية العالمية هو عدم إهتمام المنظمة الصهيونية العالمية بهم. ونستطرد هنا لنشير الى أن جابوتنكسي "الإشكنازي" الذي سيهبه صهاينة تونس تأييدهم كان لا يتورع عن المجاهرة في الأوساط القريبة منه بإحتقاره لهم، ولعل ذلك يمثل أبلغ دلالة على عنصريّة* الحركية الصهيونية. فقد كتب ما يلي[40] : " ...لقد تعرفت في أورشليم على شخص طريف تقدمت به السن، واسع الإطلاع، مهذّب. وبينما كنا نتنزه في احد أحد أحياء أورشليم الجديدة، رأينا رجلا في الثلاثين من عمره مستلقيا على الرصيف، يجرع العرق مباشرة من الزجاجة.

- تأمله، لقد أتى من الغرب، من تونس[41]. كان يشرب هناك العرق، مشروب العرب المفضل، وهاهو يشربه هنا. إنه يعيش هنا منذ فترة وجيزة، ولم يتمكن بعد من أن يتخلص من العوائد المكتسبة عبر القرون، والتي تتناقلها الأجيال. أنا أقرأ "سفيات" و "بوليتيكا"، وهو يشرب العرق في الشوارع. نحن الاثنين يهود، ولكن ما هو الشيء الذي يجمع بيننا؟ لا شيء. وما الشيء الذي يبعد بيننا؟ كل شيء. إننا لا نتقن حتى لغة واحدة لكي نتفاهم".

ب) إعطاء المنظمة الصهيونية العالمية لأولوية الهجرة إلى فلسطين لليهود

---

* منظمة الأمم المتحدة نفسها اعتبرت الصهيونية حركة عنصريّة (قرارها الصادر في نوفمبر 1975)

المهددين أكثر من غيرهم بالاضطهاد، وهم يهود أوروبا الوسطى والشرقية.

ج) مرور المستوطنات الصهيونية في فلسطين بأزمة اقتصادية حادة في مغيب العشرينات.

د) ضمور الحركة الصهيونية في تونس، وعدم تحولها إلى ظاهرة جماهيرية بارزة في صفوف اليهود. وقد كتب جاك بيلي في مطلع 1928 رسائل إلى الدوائر الصهيونية العليا (المنظمة الصهيونية العالمية، مؤسسة الصندوق التأسيسي اليهودي (KEREN HAYASSOD LEISRAIL)[42] للاحتجاج على مواقفها التقصيرية إزاء يهود تونس[43].

إنّ استيلاء التنقيحيين على الحركة الصهيونيّة في تونس قد شكل احراجا شديدا للصهاينة العامين الذين كانوا ماسكين آنذاك بزمام المنظمة الصهيونية العالميّة، لأنّ سقوط الحركة في أيدي متطرفين قد يجر يهود تونس إلى مجابهة هم في غنى عنها مع المسلمين الذين يشكلون الأكثرية السكانية في البلاد.

أما جريدة LE REVEIL JUIF (اليقظة اليهودية) الاسبوعية التي تعتبر أشهر جريدة صهيونيّة في تونس حتى تاريخ احتجابها النهائي سنة 1933، فقد ظهر أول عدد منها يوم 12 - 9 - 1924 في صفاقس. وقد أسسها الصحفي والتأجر فيليكس علوش الذي اشتغل قبل ذلك محررا في جريدة LA DEPECHE SFAXIENNE (رسالة صفاقس) ومراسلا لجريدة LA VOIX D'ISRAEL التي تقدم ذكرها. واتسمت لهجة هذه الجريدة بالشوفينية والعنصرية، كما تدل ذلك النتف التالية :

" ... إنّ اليهودية ليست فقط دينا بل هي على الأخص عرق. ويعد العرق اليهودي من أصفى الاعراق (في العالم)، إنّ لم يكن أصفاها على الاطلاق"[44].

" ... إنّ اللاسامية في الواقع معششة في كل مكان، وكراهية اليهود كامنة في اللاّوعي البشري، وهي عادة مألوفة وظاهرة تنتقل بالوراثة"[45].

وقد دأبت هذه الجريدة على الترديد أنّ الصهيونيّة هي ايديولوجية البروليتاريا، وذلك لحجب منطلقاتها العنصرية بوشاح من التقدمية. أما مواقفها من "القومية اليهودية" فهي متناقضة، فأحيانا تعتبر "القومية اليهودية" شعارا للانجاز فتقول "... يا يهود كل البلدان، تكاتفوا من أجل تأسيس قومية يهودية"[46]، وأحيانا أخرى تتعكز على التعريف المثالي الذي قدمه المفكر الفرنسي أرنست رينان (ERNEST RENAN) للقومية، لتعتبرها حقيقة كائنة[47]. أما العرب الفلسطينيون، فان هذه الجريدة لا تعترف لهم بأي بحق على فلسطين، وتسهب إلى درجة الاسفاف في وصفهم بأبشع النعوت مثل "قطاع الطرق" و "النهابون" و "المتهوسون". وقد ناصبت هذه الجريدة العداء لجريدة LA JUSTICE وتسمى مؤيديها في تهكم لاذع LES JUSTICIARDS و LES ALLIANCISTES (نسبة إلى الرابطة اليهودية العالمية الموالية لفرنسا (L'ALLIANCE ISRAELITE UNIVERSELLE) . ورغم معارضتها للاتجاه المنادى بذوبان اليهود في صلب الحضارة الفرنسية، فانها كانت تطالب مع ذلك فرنسا بمنح اليهود الجنسية الفرنسية، أو على الأقل بعض الامتيازات التي يتمتع بها مواطنوها كحق التقاضي أمام المحاكم الفرنسية. وتقول في هذا المضمار[48] :

" ... إنه من الممكن، بل من الواجب علينا أن نكون مواطنين فرنسيين صالحين، وفي آن واحد يهودا صالحين مناضلين، أي صهاينة". وقد طالبت كذلك بتطعيم المحكمة الحاخامية ببعض الاصلاحات حتى تتأقلم مع روح العصر[49]. وقد انحازت هذه الجريدة لحزب (زوهار) حال ظهوره، ونشرت على امتداد أشهر جوان وجويلية وأوت 1927 تحليلا مطولا تحت عنوان : القضايا الراهنة للصهيونيّة، أرسله لها خصيصا فلاديمير جابو تنسكي. وإزاء الرواج الذي لاقته هذه الجريدة في تونس وفي بقية بلدان المغرب العربي، طالب مديرها من المنظمة الصهيونيّة العالميّة إعانته ماديا حتى ينقل مقرها إلى تونس العاصمة، لكن أعلى سلطة في الحركة الصهيونية العالمية

لم تستجب له[50] ، فأثار ذلك في نفسه شعورا بالمرارة والسلبية. وقد كتب بتاريخ 9 - 1- 1928 رسالة إلى المنظمة يُعَزِّزُهَا فيها على اهمالها ليهود تونس وعلى اعتبارها لهم مجرد دجاجة تبيض ذهبا، واقترح عليها ايفاد شخصية صهيونيّة بارزة إلى تونس مثل حاييم ويزمان أو ناحوم سوكولوف حتى تعبر ليهود تونس عن حسن نواياها تجاههم[51]. ولعل من الأمور الجديرة بالملاحظة هو أنّ الأدبيات الدعائية التي كانت ترسلها المنظمة الصهيونية العالمية إلى تونس لا تعود بأية فائدة على صهاينة تونس لأنها كانت مكتوبة إما بالعبرية التي لا "يتقنها" إلاّ النزر اليسير من الصهاينة أو بالانقليزية التي يعد العارفون بها في تونس وفق تعبير تراثي "أندر من الكبريت الأحمر".

أما الاتجاه الصهيوني المزراحي، فعلاوة على اليوشبات الموالية له، فقد عبر عن نفسه بداية من 19 فيفري 1926 بجريدة أسبوعية اسمها L'ŒUVRE ISRAELITE (المشروع اليهودي). ويسمى القائمون على هذه الجريدة أنفسهم "الصهاينة الحقيقيين"[52]، لأنهم آلوا على أنفسهم الذود عن حمى الدين اليهودي والتصدي للاتكيين وللمتشيعين للتيار الداعي الى ذوبان اليهود في بوتقة الحضارة الفرنسية. ويمكن موقعة هذه الجريدة في "يمين" التيار المزراحي، لأنّ موقفها من الدين مغرق في الصنمية والتقديس. إنّ الاتجاه المزراحي لم يكتسب في مغيب العشرينات من الجماهيرية ما يبيح له التقدم بقائمات مستقلة في انتخابات تمثيل تونس في المؤتمرات الصهيونية العالمية.

أما التيار الصهيوني "الاشتراكي"، فيسمى أنصاره في تونس بالعماليين (LES TRAVAILLISTES). ويعتبر فيكتور ناطاف (VICTOR NATAF) أول من أسس جريدة في هذا الاتجاه وهي LA REVUE ISRAELITE (المجلة الاسرائيلية). وتسمى هذه الجريدة نصف الشهرية نفسها "جريدة العمل الاجتماعي والدفاع عن البروليتاريا اليهودية". وقد صدر أول عدد منها يوم 20 - 10 - 1924، وتعتبر ثاني جريدة يهودية

في البلاد ترسم لنفسها مهمة الدفاع عن البروليتاريا اليهودية بعد الجريدة العبرية - عربية HAOR HAGADOL (الضوء الوهاج) التي أسسها سنة 1912 جوزيف سبيرو (JOSEPH SBERRO). وقد حدد فيكتور ناطاف موقفه من الصهيونية كما يلي[53] : <<

... إننا ننادي بتحرير اليهود الذين مازالوا يرزحون تحت نير التعصب المخزي السائد في العديد من البلدان، لكننا نرفض التعامل مع أية حركة ترمي إلى اخضاع اليهود لسلطة الرأسمالية الغاشمة. وقصارى القول أننا من مؤيدي الصهيونيّة ذات المضمون الانساني، لكننا نعادي كل نظرية قومية أو رجعية". إنّ هذه الجريدة لم تفصح عن مضمون الاشتراكية التي تدعو إليها. وقد ندّدت هذه الجريدة بشدة بالتنقحيين لأنهم "قوميون شوفينيون". وعلى غرار معظم التيارات الصهيونيّة الأخرى، فهي تعارض تخلي اليهود عن ذاتيتهم لصالح القيم الحضارية الفرنسية، لكنها ترفض في آن واحد النظرة السلفية المتحجرة للدين. وقد رشح العماليون أرنولدو أتياس (ARNOLDO ATTIAS) لانتخابات تمثيل تونس في المؤتمر الصهيوني العالمي الخامس عشر، لكنه انهزم أمام مرشح التنقيحيين.

إنّ الاتجاه الذي تمثله هذه الجريدة يعتبر امتدادا للتيارات التي ظهرت في الأوساط العمالية اليهودية في روسيا القيصرية، وحاولت إلغاء التناقض العدائي بين الماركسية والصهيونية. وقد برز في صفوف منظري هذه التيارات الروسيان نخمان سيركين وخاصة بار بوروخوف. وقد اضطلع "اليسار" الصهيوني بدور كبير في بناء القاعدة المادية "للدولة الصهيونيّة" قبل 1947.

3) اليهود والتيارات السياسية الأخرى :

إذا كان انكشاف السياسة اليهوديّة لفرنسا بطريقة لم يسبق لها مثيل في أوت 1917 قد جرف للحركة الصهيونية جموعا عديدة من اليهود، فانه قد دفع أيضا بجموع أخرى لا تقلها كثيرا من حيث العدد نحو الحركات السياسية الأخرى. وقد اضطلع

البرجوازيون اليهود الصغار منهم والمتوسطون بدور المزود الرئيسي لهذه الحركات. فقد انخرط بعض اليهود في الحركة الماسونية السرية[54]. وانخرط البعض الآخر في فرع تونس للرابطة العالمية المضادة للأساميّة[55]. كما أن الحركة الاشتراكية الديمقراطية المتمثلة في الفدرالية الاشتراكية، استطاعت أن تستقطب البعض منهم، ويكفي لتأكيد ذلك أن نعرف أنّ ألمع عناصر الحركة من أصل يهودي مثل إيلي كوهين حضرية الذي ورد ذكره، وألبار كتان (ALBERT CATTAN) وسرج معاطي (SERGE MOATTI)[56].

أما أكثرية اليهود الذين جرتهم هبة أوت اللاسامية إلى القطيعة مع فرنسا، فقد ارتأوا أنّ الشيوعية هي الحل الأمثل للمسألة اليهوديّة. ومما تجدر الإشارة إليه هو أن أغلب الصهاينة في تونس قد ضاقوا ذرعا بانتصار ثورة أكتوبر في روسيا، لأنّ البلاشفة بامكانهم أن يحلوا المسألة اليهودية في روسيا حلا صحيحا، ويسحبوا بالتالي البساط من تحت أقدام الحركة الصهيونية العالمية التي تستمد شرعيتها من مشكلة الاضطهاد المسلط على الملايين من اليهود في روسيا القيصرية وبقية بلدان أوروبا الشرقية والوسطى. فقد كتب الفرنسي جاك بيحار (JACQUES BEHAR) بعد أن تخلى عن الصهيونية، رسالة إلى جوزاف غانونة الذي تقدم ذكره يقول فيها[57] : <<...أنا لا أحارب الصهيونية لأنّ الصهيونيّة قد ماتت. ولست أنا المسؤول عن موتها، بل الثورة الروسيّة التي أجهزت عليها في روسيا، كما أجهزت حركة الانعتاق (L'EMANCIPATION) على الماشيحانية (نسبة إلى الماشيح) في فرنسا سنة 1791>>.

لقد شارك عدد من اليهود التونسيين والايطاليين في ارساء فرع للحزب الشيوعي الفرنسي بتونس في أواخر 1921.ولقد خلفت لنا الوثائق بعض أسمائهم مثل جوزاف أوزان (JOSEPH UZAN) وموريس أبيتبول (MAURICE ABITBOL) وساموييل غزلان (SAMUEL GOZLAN) وموسى زانا (MOISE ZANA) والاخوين كوستا (LES FRERES COSTA)[58]. وتذكر جريدة LA TUNISIE FRANCAISE (تونس

الفرنسية) في عددها الصادر يوم 2 - 9 - 1923 أنّ عدد اليهود الشيوعيين يبلغ المائة من مجموع 1400 شيوعي في البلاد. ورغم أنّ التضخيم المقصود في هذه الأرقام من جانب جريدة غلاة الاستعماريين في تونس مسألة لا يختلف حولها اثنان، فان ما يمكن استنتاجه، هو أن تواجد اليهود في الحركة الشيوعية التونسية كان له ثقل لا يستهان به. ولم يستسغ أغلب الصهاينة في تونس انضمام العديد من اليهود للحركة الشيوعية، وذلك لأنّ التنصل من الشيوعيّة والتنديد بها يمثل بالنسبة لهم أيسر سبيل لاكتساب عطف فرنسا، ومحو الفكرة القائلة بأنّ اليهود هم مفجرو كل الحركات الثورية في العالم. فهذه جريدة L'EGALITE (المساواة) لآخر أسبوع من أفريل 1919 تقول: << ... إنّ من الغريب أن تحسب هذه النظرية (البلشفية) على اليهود في حين أنّ برنامجها الذي وقع تطبيقه بكل فظاعة ينص في أحد بنوده الأولى على ضرورة القضاء بلا هوادة على كل ما يمت لليهود بصلة >>. أما جريدة LE REVEIL JUIF (اليقظة اليهودية) ليوم 14 - 4 - 1933 فتقول هي الأخرى : << ... إنّ ما نريد محوه هو هذه المهزلة التي تعتبر ماركس يهوديا >>.

أمّا البرجوازيون الكبار لطائفة "التوانسة"، فقد تبددت بالنسبة للكثير منهم العديد من الأوهام التي ركبتهم حول نوايا فرنسا تجاههم. وقد قادهم موقعهم الطبقي نحو حركة الشباب التونسي التي أصبحت تسمى بداية من نوفمبر 1920 الحزب الحر الدستوري التونسي. وكان هذا الحزب يمثل اجتماعيًا مصالح الملاكين العقاريّين اللّيبراليّين والبرجوازيّة الناشئة. أمّا مرجعيّاته الفكريّة والسياسيّة فهي مرجعيّات إسلاميّة. ولما كان كبار البرجوازيين اليهود يشعرون هم أيضا بأنّ فرنسا ما انفكت تعمل على خنق تطلعاتهم، فقد بات من الممكن حصول تقارب سياسي بينهم وبين حركة الشباب التونسي أو الحزب الحر الدستوري التونسي لاحقا. وقد تجسد ذلك في حركة الرابطة اليهودية المسلمة (L'ALLIANCE JUDEO - MUSULMANE)

التي ظهرت للوجود قبيل ميلاد الحزب الحر الدستوري التونسي[59]. ويعود الفضل في بعضها من الجانب (المسلم) إلى حسن القلاتي مؤسس الحزب الاصلاحي لاحقا والمحامي أحمد سقا الذي شارك عبد العزيز الثعالبي مؤسس الحزب الدستوري في صياغة الكتاب الشهير : تونس الشهيدة (LA TUNISIE MARTYRE) والمحامي محمد النعمان أحد أقطاب حركة الشباب التونسي والحركة الاشتراكية الديمقراطية لاحقا. ومحمد الجعايبي مدير جريدة الصواب، والطاهر بن عمار الوزير الأكبر لاحقا. أما من الجانب اليهودي، فقد تحمس لهذه الحركة إبراهيم بيزميث (ABRAHAM BISMUTH) وجاك سمامه (JACQUES SCEMAMA) وماردوخي سماجه (MARDOCHE SMADJA) الذي تقدم ذكره، وأوجين بسيس (EUGENE BESSIS) المصرفي الذي تسميه تقارير مصلحة الاستعلامات "الثري"[60]. أما الجريدة الناطقة باسم هذه الحركة، فتسمى LA TUNISIE NOUVELLE (تونس الجديدة) وقد ظهر أول عدد منها يوم 3 - 10 - 1920. وتفيد تقارير مصلحة الاستعلامات أنّ الحزب الدستوري قام على امتداد سنتي 1922 و 1923 بمحاولات في اتجاه دمج اليهود في صلبه على أساس أنهم رعايا تونسيّون لا فرق بينهم وبين أخوانهم المسلمين.

4) سياسة فرنسا تجاه اليهود والصهاينة :

أما تصاعد الصراع الطبقي وخاصة الوطني في البلاد غداة الحرب العالمية الأولى، ارتأت السلطات الاستعماريّة أن من صالحها تهدئة التوترات وامتصاص السخط الجماهيري ولو إلى حد معين، فتخلت لذلك عن مخاطبة مناوئيها السياسيين بلغة "القبضة الحديديّة" وانتهجت سياسة إغراء إزاء "صفوة" المسلمين واليهود، وذلك قصد تدجينهم وإخراجهم من حلبة الصراع الطبقي والوطني. فألغت "الندوة الاستشارية" وعوضتها في جوان 1922 بالمجلس الكبير، وهو شبه برلمان "منتخب" له صلاحيات استشاريّة فقط، وركزت أيضا مجالس محليّة ذات صلاحيّات محدودة جدا، وهي

مجالس "القياد" ومجالس الجهات[61]. كما أنها منحت في أوت 1921 للطائفة اليهوديّة القاطنة بتونس العاصمة الحق في انتخاب هيكل يمثلها، وهو مجلس الطائفة. ويتركب هذا المجلس الذي يتجدد كل أربع سنوات من لجنة مركزية تتألف من 12 عضوا (9 من طائفة "التوانسة" و 3 من طائفة "الغرانة") ومن مجلس موسع يتألف من 60 عضوا (46 من طائفة "التوانسة" و14 من طائفة "الغرانة"). ولا يتمتع بحق إنتخاب أعضائه أو الترشح لعضويته إلا اليهود الذين يدفعون الضريبة الإنتخابية. وبذلك يكون البرجوازيون اليهود الكبار مؤهلين أكثر من غيرهم للسيطرة على مجلس الطائفة. أما يهود سوسة و صفاقس، فسيبقون إلى حد 1947 بدون هيئات منتخبة. و قد فاز بأغلب مقاعد مجلس الطائفة الأول والثاني ممثلون عن تيار جريدة LA JUSTICE (العدالة). وقد ترأس أول مجلس، "الثري" أوجين بسيس الذي ورد ذكره. وقد طالبت بعض الجرائد الصهيونية بالغاء الضريبة الإنتخابية و إقرار الإقتراع العام[62].

أما أكثر التنازلات الفرنسية أهمية لفائدة كبار البرجوازيين اليهود من طائفة "التوانسة" خاصة، فيتعلق بمسألة التجنيس، إذا جاء قانون 20 - 12 - 1923 ليطلق عملية التجنيس من عقالها، ويفتح بابا واسعا نسبيا أمام كل المترشحين للجنسية الفرنسية، سواء أكانوا يهودا أم مسلمين أم مسيحيين. أن السبب الرئيسي الذي جر فرنسا الى سلوك سياسة "اليد المفتوحة" هذه هو تفاقم ما جرت العادة على تسمية آنذاك بـ "الخطر الإيطالي" المتمثل في تزايد الثقل العددي للإيطاليين في تونس على حساب الفرنسيين. فقانون 1923 يهدف إلى تطعيم الجالية الفرنسية بتونس بمدد بشري من داخل البلاد، لأن عدد الوافدين آنذاك من المهاجرين الفرنسيين على البلاد كان قليلا. وتأمل السلطات الاستعماريّة أن يأتيها هذا المدد من المسلمين والايطاليّين[63]، وذلك لسببين :

أولا :لأن"فرنسة" البلاد التونسية - وهو الهدف الإستراتيجي الذي رسمته لنفسها - لا يمر الا عبر "فرنسة" أغلبية سكانها من المسلمين.

وثانيا : لأن أحسن صفعة يمكن أن توجّه لإيطاليا المتربصة لتونس هو إحتواء الجالية الإيطالية القاطنة بتونس، وتحويلها من "طابور خامس" تحت الطلب الى فئة موالية قلبا وقالبا لفرنسا.

أما بالنسبة للطائفة اليهودية، فإن السلطات الاستعماريّة لا تمانع من إحتواء برجوازيتها، لكن بالقدر الذي لا يهدد مصالح مواطنيها في البلاد. ونلمس ذلك في هذه النبذة المقتطفة من رسالة وجهها بتاريخ 24 - 1 - 1925 المقيم العام الفرنسي بتونس ليسيان سان إلى وزير الخارجية الفرنسية[64] : ... أنّ اليهود يحتلون كل أحياء التجارة والصناعة والمهن الحرة. وما نخشاه هو أن يصبح بمقدورهم - في حالة ما اذا جنسناهم جماعيا - أن يبسطوا هيمنتهم على مهن المحاماة والطب وبقية المهن التي يتعاطاها مواطنونا". فلا نستغرب إذن أن تخضع السلطات الفرنسيّة مطالب التجنيس التي تهاطلت عليها من اليهود إلى عملية انتقاء متشددة بعض الشئ، بحيث لم تمنح الجنسية الفرنسيّة إلاّ لـ 4126 يهوديا في الفترة الواقعة بين 1934 و 1923[65]. إنّ هذه القفزة التي حققها الخط البياني لعدد المتجنسين تعتبر هامة بالقياس لما قبل 1923، لكنها أقل بكثير مما يسمح به قانون 1923، وهذا ما حدا بالبرجوازيين اليهود إلى القيام بحملة تستهدف تعبئة اليهود حول موقف المطالبة، إما بفتح باب التجنيس على مصراعيه أمام كل اليهود بلا استثناء، أو على الأقل بتطبيق قانون 1923 بحذافيره وعدم اخضاعه للتأويلات المجازية. وقد ساند الاشتراكيون الديمقراطيون في تونس اليهود في تسابقهم للحصول على الجنسية الفرنسيّة[66]. أما الشيوعيون، فقد طالبوا الفقراء اليهود بمقاطعة الجنسية الفرنسية وبالالتحام بالبروليتاريا "المسلمة" في نضالها ضد رأس المال[67]. << ... إنّ مهمتنا مرسومة بوضوح. يجب انتزاع الطبقة

الفقيرة اليهودية من دائرة نفوذ الأغنياء وتوعيتها بان مصلحتها تكمن في الانضمام إلى صفوف البروليتاريا المحلية، وليس في التجنيس >>. وقد حظى اليهود بمساندة حارة من سيمون رينو (SIMON REYNAUD) وايميل مورينو (EMILE MORINAUD)، وهما نائبان في البرلمان الفرنسي. وقد اعتمد المقيم العام الفرنسي ليسيان سان في رده على الأسانيد والقرائن التالية[68]:

- اعتبار بعض الفئات اليهودية للتجنيس ضربا من المروق على الدين.

- فتور اقبال العديد من الموسرين اليهود على الجنسية الفرنسيّة تحت ضغط أبنائهم، لأنّ التشريع التلمودي خلافا للتشريع الفرنسي يمنح الميراث للأبناء من دون البنات.

- معارضة الصهاينة للتجنيس.

إنّ تليين قانون التجنيس واستحداث مجلس الطائفة قد حققا مصالحة علية اليهود "التوانسة" وسراتهم مع فرنسا بعد شبه الطلاق الذي حصل بينهم على إثر "أوت 1917". وإزاء هذين المكسبين اللذين تحققا لهم، ارتد أغلبهم عن "الرابطة اليهودية المسلمة"، مما أدى إلى وأدها. كما أنّ هذين المكسبين قطعا الطريق على حالة التعاطف مع الصهيونية التي بدأت تنمو في صفوفهم، لأنّ خلق "وطن قومي يهودي" في فلسطين قد يصادر المكتسبات التي انتزعوها بشق الأنفس، ويحولهم إلى شبه أجانب في وطنهم الأصلي تونس. ورغم عزوفهم عن الصهيونيّة، فان الصهاينة بقوا متشبثين بتلابيبهم ولم يتخلوا عن المحاولات الرامية إلى استدراجهم للصهيونيّة. وقد نجحوا في تنصيب أوجين بسيس على رأس فرع تونس للصندوق التأسيسي اليهودي سنة 1922. واستطاعوا أيضا في جوان 1926 تنصيب برجوازيين كبيرين على رأس الصندوق القومي اليهودي : فرع تونس، هما رافائيل صيالوم (RAPHAEL SCIALOM) وجيل شملا (JULES CHEMLA). وقد قام ألفراد فالنزى، قبل

أن يرتحل إلى فرنسا، بدعاية حثيثة في أوساط البرجوازيين الكبار والمتوسطين لفائدة مؤسسة الصندوق التأسيسي اليهودي. ونشير هنا إلى أنّ لويس هالبارن (LOUIS HALPERN)، ممثل هذه المؤسسة في شمال افريقيا قد جاء إلى تونس في آخر مارس 1926 لحث البرجوازيين اليهود على شد أزر هذا الصندوق. وتعتبر المساهمة في هذا الصندوق بمثابة الهبة والاستثمار التجاري في آن واحد، إذ أنّ البرجوازيين الذين يدفعون عشر مداخيلهم لمدة خمس سنوات متتالية لهم الحق في استلام جزء من المرابيح التي تحققها المؤسسات المستحدثة بأموالهم في فلسطين. ورغم أنّ بعض اليهود البرجوازيين قد ساهموا بمبالغ مالية ذات وزن في هذا الصندوق، فانّ المنطلق الذي كان يقودهم هو اعتبار الصهيونية مجرد حركة خيرية بامكانها تهجير البائسين من اليهود إلى فلسطين، وتخليصهم بالتالي من هذا الفائض البشري الميال إلى تلبية كل صوت داع إلى الانتفاضة أو الثورة. غير أنّ حصيلة الدعاية الصهيونيّة في أوساط البرجوازيين الكبار كانت ضعيفة جدا، فهذه جريدة L'AURORE (الفجر) الصهيونيّة تعترف في سنة 1933 بأنّ البرجوازية الكبرى "لا تزال غير مبالية بحركتنا"[69]. كما أنّ هناك من البرجوازيين من كان يطالب السلطات الاستعماريّة باتخاذ موقف حازم تجاه "الانفصاليين" الصهاينة، فهذا المحامي الغرني رؤول درمون (RAOUL DARMON) يقول في أواخر العشرينات[70] : <<...يبدو أيضا أنّ الحكومة غير عابئة تماما بالدعاية الصهيونيّة وما يمكن أن تحدثه من انعكاسات (سلبية) على موقف اليهود من الدولة التونسية ومن دولة الحماية >>.

إنّ أول تقرير رسمي عثرنا عليه حول النشاط الصهيوني بتونس يحمل تاريخ 2 - 12 - 1917[71]. ولا يخالجنا شك في أن صدور وعد بلفور قُبيل تحرير هذا التقرير ببضعة أسابيع هو الذي شد أنظار السلطات الفرنسيّة أكثر من ذي قبل إلى نشاط الصهاينة. إنّ السلطات الفرنسيّة رغم تأييدها للصهيونيّة، لا تخفى امتعاضها من

اجماع كل صهاينة تونس على رفض الذوبان في صلب المجتمع الفرنسي، بالرغم من تهالكهم الانتهازي على الجنسية الفرنسية. يقول أحد تقارير مديرية الداخلية عن ثلاثة أساتذة استلجبهم الصهاينة في أواخر 1926 من المستوطنات الصهيونية بفلسطين لتدريس اللغة العبرية بتونس[72] : << ... إنّ الأساتذة الفلسطينيين يجهلون اللغة الفرنسية، وهم متشبعون بمبادئ تتنافى والتربية التي نريد تلقينها للشباب اليهودي>>. ويقول تقرير آخر من نفس المصدر بتاريخ 8 - 8 - 1931 [73] : << ... إنّ الاحبار الفرنسيين أو المتخرجين من فرنسا محاطون في تونس بكراهية لا يختلف حولها اثنان. والمسؤول عن بروز هذه الظاهرة وتعمقها هو الحزب الصهيوني، صاحب النفوذ الكبير، الذي لا يتورع عن الاعلان بأنه حزب قومي، وبأنه يتلقى أوامره من فلسطين. اننا لا نملك إلاّ أن نرفض هذه الظاهرة، لأنّ نظام الحماية لا يمكن له التعايش مع من يقف ضد حركة صهر شعوب هذه البلاد في العنصر الفرنسي، خاصة بعدما قطعته هذه الحركة من أشواط لا يستهان بها >>. وقد بدأت السلطات الفرنسيّة تتبرم من عداء الصهاينة لأنصار "الفرنسة" جماعة LA JUSTICE (العدالة)، خاصة وأنّ هذا العداء ما انفك يتصاعد منذ أن أصبح في أيدي هذه الجماعة جهاز يمكنها من تشديد قبضتها على اليهود، وهو مجلس الطائفة.

5) مواقف الحركات السياسية في تونس من الصهيونية حتى مغيب العشرينات :

من بين كل الحركات السياسية المتواجدة في تونس في العشرينات، يعتبر الشيوعيون الوحيدين الذين تصدوا للصهيونية من مواقع نظرية تحاول أن تكون معمقة. ففي السنوات 1922 و 1923، افردوا على صفحات جريدتهم L'AVENIR SOCIAL (المستقبل الاجتماعي) عدة مقالات حول الصهيونيّة[74] هذا تلخيصها :

إنّ السبب الكامن وراء تأسيس تيودور هرتزل للصهيونيّة هو التعاطف الذي يكنه لليهود المضطهدين، لكنه لما قضى نحبه، انبرى البعض فحرفوا أفكاره، وجعلوها تصب في اتجاه القومية اليهودية. ولم يأت هذا التحريف اعتباطا، بل كان نتيجة خطة دبرتها الدول الرأسمالية للاجهاز على "ثورية" اليهود عن طريق تجميعهم في معسكر حجز اسمه "الوطن القومي". إنّ اليهود لا يشكلون عرقا، والأرضية الوحيدة التي تجمعهم هي الدين، ولا تتوفر فيهم مقومات الشعب إلا في بعض البلدان المسلمة التي لا تزال خاضعة للنظام الاقطاعي كبلدان شمال افريقيا. ان جوهر النظام الاقطاعي يكمن في التناقض الأساسي القائم بين الريف الاقطاعي والمدينة المضطهدة (بفتح الهاء)، وان تبني المدينة للدين اليهودي ناتج عن رغبتها في التميز عن عدوها الريف المسيحي أو المسلم. لكن رغم علاقتهما العدائية، فانّ الريف والمدينة مرغمان على التعايش، لأنّ كل طرف لا يمكن له الاستغناء عن الآخر، لكن حين يندثر النظام الاقطاعي في الريف وتتحرر المدينة من الاضطهاد، يذوب اليهود في المجتمع، ويفقدون بذلك كل مميزات الشعب. وقد حدث هذا مثلا في فرنسا وانقلترا، وهو لا محالة آت في بلدان شمال افريقيا. إنّ الصهيونيّة ليست حركة قومية، بل هي أداة تستخدمها الامبريالية الانقليزية لاستغلال قوة عمل العرب الفلسطينيين، وهي نتاج الصراع الدائر رحاه في البلدان الصناعية بين الرأسمال البنكي الذي يحتكره اليهود والرأسمال الصناعي الموجود في أيدي غيرهم. فالصهيونية هي الايديولوجية المعبرة عن مصالح المصرفين اليهود الذين يريدون الاستحواذ على فلسطين، لانهم بحاجة إلى ملجا يقيهم من أخطار المنافسة الضارية المسلطة عليهم من قبل الصناعيين. ان المالكين الشرعيين لفلسطين هم العرب الفلسطينيون من المسلمين والمسيحيين الذين توارثوها أبا عن جد منذ قرون عديدة، وان أي بروليتاري يهودي يهاجر إلى فلسطين يعتبر "بروليتاريا أمبرياليا". لأنّ القبلة التي يجب عليه توجيه نظره إليها ليست

فلسطين بل الإتحاد السوفياتي.

إنّ ما يثير الإنتباه في هذه التحاليل هو :

- تفريغ صهيونية هرتزل من أيّ مضمون سياسي وتحميلها مضامين إنسانية وخيرية فقط.

- إختزال التفاوتات الطبقية لليهود إلى برجوازية كبرى وبروليتاريا، مما نتج عنه عدم التعرض، ولو بلغة التمتمة، إلى الدورالذي إضطلعت به الشرائح الوسطى اليهودية في الحركة الصهيونية العالمية.

- النظر إلى الحركة الصهيونية العالمية المرتبطة بالدول الإمبريالية بصفتها مجرد مستغل لقوة عمل العرب، وعدم التفطن إلى الأهداف الأخرى للحركة الصهيونية العالمية، مثل تشديد قبضة كبار البرجوازيين اليهود في العالم على بقيّة اليهود في مرحلة الإمبريالية التي بلغ فيها الصراع بين الدول وبين الشركات الرأسمالية أقصى درجات الضراوة، و كذلك السيطرة على منطقة ذات قيمة استراتيجية كبرى (الشرق الأوسط)، واستغلال الطاقات المادية للشرق الأوسط وخاصة الباطنية منها مثل النفط، وضرب الحركة التحررية العربيّة وكل ما يمكن أن تنجزه من تنمية أو وحدة ترابية.

- السقوط في النظرة "الاقتصادوية" اللاماركسية (L'ECONOMISME) اذ ليس من الصواب القول بأن اللاسامية ستزول بصفة آلية حين تزول قاعدتها المادية المتمثلة في النظام الاقطاعي. فأشرس موجبات اللاسامية عرفتها البشرية في مرحلة التراكم البدائي لرأس المال، نتيجة الصراع الضاري بين البرجوازيات الأوروبية الصاعدة والتجار اليهود، وفي مرحلة الامبريالية حيث عانى اليهود كثيرا من الهمجية النازية.

إلى جانب الشيوعيين، يعتبر الاشتراكيون الديمقراطيون في تونس من الرافضين للحركة الصهيونية، لكن رفضهم كان من واقع نظرية يصعب الاقتناع بها. لقد جرهم فهمهم الخاص للأممية (L'INTERNATIONALISME)[75] إلى إطلاق صفة الرجعية على

كل حركة قومية، فخلطوا بذلك بين الحركات القومية المضطهِدة (بكسر الهاء) والحركات القومية المضطهَدة (بفتح الهاء)، وحشروا الحركة الوطنية الديمقراطية التونسية في عداد الرجعيات. وهذا ما يفسر تعاملهم معها ضمن حدود ضيقة جداً. ورغم أنهم خلعوا بكل تسرع صفة "القومية" على الحركة الصهيونية، فانهم لم يعارضوها إلا باحتشام. يقول ايلي كوهين حضرية الذي تقدم ذكره سنة 1923[76] : << ... أما الصهيونيّة فقد كنت ممن عارضوها، أو على إلا قل ممن أبدوا احترازات تجاهها[77]. فرغم أني كنت أقر بأن الرجوع إلى اسرائيل يمثل ضرورة حياتية بالنسبة لبعض يهود العالم المهددين حتى في حياتهم، إلا أني كنت مع هذا أعتقد أنّ ذلك لا يمثل الا حلا ترقيعيا أو عملية جراحية لا مناص منها>>، إنّ الحلّ الأمثل في نظر الاشتراكيين الديمقراطيين هو أنّ ينصهر يهود تونس في بوتقة الحضارة الفرنسية، لأنها حضارة راقية، ولأنهم بعملهم ذلك سيعطون دفعا كبيرا لحركة التاريخ السائرة نحو الأممية. وانطلاقا من هذا الطرح الحضاري للقضية، يرى الاشتراكيون الديمقراطيون أن انتقال اليهود "المتحضرين" إلى فلسطين سيفيد كثيرا العرب المتأخرين. وقد انتقدهم الشيوعيون بشدة على موقفهم هذا[78].

أما بالنسبة للحزب الدستوري، فان الحركة الصهيونيّة لم تحتل إلاّ مكانة ثانوية جدا في سلم اهتماماته، وذلك لأنّ هذه الحركة لم تملك بعد من المواقع الجماهيرية ما يجعلها طرفا سياسيا لا يمكن تجاهله. غير أنّ الذي تجدر الإشارة إليه، هو أنّ العناصر القيادية لهذا الحزب كانت على علم بمجريات الأمور على الساحة الصهيونية العالمية والمحلية، لكنها كانت تنظر للصهيونيّة بمنظار ديني، فتخلط لذلك بين الصهيونية واليهودية. يقول أحمد توفيق المدني، أحد قادة هذا الحزب، بعد أن اكتشف الصهيونية قبيل الحرب، وهو لم يزل بعد تلميذا عن طريق تاجر صغير من صهاينة تونس اسمه شمعون بن ناطاق[79] : << ... فقصصت على أصدقائي القصة وعلى أستاذي الشاذلي

الموالي، فحدثنا يومئذ عن مؤتمر الصهيونيّة في بال وعن منهاج تيودور هرتزل اليهودي وعن مسعى اليهود[80] الخائب لدى السلطان عبد الحميد، وقال لنا يومئذ بالقسم النهائي من المدرسة القرآنية ما لم يفتح المسلمون[81] عيونهم، وما لم يقفوا جدارا منيعا حول الخلافة العثمانية، وما لم يتحدوا اتحادا متينا قويا لكي يدرؤوا عن أنفسهم الخطر، فانّ مصابا عظيما سيحل بفلسطين والمسلمين[82] عامة. ويعلم الله أني كنت من يوم حديثي مع شمعون بن ناطاف أنادي وأحذر وأنذر وأكرر على الرجال أقوال الشاذلي الموالي >>.

يتضح من كل ما سبق أن الحركة الصهيونيّة قد اكتسبت في أواخر العشرينات مواقع أكثر تقدما في سعيها نحو التغلغل في أوساط اليهود بالمقارنة مع الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى. كما أنها أصبحت تضم في صفوفها أشياعا لكل التيارات الصهيونيّة العالميّة الموجودة آنذاك، إلاّ أنها بقيت مع ذلك منحصرة في بعض الأوساط البرجوازية الصغيرة والمتوسطة، وثانويا في بعض الأوساط البروليتارية. وهناك مؤشرات عدة يمكن أن نقيس بها الضعف النسبي لجماهيرية هذه الحركة. فقد اشترك على سبيل المثال 3187 يهوديا فقط من بين 60.000 يهودي تقريبا في البلاد، في انتخابات تمثيل صهاينة تونس في "المؤتمر الصهيوني المصغر" لسنة 1920[83]. كما أنّ إحدى الجرائد الصهيونيّة قدرت عدد دافعي "الشاقل" سنة 1920 بـ 4000 نفر[84]. ومن الدلالات البالغة أيضا على هزال الحركة الصهيونيّة أنّ الصهاينة عجزوا عن إيفاد من ينوبهم من بينهم في المؤتمرين الصهيونيين العالميين لسنة 1923 و 1927. كما أنهم لم يتمكنوا من الحصول إلاّ على بعض المقاعد فقط في مجلسي الطائفة الأول والثاني. وقد فشلوا أيضا، رغم تعاونهم مع الفرع التونسي للاتحاد العالمي للشبيبة اليهودية، في توفير معاشات منتظمة للاساتذة المشار إليهم سابقا. وفي هذا المضمار، يقول رئيس لجنة تدريس العبرية في حفل مدرسي أقيم يوم 8-7-1933 : << ... إنّ

المجهود الذي بذله أساتذتنا الثلاثة، أعزاؤنا غاليلي (GALILI) ودفني (DAFNI) ومياني (MAIANI) قد أتى أكله خاصة في تونس وصفاقس. لكن للأسف الشديد، فان قلة ذات اليد جعلتنا نتركهم يعودون أدراجهم إلى اسرائيل>>[85].

أما الأسباب التي تكبح قدرة الحركة الصهيونيّة على التوسع أفقيا وعموديا فهي :

- سرعة نمو التيار الداعي لتمثل الحضارة الفرنسية في صفوف اليهود .
- احتداد التناقضات الداخلية للصهاينة.
- ضعف اللاسامية في تونس بالمقارنة مع بلدان أخرى.
- عدم إيلاء المنظمة الصهيونيّة العالمية أهمية ليهود تونس وصهاينتها.
- تراخي تحمس اليهود للصهيونيّة، بعد أن اتضح لهم أنّ بناء "الوطن القومي" ليس بالأمر الهين، كما خيل لهم ذلك أيام وعد بلفور، وقد انحدر على سبيل المثال عدد دافعي "الشاقل" إلى 549 فقط سنة 1927[86].

المصادر والمراجع والحواشي

1) Valensi (A.) : **Israël, La paix par le droit**, Nimes (France), novembre 1917.

(وقع ترويج هذا المقال في تونس)

2) و ع ح ت ، الحركة الوطنية ص 8 م العنصر اليهودي و - 32.

3) و ع ح ت، س E ص 550 م 16 و - غير مرقمة تحمل تاريخ 24-11-1919.

4) و ع ح ت ، الحركة الوطنية، 5 م 13 و - غير مرقمة.

5) المصدر المذكور سابقا ص 68 Hadria (E.C) : Du protectorat ...

6) ج La VOIX D'ISRAEL ليوم 26 - 7 - 1920.

7) ج La VOIX D'ISRAEL ليوم 27 - 5 - 1924.

8) المصدر المذكور سابقا ص 68 Hadria (E.C) : Du protectorat ...

9) و ع ح ت ، الحركة الوطنية ص 8 م العنصر اليهودي و - 14.

10) و ع ح ت ، س A ص 289 م 8 و - 214.

11) ناحوم سوكولوف (1895 - 1936) : صحفي وكاتب وأحد قادة الحركة الصهيونية العالمية.

12) و ع ح ت ، س A ص 289 م 8 و - 191.

13) WEIZMAN (CH.) : **Naissance d'iraël**, gallimard, 2ème édition, Paris, 1957, P. 283.

14) و ع ح ت ، س A ص 289 م 8 و - 104.

15) و ع ح ت ، س A ص 289 م 8 و - 231.

16) ج La VOIX D'ISRAEL ليوم 2 - 8 - 1920.

17) و ع ح ت ، الحركة الوطنية ص 5 م 13 و - 43.

18) ج LE REVEIL JUIF ليوم 11 - 10 - 1929.

19) المصدر المذكور سابقا VEHEL (J.) La presse ...

20) و ع ح ت ، س A ص 289 م 8 و - 172.

21) و ع ح ت ، ملفات المشبوه فيهم، 3494.

22) و ع ح ت ، س A ص 289 م 8 و - 170.

23) المصدر المذكور سابقا MAAREK (H.) : L'activité sioniste ...

24) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و - غير مرقمة تحمل تاريخ 1 - 10 - 1917.

25) و ع ح ت ، س A ص 289 م 8، الوثائق : 165 - 166 - 210 - 230 ووثيقتان غير مرقمتين.

26) يرجع تاريخ تأسيسها حسب فريد مان روتنبارق إلى سنة 1899 (و ع ح ت،س A ص 289 م 8 و - غير مرقمة تحمل تاريخ 1 - 10 - 1917) بينما يرجع تاريخ تأسيسها حسب

JUDAICA ENCYCLOPEDIA (الموسوعة اليهودية) عدد 16 ص 1114 إلى سنة 1901.

27) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و - 166.

28) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 برقية بتاريخ 13 - 3 - 1918. (غير مرقمة)

29) Bensimon - Donath (D.) : **Immigrants d'Afrique du Nord en Israël**, Anthropos, Paris, 1970, P. 71.

30) ج L'EGALITÉ ليوم 8 - 6 - 1920.

31) ج L'EGALITÉ ليوم 8 - 4 - 1921.

32) ج La VOIX D'ISRAEL ليوم 16 - 5 - 1922.

33) ج L'ŒUVRE ISRAELITE ليوم 23 - 4 - 1926.

34) ج La VOIX D'ISRAEL ليوم 16 - 5 - 1922.

35) ج La GAZETTE D'ISRAEL ليوم 14 - 6 - 1951.

36) ج La VOIX D'ISRAEL ليوم 10 - 3 - 1922.

37) ج La VOIX D'ISRAEL ليوم 23 - 12 - 1921.

38) المصدر المذكور سابقا ص 559 BENSIMON-DONATH (D.) : ...

39) المصدر ذاته ص 75.

40) إيفانوف (يوري) : احذروا الصهيونية، منشورات وكالة الأنباء نوفستي، موسكو 1969، ص 116.

41) خط التشديد من وضعي.

42) أنشئت سنة 1920 أبان مواجهة الحركة الصهيونية العالمية لمشكلة تمويل المشاريع الإستيطانية بفلسطين بعد صدور "وعد بلفور".

43) المصدر المذكور سابقا ص 75 BENSIMON-DONATH (D.) : ...

44) ج LE REVEIL JUIF ليوم 13 - 2 - 1925.

45) ج LE REVEIL JUIF ليوم 2 - 9 - 1927.

46) ج LE REVEIL JUIF ليوم 3 - 10 - 1924.

47) ج LE REVEIL JUIF ليوم 17 - 9 - 1926.

48) ج LE REVEIL JUIF ليوم 3 - 6 - 1927.

49) ج LE REVEIL JUIF ليوم 3 - 4 - 1925.

50) المصدر المذكور سابقا ص 72 BENSIMON-DONATH (D.) : ...

51) المصدر ذاته ص 74.

52) ج L'ŒUVRE ISRAELITE ليوم 19 - 2 - 1926.

53) ج LA REVUE ISRAELITE ليوم 20 - 10 - 1924.

54) ج LA VOIX DU TUNISIEN ليوم 15 - 5 - 1931.

55) المصدر ذاته.

56) المصدر المذكور سابقا HADRIA (E.C) : Du protectorat ...

57) و ع ح ت، الحركة الوطنية، ص 8 م العنصر اليهودي و - 42.

58) حول نشوء الحركة الشيوعية في تونس أنظر :

ENNAFAA (M.) : **La voix d'une indépendance complète au service du peuple**, rapport présenté au 5ème Congrès du parti communiste tunisien (1956).

B. TEMINE (L.) : **La fédération communiste de Tunisie (1921 - 1922) un effort précoce de tunisification**, mémoire de maîtrise d'Histoire, Tunis, 1976.

KRAIEM (M.) Aux origines du parti communiste tunisien, **Revue d'histoire Maghrébine**, Tunis, N° 2, 1974.

قز دغلي (حبيب) : تطور الحركة الشيوعيّة بتونس (1919 - 1943)، تونس، كلية الآداب بمنّوبة، 1992.

59) و ع ح ت، الحركة الوطنية، ص 2 م الرابطة اليهودية المسلمة و - 2.

60) و ع ح ت، ملفات المشبوه فيهم، م 1316.

61) MAHJOUBI (A.) : Les réformes de 1922 et le mouvement national tunisien, **Les cahiers du C E R E S** (Tunis), N°45, 1976.

62) مثل LA REVUE ISRAELITE ليوم 5 - 11 - 1924.

63) المصدر المذكور سابقا ص 79 - 80 HADRIA (E.C) : Du protectorat ...

64) KRAIEM (M.) : **Nationalisme et syndicalisme en Tunisie** (1918 - 1929), U.G.T.T., Tunis, 1976, p 261.

65) المصدر المذكور سابقا ص 175 CHOURAOUI (A.) : ...

66) المصدر المذكور سابقا ص 68 HADRIA (E.C) : Du protectorat ...

67) KLAUSER (J.) : Le judaïsme tunisien, **L'avenir social** du 26-4-1925

68) المصدر المذكور سابقا ص 260 KRAIEM (M.) : ...

69) ج L'AURORE ليوم 3 - 11 - 1933.

70) DARMON (R.) : **La situation des cultes en Tunisie**, 2ème édition, Paris, 1930, P. 150.

71) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و - غير مرقمة

72) و ع ح ت، س E ص 262 م 21 و - غير مرقمة تحمل تاريخ 7 - 7 - 1931.

73) و ع ح ت، س E ص 262 م 21 و - غير مرقمة.

74) - VERITAS (PSEUDONYME) : Le sionisme et l'internationalisme, le journal **l'avenir social** (A. S.) du 20-8-1922.

- VERITAS (PSEUDONYME) : Sionisme et Communisme, A.S. du 17-9-1922.

- LOUZON (R.) : Le judaïsme est-il une race ou une religion ? A.S. du 25-3-1923.

- LOUZON (R.) : Le judaïme, religion de la ville, A.S. du 6-4-1923.

-KLAUSER (J.) : Sionisme et communisme, A.S. 19-4-1925.

المصدر المذكور سابقا - KLAUSER (J.) : Le judaïsme ...

75) B. HAMMOUDA (R.) : **La fédération socialiste de Tunisie et les réalités tunisiennes** (1919-1924), mémoire de maîtrise d'Histoire, tunis, (date non indiquée).

NAURA (A.) : Les socialistes de Tunisie devant la crise de 1929 et ses conséquences, la revue : **le mouvement social**, N° 78, 1972.

KRAIEM (M.) : LA fédération socialiste de Tunisie et le mouvement national entre les deux guerres, **la revue d'histoire maghrébine** (TUNIS), N° 5, 1976.

TLILI (B.) : **Socialistes et jeunes tunisiens à la veille de la Grande Guerre** (1907-1913), Tunis, publications de l'université, 1974.

76) المصدر المذكور سابقا ص 67 و 68 HADRIA (E.C) : Du protectorat ...

77) خط التشديد من وضعي

78) المصدر المذكور سابقا KLAUSER (J.) : Sionisme et Communisme

79) أحمد توفيق المدني : المصدر المذكور سابقا ص 52 و 53.

80) خط التشديد من وضعي

81) خط التشديد من وضعي

82) خط التشديد من وضعي

83) ج LA VOIX D'ISRAEL ليوم 25 - 6 - 1920

84) ج LA VOIX D'ISRAEL ليوم 29 - 10 - 1920

85) ج L'AURORE ليوم 15 - 12 - 1933

86) المصدر المذكور سابقا ص 556 BENSIMON-DONATH (D.) : ...

الباب الثاني
مرحلة البحث عن مكانة

(1927 - 1948)

****

الفصل الأول

الخطـــــوات المتعـثــرة

(أوت 1927 - ماي 1936)

يتمثل الحدث البارز في الحياة الداخلية للحركة الصهيونية في تونس في هذه المرحلة في إعتلاء التنقيحيين لسدة القيادة، وإنّ ما يزيد هذا الحدث أهمية هو أنّ هؤلاء الصهاينة الضالعين في "اليمينية" سيحافظون على هذا الموقع القيادي حتى قيام دولة إسرائيل وهجرة أغلبية يهود تونس إليها.

1) الأزمة الإقتصادية الكبرى للعالم الرأسمالي في مغيب العشرينات ومطلع الثلاثينات وإنعكاساتها على يهود تونس :

إنّ الأزمة الإقتصادية الّتي إهتصرت العالم الرأسمالي في بداية الثلاثينات هي - كما هو معروف - أزمة إنتاج مفرط ناتجة عن الإحتداد المشط الّذي بلغه التناقض بين الطابع الجماعي للإنتاج والشكل الرأسمالي لملكية وسائل الإنتاج. ويعتبر الربا من الآفات المدمرة لهذه الأزمة. وقد ولغ المرابون، وأغلبيتهم من اليهود، في بؤس المحتاجين إلى درجة عدم التصديق. ويكفي لتأكيد ذلك أن نذكر أنّ الفائض الربوي قفز في حالات معينة إلى400٪ [1]، كما أنّ المحاكم الّتي نظرت في آلاف من القضايا المتعلقة بالمزارعين التونسيين الّذين عجزوا عن إيفاء ديونهم، صادرت عددا كبيرا من ممتلكاتهم [2]. وقد أصبح التناقض بين اليهود و المسلمين مستعرا إلى درجة أن أتفه مشاكسة بامكانها أن تتحول إلى "حرب أهلية" مصغرة بين الجانبين. وقد شهدت صفاقس إشتباكات دامية بين اليهود والمسلمين إستوجبت تدخل الجيش [3]، وجدت كذلك في أواخر أوت وأوائل سبتمبر 1932 في كل من أريانة [4] والمكنين وقصر هلال [5] إصطدامات عنيفة بين اليهود والمسلمين. وقد صعدت الإشتباكات الدامية الّتي حدثت في أواخر 1934 بين المسلمين الجزائريين واليهود في قسنطينة (الجزائر) [6] من نقمة السكان المسلمين في تونس ضد اليهود [7]، إلى درجة أنّ الوضع أصبح على قاب قوسين أو أدنى من الإنفجار. وقد إستغل صالح بن يوسف، أحد قادة الحزب الحر الدّستوري الجديد إحدى المظاهرات الشعبية، فدعا إلى التعامل

مع اليهود على أساس أنّهم أخوة، ولفت الأنظار إلى خطوة الإنحراف بالحركة الوطنية في متاهات اللا سامية ونسيان العدو الحقيقي، وهو فرنسا[8]. وقد التجأت السلطات الفرنسية إلى إتخاذ جملة من التدابير بقصد التخفيف من حدة التوترات الإجتماعية الّتي زادها الربا تأججا، فأوقفت المصادرات القضائية للممتلكات العقارية، وأخرت إلى حين دفوعات المزارعين المدانين لدى اليهود، وأسّست بنكا خاصّا للإقتراض، وكونت لجانا للتحكيم بين الدائنين والمدينين. إلاّ أنّ الربّا لم يتوقف مع ذلك، بل تواصل بأشكال أقلّ سفورا من ذي قبل. وأنّه من الخطا الإعتقاد أنّ السلطات الفرنسية كان بامكانها إجتثاث دابر الربا، بل كلّ ما كانت تريده، هو حصره ضمن حدود معينة. إنّ البنوك الفرنسية لايمكن لها أن تشارك إلاّ بنسبة ضئيلة في تقليص الربّا، وأنّ الإنحسار النسبيّ للربا منذ 1881 قد دفع بعدد من التّجّار اليهود إلى توظيف بعض رؤوس أموالهم في قطاع الصناعة. إلاّ أنّ الّذي يجدر التنبيه إليه، هو أنّ السمة الغالبة على العلاقة القائمة بين رأس المال الربوي والتجاري من جهة ورأس المال الصناعي من جهة ثانية هي التداخل وليس الإستقلال، إذ ليس هناك إلاّ أقلية فقط من الرأسماليين اليهود الّذين تخلوا نهائيا عن ممارسة الربا والتجارة وقصروا إهتمامهم على الصناعة فقط.

لقد أولى كارل ماركس أهمية كبرى لرأس المال التجاري والرّبوي، وهذه باختزال وتبسيط شديدين بعض نظرياته في هذا المضمار[9]:

- إنّ ظهور رأس المال التجاري والربوي قد سبق تاريخيا ظهور رأس المال الصناعي (أي رأس المال الموظف في الإنتاج بنوعيه الصناعي والفلاحي).

- كما أنّ رأس المال التجاري والربوي يشكل موضوعيا قاعدة ضرورية، لكنها غير كافية، لنشوء رأس المال الصناعي.

- وأخيرا، فكلما كان النسق التطوري لرأس المال التجاري والربوي سريعا، كان

النسق التطوري لرأس المال الصناعي بطيئا، والعكس صحيح أيضا. لقد استخلص كارل ماركس هذه النظريّات، بعد عملية إستقراء لتاريخ تطور نمط الإنتاج الرأسمالي في أوروبا. وأنّ الخطر يمكن في الإنسياق إلى تشذيب الواقع الخصوصي لبلد خاضع للإمبريالية مثل تونس حتى يأتي على مَقَاسِ هذه النظريات. إنّ علاقات الإنتاج البضاعية الكامنة في صلب المجتمع التونسي لم تتحول، على عكس أروبا، إلى علاقات إنتاج رأسمالية. ثم إنّ الإمبريالية الفرنسية هي الّتي جلبت الرأسمالية إلى تونس، وقد ضربت إلى حد ما الإقتصاد الإجتماعي التقليدي القائم أساسا على الاكتفاء الذاتي، ونسفت العديد من الصناعات الحرفية مثل صناعة الشاشية الشهيرة، وقطعت بعض الأشواط على طريق فصل المنتجين الزراعيين عن وسائل إنتاجهم. وقد أدّت هذه التغيرات في البني التحتية للتشكيلة الإجتماعية التونسية إلى ظهور أسواق لتصريف السلع وأسواق من الأيدي العاملة "الحرة". إلاّ أنّ الرأسمالية لم تتطور إلاّ ضمن الحدود الضيقة الّتي وضعتها لها الإمبريالية الفرنسية، ومن خطل الرأي أنّ نظن أنّ الإمبريالية الفرنسية كانت تهدف، من وراء غزوها لتونس، إلى تطوير القوى المنتجة بها.

لقد أفضت السيطرة الإمبريالية على تونس إلى ميلاد طبقة برجوازية محلية متكونة من يهود ومسلمين، وذات جناحين : جناح معارض إلى حدّ ما لفرنسا، وجناح موال لها. فالبرجوازية الموالية تقوم بدور الوسيط بين البرجوازية الإحتكارية الفرنسية والسوق المحلية التونسية، وهي تتكون أساسا من التجار، ثم أنّ علاقتها بالإمبريالية، هي علاقة وحدة وصراع مع رجحان الكفة لفائدة الوحدة. أمّا البرجوازية المعارضة، فهي تضم كلّ البرجوازيين الّذين تكبح الإمبريالية الفرنسية قدرتهم على النمو، ونذكر منهم على الأخصّ الصناعيين[10]. إلاّ أنّ الملاحظة الّتي يجب إبداءها هي أنّ خط التباين الّذي يفصل بين هؤلاء البرجوازيين المعارضين من جهة والبرجوازيين الموالين

والملاكين العقاريين المسلمين من جهة ثانية، ليس واضحا، إذ أنّ العديد منهم مرتبط بوشائج معقدة بالإمبريالية الفرنسية وحلفائها الطبقيين في تونس. إنّ الإمبريالية الفرنسية تحرم على هؤلاء البرجوازيين الصناعيين النفاذ إلى القطاعات الاقتصادية الوفيرة الربح مثل المناجم والتأمين والنقل البحري والجوّي والأشغال الكبرى، كما أنّها توصد أمامهم بنوكها، وتسعى إلى شلّ تحرّكاتهم بوسائل شتّى مثل الضرائب، وتسلط عليهم منافسة ضارية حتى في القطاع الصناعي الوحيد الذي يتواجدون فيه، وهو قطاع الصناعات الخفيفة. وبما أنّ الصراع هو الجانب الطاغي في علاقة هؤلاء البرجوازيين بفرنسا، فانهم يستغلون الفترات التي تحتدّ فيها تناقضات الامبريالية الفرسية، لكي ينموا من قواهم الذاتيّة. وهذه التناقضات هي كما هو معروف :

- تناقض البرجوازية الاحتكارية الفرنسيّة مع العمال داخل فرنسا ذاتها.

- تناقضها مع الامبرياليات الأخرى مثل ألمانيا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية...

- تناقضها مع الشعوب والأمم الخاضعة لهيمنتها مثل تونس.

- وأخيرا، تناقضها بداية من 1917 مع الإتحاد السفياتي بصفته بلدا إشتراكيا يمثل نقيضها وبديلها.

لقد تمكنت هذه البرجوازية المعارضة من الإفادة من الحرب العالمية الأولى، واستطاعت أن تنمي إلى حدّ ما قواها الإنتاجية. ويرجع ذلك إلى إشتغال البرجوازية الفرنسية بالحرب. ونشير هنا إلى أنّ البرجوازيين اليهود قد توجهوا إلى توظيف رؤوس أموالهم في الصناعة قبل الصناعيين المسلمين، ومرد ذلك الثروات النقدية الكبيرة نسبيا الّتي درتها عليهم التجارة، وكذلك خبراتهم الغنية في ميدان التبادل. وقد ركّز الصناعيون اليهود أيّام الحرب جملة من المصانع الصغيرة قصد تعويض البضائع الفرنسية الّتي إنقطع تصديرها إلى تونس. وقد إستأثر قطاع التغذية (الزيوت، التصبير

الغـذائي، الحلويات، المطاحن ...) بالنصـيب الأوفـر من رؤوس أموالهم[11]. ورغـم عودة تدفق البضائع الفرنسية على تونس بعد الحرب، إستطاعت الصناعات اليهودية في أغلبها أن تحصن نفسها من الإنهيار.

إنّ الإحصائية التالية لسنة 1931[12] تعطي صورة قريبة من الواقع عن الحجم العددي للبرجوازيين اليهود بما فيهم الموالي لفرنسا والمعارض لها :

القطاع الإقتصادي أو المهنة	فلاحـة	تجارة	صناعة	نقل
اليهود الحاملون للجنسية التونسية والبالغون من العمر أكثر من 18 سنة	108	6927	4074	315

إنّ هذه الإحصائية تدل، كما هو واضح، أنّ التجارة لم تعد في مطلع الثلاثينات، هي المورد الحياتي الوحيد لليهود، وهذه واحدة من التبدلات الّتي أحدثتها الإمبريالية الفرنسية على التشكيلة الإجتماعية في تونس.

إنّ الصناعيين اليهود الحاملين للجنسية التونسية مهيؤون موضوعيا، بحكم بعض التضـيـيقـات المسلطة عليهم من قبل الإمـبرياليـة الفرنسـية، لأن يكونوا برجوازيين وطنيين، أي ملتحمين بالشعب في نضاله ضدّ الامبريالية الفرنسيـة. إلاّ أنّ المحدّد الرئيسي للممارسات السياسية لأغلب هؤلاء الصناعيّين ليس العامل الإقتصادي بقدر ما هو العامل الايديولوجي - السـياسي، فهم يفضلون الوقـوف إلى جانب فرنسـا، رغم ضغطها عليهم، على الوقـوف في صف الشـعب التـونسي. إنّ هذا المـوقف ناتج عن تحفظات هؤلاء الصناعيين تجاه شعب لم يتخلّص بعد في أغلبه من ترسبات التفكير اللا ســامي في نظرهم. إنّنا لا ننكر وجـود تناقض بين أغلبيــة المســلمــين في تونس واليهود، وهو تناقض يتحول أحيانا إلى تنافر شديد فاصطدام، لكنّ هذا التناقض ناتج

عن وعي خاطئ، ولا يخدم في شيء مصالح هؤلاء المسلمين، وإنما يخدم مصالح الشرائح الحاكمة الاستبدادية التي تحكمت بمصيرهم دهورا طويلة، وعمّقت في صفوفهم التفكير العقيم والظلامي، وربّتهم على كره اليهود. كما أنّ البرجوازيّة الفرنسيّة (وريثة فلسفة الأنوار!) تصرفت في مستعمراتها تجاه اليهود على عكس تصرفها إزاءهم في فرنسا. وقد عملت في تونس على تعزيز المشاعر اللاسامية الكامنة في نفوس الأغلبيّة المسلمة بطرق صارخة حينا وضامرة حينا آخر.

إنّ الصناعيين اليهود لم يحصلوا كلهم على الجنسيّة الفرنسيّة، بالرغم من المجهودات الكبيرة التي صرفوها في هذا الاتجاه، والمحظوظون منهم لم ينالوا هذا "الشرف" إلاّ بعد أن أصبحوا على مشارف اليأس. ويأتي الرفض أو التلكؤ اللّذان أظهرتهما السلطات الفرنسيّة تجاههم كنتيجة منطقية لتخوفها من منافستهم الاقتصادية لصناعييها المستقرين بتونس، لكن هذه السلطات لم تسلك نفس السياسة مع كبار التجار اليهود ومتوسطيهم، إذ هي لم تتوان كثيرا في تجنيسهم، وهذا راجع إلى حاجتها إليهم، خاصة وهي تقدر جيدا خبرتهم الغنية في ميدان التبادل.

لقد كيّف هؤلاء اليهود الموالون لفرنسا تجارتهم لكي ينفذوا الدور الذي حددته لهم الامبريالية الفرنسيّة في عمليّة الانتاج الاجتماعي بتونس. فقد تخلوا غداة الحرب العالمية الأولى عن تجارة المواد الاستهلاكية التقليديّة لفائدة تجّار جربة من المسلمين، واتجهوا إلى الاتجار بالبضائع العصريّة المستوردة من فرنسا مثل الآلات الكهربائيّة المنزلية والأقمشة العصريّة والمواد الغذائيّة الجديدة. إنّ هذا الإنتقال إلى ميدان التجارة العصرية يعتبر بالنسبة إلى هؤلاء التجّار عملية إرتقاء في السلم الإجتماعي. ونحن لا نعتقد على غرار أحمد توفيق المدني، أحد قادة الحزب الحر الدستوري التونسي حين يعزو ذلك إلى الإفلاس الّذي لحق هؤلاء التجار من جرّاء مقاطعة السكان المسلمين لهم[13]. إنّ هذه المقاطعة لم يكن لها في الواقع

سوى تأثير محدود جداً.

لقد تضرّر كل اليهود، وبدرجات متفاوتة، من الإنعكاسات السّلبية للازمة الإقتصادية الكبرى لسنة 1929. فلقد بارت التجارة، وهبطت أثمان المنتوجات الّتي تصنعها المصانع اليهوديّة. وأصيب عدد من الصناعيين بالإفلاس. وأصبح من العسير على العديد من التجار تسديد ما عليهم من ديون، كما أنّ خصم الجمارك لنسبة 2٪ من قيمة البضائع المستوردة قلص كثيرا من هامش أرباح هؤلاء التجّار[14]. وقد ساءت حال صغار التجّار منهم، فأصبحوا غير قادرين حتّى على دفع معاليم الأكرية الموظفة على محلاّتهم التجارية[15]. وقد تفاقمت البطالة وتدهورت الظروف المعيشية للفئات الدنيا من اليهود، بحيث أصبح عدد العائلات الّتي في حالة إملاق تام يناهز المائة[16].

إنّ عائدات الرّبا في الواقع لم تعوّض للمرابين اليهود إلاّ جانبا فقط من الخسائر الّتي لحقتهم من جراء الأزمة الإقتصادية، كما لا ننس أنّ الإجراءات المناوئة للربا الّتي إتّخذتها السلطات الفرنسية عرقلت إلى حدّ ما هؤلاء المرابين ولا سيّما الصّغار منهم.

2) النشاط الصهيوني :

إنّ الظّاهرة الملفتة للنظر، هي أنّ الحركة الصهيونيّة أصبحت تعيش في مطلع الثلاثينات تناقضا واضحا بين تقلص عدد الملتزمين بها نظريا وعمليا من جهة، وتزايد عدد المتعاطفين معها من جهة ثانية. إنّ المؤشّرات الدّالة على تناقص الصهاينة النشيطين وفيرة نكتفي ببعضها فقط :

إنّ المتفحص للخط البياني لعدد "الشّاقليين" يلاحظ أنّه أصبح يتّجه نحو الإنحدار، كما تدل على ذلك الأرقام التالية[17] :

السنة	1931	1932	1933	1934
عدد الشاقليين	1501	460	981	228

إنّ تأرجح عـدد "الشّـاقليـين" كـمـا يبـرزه هذا الجـدول ناتج عن الإعـتـبـارات الإنتخابية، فهو عدد يرتفع في السنوات الّتي تلتئم فيها المؤتمرات الصهيونية العالمية وينخفض في ما عداها.

وهناك مؤشّر ثان يتعلق بعدد الّذين شاركوا في الإنتخابات لتمثيل صهاينة تونس في المؤتمر الصهيوني العالمي الثامن عشر (1933)، وهو عـدد لم يتـجـاوز 504 أنفار[18]، في حين أنّه شارك على سبيل المقارنة في إنتخابات "المؤتمر الصهيوني المصغر" لسنة 1920، 3187 صهيونيا[19].

أمّا المؤشر الثالث، فيمكن إستخلاصه من هذه النبذة المقتطفة من تقرير رفعه مجلس الطائفة اليهودية إبان الأزمة الإقتصاديّة إلى السلطات الفرنسيّة[20]: "... لقد كـان من نتـائج الازمـة الإقـتـصـادية الّتي إكـتـسـحت السكان اليـهـود، توقف هذه المجموعات (الصهيونية) عن أيّ تحرك، بحيث أصبح نشاطها اليوم منعدما". إنّ ما ساقه هذا التقرير، رغم ما ينطوي عليه من بعض الحقيقة، بعيد كلّ البعد عن الواقع، فقتامة اللوحة التي رسمها للحركة الصهيونيّة راجعة إلى "معارضة" مجلس الطائفة للصهيونيّة. وإنّ ما يزيدنا اقتناعا بأنّ تقرير مجلس الطائفة مجانب للصواب كثيرا، هو مـا جـاء يوم 3 أوت 1932 في جريدة "لسان الشعب" المتعاطفة مع الحزب الحر الدستوري التونسي حول واقع الحركة الصهيونيّة في نفس الفترة: << ... (إنّ) روح الصهيونيّة التي استفحلت آثارها في غالب الجالية اليهوديّة وانتشرت اليوم انتشارا غريبا وعلى الخصوص بالساحل، ففي المهدية ومكنين وسوسة وحتى في طبلبة، نجد حركات صهيونيّة منظمة ومظاهرات تحفها أعلام ورايات لسنا نعلم إلى أي دولة ولا إلى أي أمة تنسب. وها نحن نراها في صورة مبكرة في صفاقس >>.

إنّ المتعاطفين مع الصهيونيّة الذين بدأ عددهم يتكاثر في بداية الثلاثينات ينتمون حسيّا فقط إلى الحركة الصهيونيّة، وهم يعيشون في موقف انتظاري، ويرجع

ذلك إلى ضعف اقتناعهم بامكانية نجاح المخططات الصهيونيّة، وهم بمثابة <<جيش الاحتياط>> للحركة الصهيونيّة بتونس.

أن تنامي عدد هؤلاء المتعاطفين يعود إلى إستغلال الدعاية الصهيونية بتونس لجملة من العوامل الموضوعية المواتية. فقدمثل تدهور الأوضاع المعيشية لليهود في السنوات العجاف لأوائل الثلاثينات فرصة سانحة لم يفوتها الدعاة الصهاينة على أنفسهم. أو ليست "أرض المعياد" هي "جنائن بابل المعلقة"، حيث سيكون جميع اليهود هناك في نعيم مقيم، فلا مشاكل حادّة ولا صراعات إجتماعية ولا إهانات مذلّة ! تقول جريدة LE REVEIL JUIF (اليقظة اليهودية) في هذا السياق متحدّثة عن الأغنياء اليهود في تونس[21] : << ... أيقبلون أن يمطرهم الآخرون في كل لحظة بالنعوت من نوع الإستغلاليين، المضاربين، المرابين ... الأرجاس، في حين أنّه ما زال أمامهم متسع من الوقت لكي يساهموا عن طريق السّواعد اليهوديّة في إنقاذ فلسطين "أرض اللّبن والزبدة والعسل"، وإنّه لمن نافلة القول الإشارة إلى أنّه بامكانهم أن يحققوا هناك ما طاب لهم من الكسب الحلال".

أما العامل الثاني الّذي وفر للدّعاية الصّهيونية قناة لتمرير أطروحاتها، فيتمثّل في التجميد شبه التّام لعمليّة تجنيس اليهود من قبل السلطات الفرنسية بداية من 1934. وقد جاء هذا الموقف الفرنسي المفاجئ في ظرف تصاعدت فيه حركة المطالبة اليهودية بالجنسية الفرنسية، كما تقول ذلك إحدى الجرائد الصّهيونية[22] : <<...وليس السبب هو تناقص مطالب أبناء ديننا التي سجلت على العكس من ذلك تصاعدا ملحوظا بالنسبة للسنوات الماضية>>. وقد عبرت كل الجرائد الصهيونيّة عن استنكارها لتجميد عملية التجنيس. وأصبح اليهود يتحدثون عن نسف قانون مورينو (MORINAUD) [23] وعن <<عودة الروح>> لسياسة ميلي (MILLET) والابتيت (ALAPETITE) اللاسامية>> [24].

لقد تمكنا من حصر خمسة أسباب لتفسير المنعطف الّذي اتخذته سياسة تجنيس اليهود سنة 1934، وهي على التّوالي :

- لقد أشرفت سياسة تجنيس اليهود في بداية الثلاثينات على بلوغ مداها الأقصى، إذ أنّ السّلطات الفرنسية قد جنّست من اليهود إلى حد ما ذلك التاريخ أغلب الذين تحتاج إليهم مثل التجار الكبار والمتوسطين، أو الذين لا يشكلون خطرا كبيرا على مصالح مواطنيها في تونس، مثل بعض الفئات من الصناعيين. أما بقية اليهود الّذين أوصدت الباب أمامهم، فهم إما أولئك الّذين ليس لهم بالنسبة لها أيّ "وزن" مثل الفقراء، وإما أولئك الّذين يخشى من "بأسهم" الاقتصادي مثل بعض الفئات من الصناعيين.

- إنّ المعارضة العارمة الّتي أبداها الشّعب التونسي إزاء سياسة تجنيس المسلمين في بداية الثلاثينات جعلت السلطات الفرنسيّة تجمد كل مطالب المترشحين للجنسيّة الفرنسيّة، بصرف النظر عن انتمائهم الديني، سواء كانو مسلمين أو يهود، وذلك حتي "تهدأ العاصفة".

- إنّ السلطلت الفرنسيّة، لكي تؤمن كل أسباب النجاح لمناورتها التضليلية الهادفة إلى تحميل اليهود المحليين مسؤوليّة ما يعانيه المسلمون من جراء الأزمة الاقتصاديّة تريد ايهام المسلمين بأنّ توقيفها لتجنيس اليهود هو قرار زجري ضد هؤلاء المرابين.

- إنّ التيارات الفاشية التي أخذت تتصاعد في فرنسا بدأت تجد آذانا صاغية داخل أجهزة الدولة الاستعماريّة في تونس، وبما أنّ عداء هذه التيارات الفاشية لليهود لا يحتاج إلى بيان، فطبيعي إذن أن يضغط كل الفرنسيّين في تونس المتعاطفين مع الفاشية في اتجاه توقيف عملية تجنيس اليهود.

- إنّ الموقف الانتهازي القديم للصهاينة الذي يقبل تجنيس اليهود ويرفض في آن واحد ذوبانهم في صلب الحضارة الفرنسيّة[25] أصبح يشكل في ظروف الثلاثينات

مصدر إحراج شديد حتى بالنسبة إلى ذوي النفوذ من الفرنسيّين في تونس المتعاطفين معهم.

إنّه من الصعب الموافقة على موقف الكاتب الصهيوني أندري شوراقي (ANDRE CHOURAQUI) الذي يميل إلى الاعتقاد بأنّ منعطف 1934 ناتج عن الانطوائية التي جنح إليها اليهود بعد سقوط ألمانيا تحت السيطرة النازية[26].

إنّ العامل الثالث الذي ساعد الدعاة الصهاينة على توسيع رقعة المتعاطفيين معهم من اليهود، هو وصول هتلر إلى السلطة السياسية في ألمانيا سنة 1933. فقد هزّ هذا الحدث كل اليهود في تونس، وجعلهم يدركون الخطر الداهم الذي أصبح محدقا بأبناء دينهم في ألمانيا. تقول جريدة LE REVEIL JUIF (اليقظة اليهودية) في عددها الصادر يوم 21 جويلية 1933 : << ... إنّ الوضع البائس لليهود يطرح نفسه بحدة لم يعرفها في السابق أبدا. فلقد تعمقت اليوم مأساتهم أكثر من أي وقت مضى. فهناك 600.000 يهودي في ألمانيا أصبحوا اليوم مهدوري الدم >>. لقد جنح الدعاة الصهاينة إلى تكلم <<لغة لطم الخدود وشق الجيوب>> وإلى الترديد بأنّ المخرج السلامي الوحيد لجميع يهود العالم في هذه الظروف المدلهمة بالأخطار هو الصهيونيّة. وقد استطاعوا جلب اهتمام عدد كبير من اليهود الذين كانوا غير مبالين في السابق بـ "السياسة". فقد نظموا في أواخر جانفي 1927 اجتماعا كبيرا نددوا فيه بالقوانين التضييقيّة التي اتخذتها السلطات السياسيّة في رومانيا وبولونيا والمجر ضدّ اليهود، ونظموا كذلك اجتماعات عامة في أهم مدن البلاد للتعبير عن استنكارهم لسياسة النازيين اللاسامية، كما أنهم أرسلوا برقيات احتجاج إلى عصبة الأمم، وتواصلوا بمقاطعة المصالح الألمانيّة بتونس كالبضائع وقاعات السينما التي تملكها شركة سيبراس (SEIBERRAS) الألمانية. وقد ذكرت جريدة LE REVEIL JUIF (اليقظة اليهودية) في عددها الصادر يوم 31 مارس 1933 أنّ : << ... ما قيمته أكثر من

مليوني فرنك من البضائع الألمانيّة، رجع من حيث أتى>>.

لقد حاولت القنصليّة الألمانيّة بتونس، وكذلك بعض "الروس البيض" الذين فروا من روسيا بعد الثورة البلشفية اذكاء النعرة اللاسامية بتونس، واستعملوا لأجل ذلك المناشير والكتابات الحائطيّة.

إلى جانب هذه العوامل الثلاثة التي ضغطت في اتجاه انتزاع تعاطف اليهود مع الصهيونيّة، هناك عامل عرقل إلى حدّ عمليّة الدعاية الصهيونيّة وهو "الكتاب الأبيض" البريطاني لسنة 1930 الذي سلّط كما هو معروف جملة من التضييقات على عمليّة الاستيطان الصهيوني بفلسطين. وقد سارع أغلب الصهاينة في تونس إلى مطالبة انقلترا عن طريق البرقيات الاحتجاجية بالغاء "الكتاب الأبيض"[27]. ورغم أن تراجع انقلترا تحت ضغط الحركة الصهيونيّة العالميّة لم يتطلب إلاّ بضعة أشهر، فانّ "الكتاب الأبيض" جعل العديد من المتصهينين يتشككون أكثر من ذي قبل في إمكانية نجاح المخططات الصهيونيّة خاصّة، بعد أن بدا لهم أنّ تأييد انقلترا للصهيونيّة لم يعد من المسلمات الثانيّة.

أما عن التيارات المتواجدة داخل الحركة الصهيونيّة في تونس، فعددها ستة، وهي:

- التيار التنقيحي.
- التيار الصهيوني العام.
- التيار المزراحي.
- التيار الاشتراكي الديمقراطي.
- تيار الهاشومير هاتزاير.
- التيار الخيري.

ويشكل التياران : التنقيحي والصهيوني العام، القطبين الرئيسيين للحركة

الصهيونيّة بتونس.

نبدأ أولا باستعراض نشاط ممثلي أهم تيار صهيوني بتونس، وهم التنقيحيون.

لقد اضطرّ فيليكس علوش، أمام الصيت الذائع الذي أصبحت تتمتع به جريدته LE REVEIL JUIF (اليقظة اليهوديّة) إلى نقل مقرها من صفاقس إلى تونس العاصمة. وقد صدر أوّل عدد لها بتونس يوم 11 أفريل 1930، إلاّ أنّها لم تتمكن من الحفاظ على وجودها إلاّ بضعة سنوات فقط، إذ احتجبت نهائيًا في أواخر 1933. وبموتها، فقدت الحركة الصهيونيّة بتونس أهمّ وسائلها الدعائيّة على الاطلاق حتى ذلك التاريخ. ولتدارك الوضع، أصدر التنقيحيون جريدة جديدة اسمها LA KADIMA (إلى الأمام). وقد أول عدد لها يوم 15 نوفمبر 1933. وقد بدأت نصف شهرية ثمّ أصبحت شهريّة. أمّا الأسباب التي أودت بجريدة LE REVEIL JUIF (اليقظة اليهوديّة)، فهي كما يعددها مديرها في جريدة LA KADIMA (إلى الأمام) لشهر ماي 1934:

- تردي أوضاعه المادية.

- خذلان أصدقائه له بعد أن منوه بشغل بتونس العاصمة مقابل نقل مقر جريدته إليها.

- تخليه في أواخر 1932 عن الكتابة العامة للصندوق القومي اليهودي، فرع تونس، وفقدانه بالتالي للمرتب الذي كان يدره عليه هذا المنصب، بعد أن سقط فرع فرنسا لهذا الصندوق في أيدي الصهاينة "الاشتراكيين". ونشير هنا إلى أنّه قد دارت مساجلات عنيفة بين فيلكس علوش عن طريق جريدة LA KADIMA (إلى الأمام) والصهيوني "الاشتراكي" جوزيف فيشر (JOSEPH FICHER) الكاتب العام للصندوق القومي اليهودي، فرع فرنسا، ومدير جريدة (LA TERRE RETROUVEE) (الأرض المستردة).

لقد تجلى الدور الهيمني للتنقيحيين على الساحة الصهيونيّة بتونس في جميع

الانتخابات الصهيونيّة المحليّة التي شاركوا فيها، إذ أنهم فازوا في الانتخابات لتمثيل صهاينة تونس في المؤتمر الصهيوني العالمي السادس عشر (1929)، ونوّبوا عنهم في المؤتمر صهيونيين مقيمين آنذاك بفرنسا، هما ألفراد فالنزي، رائد الحركة الصهيونيّة في تونس، وماكسا نوردو (MAXA NORDAU) أرملة ماكس نوردو (MAX NORDAU) أحد مؤسسي الحركة الصهيونيّة العالميّة، كما أنهم فازوا في الانتخابات للمؤتمر الصهيوني العالمي السابع عشر (1931)، ونوبوا عنهم إيلي لوزان (ELEI LOUZOU) وبنجمان أكزين (BENJAMIN AKZIN) ، وفازوا في الانتخابات للمؤتمر الصهيوني العالمي الثامن عشر (1933)، ونوبوا عنهم فيليكس علوش ودافيد شمله (DAVID CHEMLA) وسوفار مامو (SAUVEUR MAMOU). ولعلّ أصرخ دليل على تفوقهم على منافسيهم، هو أنهم تحصلوا في انتخابات 1933 على 308 أصوات، بينما لم يتحصل الصهاينة العامون وحلفاؤهم "الاشتراكيون" إلاّ على 196 صوتا فقط[28]. وهناك عامل خارجي ساهم كثيرا في تقوية شوكة التنقيحيين بتونس هو تدعم نفوذ الحركة التنقيحية العالمية في أوائل الثلاثينات.

إنّ تاريخ التنقيحيّة في تونس مرتبط ارتباطا وثيقا جدا بتاريخ الحركة التنقيحيّة العالميّة. فقد قاطع التنقيحيون في تونس، على غرار بقية التنقيحيين في العالم، كل المؤتمرات الصهيونيّة العالميّة التي انعقدت في الفترة بين 1935 و 1946، وانسحبوا تبعا لذلك من الفدرالية الصهيونيّة التونسيّة التابعة للمنظمة الصهيونيّة العالميّة، وأسسوا في أواخر 1935 منظمة خاصة بهم أطلقوا عليها اسم : المنظمة الصهيونيّة الجديدة، وهي فرع لتنظيم عالمي يحمل نفس الاسم أسسه فلاديمير جابوتنسكي في سبتمبر 1935 بلندن. ونشير هنا إلى أنّ انشقاق فلاديمير جابو تنسكي عن المنظمة الصهيونيّة العالميّة يعود إلى سببين رئيسين : أولهما رفضه لمبدأ فتح الوكالة اليهودية إلى اليهود غير الصهاينة، وثانيهما رفض المؤتمر الصهيوني العالمي لسنة

1931 الاعلان رسميا أنّ هدف الصهيونيّة هو إقامة دولة يهوديّة على كل فلسطين. وقد قاطع التنقيحيون في تونس مؤسستي الصندوق القومي اليهودي والصندوق التأسيسي اليهودي التابعين للمنظمة الصهيونيّة العالميّة، وأسسوا فرعا للـ "كيرين تل هاي" (KEREN TEL HAI) وهي مؤسسة تعميرية عالميّة أنشأها "كيرين تل هاي" وهي مؤسسة تعميرية عالميّة أنشأها فلاديمير جابو تنسكي، وتتمثل وارداتها في التبرعات الطوعية وفي عائدات ضريبة الدينار التي يدفعها لها أعضاؤها.

لقد حاول التنقيحيون تنشيط الهجرة اليهودية إلى فلسطين، إلاّ أنّه لم يستجب لهم في الفترة بين 1932 و 1939 إلاّ 90 شخصا، أي بزيادة قدرها 30 شخصا بالمقارنة مع عدد الذين هاجروا قبل 1932. وهذه الحصيلة الضئيلة جعلت التنقيحيين يغرقون في التشاؤم، إلى درجة أنّ أحد التنقيحيين البارزين، وهو جاك بيلي لم يتورع عن تأنيب اليهود "المتقاعسين" بلهجة متشنجة غاية في الجلافة. فقد كتب في جريدة LE REVEIL JUIF (اليقظة اليهوديّة) ليوم 21 جويلية 1933 ما يلي : << ... إنّ يهود تونس بصفتهم إحدى قبائل اسرائيل لا يريدون المشاركة بقسطهم في إعادة تعمير أرض اسرائيل. ألاّ تبا لشبابنا اليهودي في تونس وصفاقس وسوسة، وتبا لمثقفينا الذين يعتقدون أنهم محور العالم، وتبا ليهودنا المصرفيين و قنّاصي الصفقات الذين ترزح كواهلهم تحت أثقال النفاق والمراوغة>>. إنّ فكرة الهجرة إلى فلسطين، بالرغم من أنّها لم تصبح بعد من القناعات الراسخة لدى أغلبية الصهاينة، إلاّ أنها أصبحت تطرح نفسها عليهم بالحاح. فقد كتب على سبيل المثال مدير المعارف رسالة بتاريخ 21 أكتوبر 1933[29] إلى الكاتب العام للحكومة التونسيّة يعلمه فيها بأنّ : << ... طلبة القسم الفلاحي للمدرسة العلوية، وأغلبهم من اليهود مصممون على الهجرة إلى فلسطين عقب تخرجهم>>.

من نشاط التنقيحيين أيضا أنهم أسسوا في أواخر 1933 فرعا لحركة الشبيبة

التنقيحيّة العالميّة المعروفة باسم بيتار (BETAR) وأطلقوا على هذا الفرع اسم بريث ترمبلدور (BERITH TRUMPELDOR)، وذلك تخليدا لذكرى يوسف ترمبلدور الذي مات على أيدي المقاومين الفلسطينيين في مارس 1920، وهو أحد الغلاة الصهاينة الذي أسس بالاشتراك مع فلاديمير جابوتنسكي "الكتيبة اليهوديّة" (LA LEGION JUIVE) التي حاربت إلى جانب الحلفاء في الحرب العالميّة الأولى. أما الأهداف التي رسمتها لنفسها، فهي كما تلخصها جريدة LA KADIMA (إلى الأمام)[30] :

- تلقين الشباب التاريخ اليهودي والعبرية والصهيونيّة.

- التأهيل المهني أي الأعمال اليدوية.

- التدريب على "الدفاع الذاتي".

إنّ البرنامج الذي تقدم به التنقيحيون في انتخابات تمثيل صهاينة تونس في المؤتمر الصهيوني العالمي الثامن عشر يتضمن مواقفهم من مختلف قضايا الحركة الصهيونيّة العالميّة آنذاك، وهذا باختزال كل ما جاء فيه[31]:

- إنّ هدف الصهيونيّة هو إقامة دولة يهوديّة حرة ومستقلة على فلسطين. وتحقيق هذا الهدف يمر عبر انجاز جملة من المهام :

على المستوى الخارجي :

- القيام بحملة ديبلوماسيّة واسعة النطاق، وذلك لتحسيس الدولة الكبرى بالوضع المأسوي "للشعب" اليهودي، ولتوعيتها بما لفلسطين من قدرة لا محدودة على استيعاب المهاجرين ورؤوس الأموال.

- ضرورة التركيز خاصة على بلدان أوروبا الشرقية لاقناعها بأنّ إجلاء ما لها من يهود إلى فلسطين كفيل بالتخفيف من التوترات الاجتماعية التي تعاني منها.

- بذل الجهود اللازمة لحمل بريطانيا على الاعتراف بأنّ الضفة الغربية لنهر الأردن جزء لا يتجزأ من فلسطين، ولدفعها كذلك لتوفير المناخ الملائم للهجرة إلى

"أرض الميعاد".

على مستوى الوضع داخل فلسطين :

- بعث جهاز قضائي يتولى التحكيم الاجباري بين العمال والأعراف.

- اعتبار الاضرابات العمالية مهما كان نوعها "جريمة في حق الأمة"، ورفض كل ما يمت إلى فكرة الصراع الطبقي بصلة.

- الاقتصار على تشغيل العمال اليهود فقط.

- المطالبة باضفاء صبغة الشرعية على منظمات "الدفاع الذاتي" الصهيوني.

- رفض فكرة انشاء مجلس نيابي في فلسطين.

- رفض شعار الدولة ثنائية القومية.

على مستوى المنظمة الصهيونيّة العالميّة / الوكالة اليهوديّة :

- ضرورة اقصاء اليهود غير الصهاينة عن الوكالة اليهودية.

- وجوب تصعيد الضغط على المنظمة الصهيونيّة العالميّة حتى يقتصر عملها على اسداء المعونات المالية للمستوطنين في فلسطين، ودفعها إلى خلق تنظيمات تحمل في أحشائها بذور دولة المستقبل مثل منشآت الأقراص، ووكالات الاستعلامات، ومراكز التجارب العلميّة.

- تدعيم البنك الاستيطاني اليهودي (LA BANQUE COLONIALE JUIVE) والعمل على اقتناء قرض عالمي مضمون من عصبة الأمم.

- إلغاء نظام الهجرة عن طريق الوكالة اليهوديّة، أو على الأقل ضرورة إلتزام الوكالة بعدم اخضاع توزيع تأشيرات الهجرة للاعتبارات الايديولوجية.

- فتح باب الهجرة إلى فلسطين أمام الطبقة المتوسطة خاصة.

إنّ التيار التنقيحي هو التيار الوحيد من بين كل التيارات الصهيونيّة، الذي لم ينحصر في فئات صغار البرجوازيين ومتوسطيهم، بل استطاع أن يبني لنفسه ركائز في

بعض الأوساط البروليتارية اليهوديّة، وهذا ما يجعل التنقيحيين يرددون دائما بأنهم ملتحمون بـ "الجماهير" لا بـ "النخبة".

أما التيار الصهيوني الثاني من حيث الوزن الجماهيري، فهو التيار الصهيوني العام. والموالون لهذا التيار يملكون جريدة أسبوعية تتكلم باسمهم تسمى L'AURORE (الفجر). وقد صدر أول عدد لها يوم 8 سبتمبر 1933. ومن أبرز كتابها ريني كوهين حضرية (RENE COHEN HADRIA) وفيلكس بجاوي (FELIX BIJAOUI).

إنّ الذي يسترعي الانتباه في تجمع الصهاينة العامين هو غياب الاجماع بين أعضائه حول مسألة غاية في الأهميّة، هي مسألة الشكل الذي سيتخذه في المستقبل "الوطن القومي اليهودي". فالبيان الانتخابي الذي أصدروه بمناسبة الحملة الانتخابية لتمثيل صهاينة تونس في المؤتمر الصهيوني العالمي الثامن عشر (1933) يقول حول هدق الصهيونيّة[32] : << ... إنّ هذا الهدف هو، بدون أدنى ريب، الدولة اليهوديّة، هذه مسألة لا يشك فيها اثنان. لكن هل من صالحنا الاعلان عن ذلك رسميا الآن؟>>. أما فيليكس بجاوي، فقد أصدر بتونس سنة 1934 دراسة بعنوان : الصهيونيّة إلى أين[33] يقول فيها : << ... هل سيأتي يوم تظهر فيه للوجود الدولة اليهوديّة ؟، إنني لا أستطيع أن أجزم بذلك>>. ويشير في هذه الدراسة إلى إمكانية قيام "يهود مستقلة" (UNE JUDEE AUTONOME)) في ظرف 20 أو 50 عاما تكون تابعة لـ "كونفدرالية عربية يهودية". ويركز كاتب هذه الدراسة على حتمية التعاون السلمي مع العرب، ويبدي تشككه في قدرة الصهيونيّة على حلّ المشكلة اليهوديّة، خاصة وأن هناك من العوائق ما يصعب تخطيه، مثل وجود مليون ساكن عربي في فلسطين، وصغر مساحة هذا البلد، ومحدودية موارده الطبيعية، كذلك دعم انقلترا غير الثابت للصهيونيّة، ثمّ غياب ما يبرّر هجرة اليهود إلى فلسطين في بلدان ليست فيها "مشكلة يهودية" مثل فرنسا وانقلترا والولايات المتحدة الأمريكيّة.

لقد ظلّ الصهاينة العامون يلحّون على ضرورة توحد كل الفصائل الصهيونيّة في تونس، إلاّ أنّهم لا يحددون بدقة الأرضيّة السياسيّة الدنيا لهذا التوحد المنشود، بل يكتفون بالاهابة بكل الصهاينة أن يحاكموا الأمور بمنطق الواقعية والرجحان والاعتدال، وأن لا يهدروا طاقاتهم في الصراعات الايديولوجية التي تعتبر من باب الترف الفكري الذي لم يحن وقته بعد. وقد زادهم تشبثا بهذا الشعار الوحدوي الخطر الفاشي الذي بدأ يخيم على أوروبا. وقد رفضوا باسم هذا الشعار مساندة التجمع السفارادي العالمي الذي تكون آنذاك. وحول هذه النقطة يقول ريني كوهين حضرية[34] : << ... إنّه في الوقت الذي استبدت فيه من جديد بمجتمعات متحضرة مثل ألماني عقلية الانحطاط اللاسامية للعصور الوسطى، ليس من الجائز اقتطاع جزء من الجسد اليهودي الكبير لغايات تبدو مشروعة في حد ذاتها، لكنها ليست واردة الآن >>.

هناك نقطة يتعيّن ذكرها، وهي تتعلق بتعاطف الصهاينة العامين مع الصهاينة "اليساريين". فقد تحالفوا معهم في العديد من المرات للتصدي للتنقيحيين. يقول هنري معارك في محاضرة ألقاها بتونس يوم 26 أفريل 1925[35] : << ... إنّ الصهيونيّة هي بالتأكيد حركة قومية، لكننا لا نريد أن يكون تطور الوعي القومي في فلسطين على حساب الوعي الأممي>>. أما فيليكس بجاوي، فيقول هو بدوره[36] : << ... إنّني من الموالين المتشددين للصهيونيّة التي وهبت نفسي لخدمتها منذ ما يقارب العشرين سنة، لكنني من المتعاطفين بحماس مع الماركسيّة ومع كل الماركسيين بصرف النظر عن اتجاهاتهم أو البلدان التي ينتمون إليها>>.

إنّ الوهن الذي أصاب الحركة الصهيونيّة العامة على المستوى العالمي في أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات قد أثر بالسلب في مكانة الصهاينة العامين على الساحة الصهيونيّة بتونس.

أما الصهاينة "الاشتراكيون"، فانهم لم يتمكنوا من اكتساب مواقع صلبة في تونس،

رغم النفوذ الكبير الذي أصبحت تتمتع به الحركة الصهيونيّة "الاشتراكيّة" على المستوى العالمي في بداية الثلاثينات. وقد أصبح في تونس في بداية الثلاثينات ممثلان للصهيونيّة "الاشتراكية" : تجمع الاشتراكيين الديمقراطيين (LES SIONISTES TRAVAILLISTES) وتجمع الهاشومير هاتزاير (HACHOMER HATZAIR) (الحارس الفتى). فتجمع "الاشتراكيين الديمقراطيين" يعتبر وريثا للتيار الذي عبرت عنه جريدة LA REVUE ISRAELITE (المجلة الاسرائيلية) سنة 1924. وقد ظلّ هذا التيار محافظا على وجوده الجماهيري المحدود. وقد أعلن، كما هو منتظر، عن ولائه لحزب الماباي (MAPAI) حال تكوينه في فلسطين في نوفمبر 1930. أما تجمع "الهاشومير هاتزاير" فقد ظهر سنة 1930. ويلقب أتباعه بـ "المشاعيين" (LES COLLECTIVISTES). ولهذا التجمع جريدة نصف شهريّة تسمى LE HALOUTZ (الرائد). وقد صدر أوّل عدد لها يوم 15 فيفري 1933، إلاّ أنّها على غرار معظم الجرائد الصهيونيّة الّتي عرفتها البلاد منذ بداية القرن، لم تعمر إلاّ بضعة أشهر.

إنّ تجمّع الهاشومير هاتزاير يعتبر نفسه خليّة من خلايا حركة الهاشومير هاتزاير العالمية، وهي حركة شباب صهيونية تأسّست في أوائل هذا القرن في أوروبا الشرقية. إنّ ما يلفت نظر المستعرض لنشاط هذا التجمّع في تونس هو أنّ أعضاءه يعتبرون أوّل فصيل صهيوني في تونس أقحم العنف العضلي في الساحة الصهيونية، إلى درجة أنّ مشهد التشابك بالأيدي أصبح من الأمور المألوفة في كل تظاهرة تجمّع بين التنقيحيين وأتباع هذا التجمع. وقد برز في صفوف الهاشومير شارل بيزموث زرقه (CHARLES BISMUTH ZARKA) الّذي إشتهر بحدّة صولاته الكلاميّة وعصبيّة تهجماته ضدّ التنقيحيين. ويعتبر تجمع الهاشومير هاتزاير نفسه حركة "نخبويّة"، بالرّغم من الاشتراكيّة الّتي يدعيها، وهذا ما يفسر تقوقع نشاطه الدعائي في أوساط الشباب

اليهودي لكبار البرجوازيين ومتوسطيهم. ورغم ما بذلته العناصر النّشيطة لهذا التّجمع من مجهودات لاستقطاب أكثر ما يمكن من الشباب "الراقي"، فانّها لم تحصل إلا على نتائج هزيلة. أمّا الايديولوجيّة الّتي ينتسب إليها أعضاء الهاشومير، فهي خليط انتقائي فيه من الماركسيّة الكثير، لكنّه مطعم أيضا بأفكار سيقمون فرويد (S. FREUD) حول المشاكل الجنسيّة وبأفكار الفيلسوف اليهودي الألماني مارتان بوبر حول الخصال الثوريّة الّتي ينفرد بها الشّباب دون الكهول والمسنين، وكذلك بأفكار الكاتب الفرنسي اليهودي برنار لازار حول الطابع "الاشتراكي" للصهيونيّة[38]. أمّا المبادئ الّتي لقنها هذا التجمع لأعضائه فهي :

- قدسيّة العمل اليهودي.
- ضرورة فك الإرتباط بالمؤسسة العائليّة
- الالتزام بالولاء التام لمبدا الحياة الجماعيّة
- ضرورة الوعي الصحيح بالقضايا الجنسيّة
-الصهيونيّة إشتراكيّة أو لا تكون.

وهذه مواقفه بالتفصيل في هذه النقطة الأخيرة[39] :

- إنّ فلسطين لا تمثل بالنسبة للرأسمالية الانقليزيّة سوقا لتوظيف رؤوس الأموال، أو لتصريف المنتوجات المعمليّة أو لاستيراد الخامات، وإنّما هي قبل كلّ شيء نقطة إرتكاز عسكريّة. ولكي لا تثقل ضريبيا على مواطنيها، لجأت انقلترا إلى اخضاع المتساكنين في فلسطين إلى سياسة استغلال فاحشة حتّى تنتزع منهم الاعتمادات اللأزمة لتغطية حضورها العسكري في هذا البلد.

- إنّ الصهيونيّة تمثل قوة ثوريّة، لأنّها رسمت لنفسها مهمة تطوير القوى المنتجة في فلسطين، ودورها في هذا البلد يعتبر بمثابة نسخة مطابقة للأصل للدّور الذي اضطلعت به في فرنسا برجوازيّة 1789.

- إنّ التحالف بين العمال اليهود والعمال العرب مسألة لا بدّ منها لعزل الاقطاعيين و البرجوازيين العرب المناوئين للصّهاينة.

- إنّ المستوطنين الصهاينة، بدفعهم تعويضات ماديّة للمزارعين العرب، قد شذّوا عن القاعدة الّتي تقول بأنّ تفقير المزارعين شرط لا بدّ منه لترسيخ علاقات الانتاج الرأسماليّة.

- إنّ العلاقة بين الصهيونيّة وانقلترا هي علاقة وحدة وصراع، والجانب الطّاغي فيها هو الصراع، فهي علاقة صراع لأنّ انقلترا هي الطّرف المهيمن (بكسر الميم)، في حين تمثّل الصهيونيّة الطّرف المهيمن عليه (بفتح الميم). وبالتّالي، فالشعار المطروح للانجاز هو التّخلّص من ربقة الغاصبين الانقليز، وهي أيضا علاقة وحدة، لأنّ هناك مصالح مشتركة بين الجانبين، إذ أنّ انقلترا لا يمكن لها المحافظة على مصالحها في فلسطين بدون مساندة الصهاينة، والصهاينة لا يمكن لهم انجاز مخطّطاتهم في فلسطين بدون دعم دولة متحضرة وعتيدة مثل انقلترا.

إنّه ليس من الصعب الوقوف على التناقضات والثغرات في هذه الأفكار. وقد "شهد شاهد من أهلها" وهو (ELIZER PRAI) إليزير براي، أحد منظري هذا التجمّع الّذي يعترف بأنّه لا يتكلّم لغة التأكيدات الجازمة، وبأنّ العائق الّذي يحدّ من نمو الحركة الّتي ينتمي إليها هو "غياب الخط" (الايديولوجي والسياسي) الواضح"[40].

لقد صدمت مواقف هذا التجمّع وخاصة منها ما يتعلّق بالمؤسسة العائليّة وبالمسائل الجنسيّة أغلب الصهاينة في تونس. وهذا ما حدا بالفدراليّة الصهيونيّة التونسيّة الّتي كانت بأيدي التنقيحيين إلى مكاتبة المنظّمة الصهيونيّة العالميّة في مارس 1931 للتذمر من المبادئ الهدامة الّتي يبثّها هذا التجمع في أوساط الشباب اليهودي في تونس. وقد أجابت المنظّمة الصهيونيّة العالميّة الّتي كان للصهاينة "الاشتراكيين" آنذاك نفوذ كبير داخلها بأنّ حركة الهاشومير هاتزاير ليست عنصرا دخيلا على الحركة الصهيونيّة، وأنّها جزء لا يتجزّأ منها، كما أعربت عن أسفها للجفاء الّذي قوبلت به هذه الحركة "التقدمية" في تونس[41].

إنّ تجمع الهاشومير هاتزاير يتكلّم من موقع الانبهار بالماركسيّة لامن موقع هضمها. وقد إقتنعت أغلب عناصره في آخر الأمر بأنّ التوفيق بين الصهيونيّة والماركسيّة أمر مستحيل، فحسمت التناقض الّذي ظلّت تعيشه بحدة بين الصهيونيّة والاشتراكيّة لصالح الاشتراكيّة، وإنضمت إلى الحزب الشيوعي التونسي في جانفي 1934 [42].

أمّا الاتّجاه الصهيوني الخيري المتواجد في أوساط كبار البرجوازيين اليهود بصفة رئيسيّة وفي أوساط متوسّطي البرجوازيين بصفة ثانويّة، فانّه انتقل من طور الأفكار السائبة إلى الطور التنظيمي. ففي أفريل 1931، أسس موريس أوزان (MAURICE UZAN) ما أسماه بـ "حزب العمل والانعتاق اليهودي". وقد لقي هذا الحزب تأييد كبيرا من كبار البرجوازيين اليهود من ذوي الثقافة الفرنسيّة خاصة. وهؤلاء كما أشرنا إلى ذلك آنفا يحتكرون أغلب مقاعد مجلس الطائفة اليهوديّة، ويمتلكون جريدة من أشهر الجرائد اليهوديّة التونسيّة آنذاك، هي جريدة (LA JUSTICE) (العدالة). إنّ برنامج هذا الحزب يتلخص في شعارين :

- الحل الصحيح "للمشكلة اليهوديّة" في تونس هو انصهار اليهود في صلب الحضارة الفرنسيّة.

- وهذا الحل يمر بالضرورة عبر اللائكية.

وقد حظى هذا الحزب، كما هو منتظر، بمساندة كبيرة من السلطات الاستعماريّة الفرنسيّة، وذلك لتطابق وجهة نظرها حول حلّ "المشكلة اليهوديّة التونسيّة" مع وجهة نظر هذا الحزب.

إنّ ميلاد هذا الحزب يدل على أنّ كبار البرجوازيين اليهود أصبحوا متخوفين من الحركة الصهيونيّة، خاصة وأنّ هذه الحركة المعارضة لانصهار اليهود في صلب الحضارة الفرنسيّة ما انفكت تسير وفق وتيرة نامية ومتصاعدة. وقد أصيب هؤلاء البرجوازيون برجة عنيفة حين تمكن الصهاينة سنة 1929 من الاستيلاء على العديد من المقاعد في مجلس الطائفة، فجندوا كل طاقاتهم للقيام بهجمة مضادة في انتخابات

1934 بهدف استعادة هيمنتهم المطلقة على المجلس. وقد نجحوا في ذلك، خاصة بعد أن عمدوا إلى رشوة الناخبين على نطاق واسع، مما أثار ثائرة الصهاينة الذين صوتوا في هذه الانتخابات بأوراق بيضاء للتعبير عن احتجاجهم.

لقد استطاع هذا الحزب أن يكتسب بسرعة قاعدة جماهيرية لا يستهان بها، ولم يجد معارضة إلاّ من الاحبار ومن اليهود المحافظين سياسيا، ومن الصهاينة الذين كانوا يسمونه بتهكم "حزب العمل من أجل الانعتاق من الروابط اليهودية ".

3) موقف السلطات الفرنسية من الحركة الصهيونية :

لقد عارضت السلطات الاستعماريّة بشدة دعوة الصهاينة لتعصير اللغة العبرية، واعتبرتها خطرا موجها ضد المكانة البارزة التي تحتلها اللغة الفرنسيّة في أوساط اليهود في تونس. كما أنها اضطرت في أوائل الثلاثينات "للحد" بعض الشيء من نشاط الصهاينة في تونس، وذلك حتى لا تتسبب تحركاتهم في تصعيد التناقض بين اليهود والمسلمين إلى درجة الصدام، خاصة وأنّ حساسيّة المسلمين في تونس لما يجري في فلسطين ما انفكت تتزايد بتصاعد الاشكال الانتفاضية الفلسطينيّة ضدّ الصهاينة وحلفائهم الامبرياليين. وقد رفضت السلطات الفرنسيّة تبعا لذلك، في فيفري 1931، منح حاخام صهيوني من فلسطين يدعى حاييم جهودا أفرياخ تأشيرة الدخول إلى تونس. ويعلل وزير الخارجيّة الفرنسي ذلك قائلا[43] : << ... إنّ زيارة الحاخام أفرياخ إلى تونس تأتي في ظرف تصاعدت في الحساسيات كثيرا لما يجري في فلسطين. وليس من المستبعد - لو قدر لها أن تتم - أن تفجر في مستعمراتنا التناقضات العرقية والدينيّة الكامنة، وتحدث قلاقل نحن الآن في أمس الحاجة إلى تجنبها >>. ولجبر خواطر الصهاينة الذين استاؤوا كثيرا من هذا الموقف، منعت السلطات الفرنسيّة في أواخر 1931 محي الدين القليبي، أحد أقطاب الحزب الحر الدستوري التونسي من التحول إلى بيت المقدس لحضور المؤتمر الاسلامي المقرر عقده هناك. وألغت كذلك الزيارة التي كان من المفروض أن يقوم بها فلاديمير جابوتنسكي مؤسس الحركة

التنقيحيّة العالميّة إلى تونس يوم 17 مارس 1932، كما أنّها منعت في جوان من نفس السنة (LOUIS HALPERN) لويز هالبرن مبعوث الصندوق التأسيسي اليهودي / فرع فرنسا من إلقاء محاضرة له حول الصهيونيّة بتونس العاصمة.

لقد ظلت السلطات الفرنسيّة متمسكة بمبدأ صهر اليهود في بوتقة الحضارة الفرنسيّة، وهو المبدأ الّذي يرفضه أغلب الصهاينة. وقد تقدّمت خطوات كبيرة على طريق تحويل هذا المبدا إلى حيز التطبيق، كما أنّها واصلت بصفة موازية سلوك سياستها المستترة الهادفة إلى حصر الحركة الصهيونيّة ضمن حدود جماهريّة ضيقة، إلاّ أنّه، نظرا لتحوّل هذه الحركة إلى حالة جماهريّة بامكانها التأثير في سياق الأحداث في تونس، أصبحت هذه السلطات تفكر في ركوب هذه الحركة وتسخيرها لخدمة مصالحها في الشرق الأوسط، خاصة وأنّ صهاينة تونس مدعوون عاجلا أو آجلا للهجرة إلى فلسطين. إنّنا نلمس ذلك في الموقت الّذي اتخذه المراقب المدني المسؤول عن شؤون السكان المحليين من الصهيوني (MAURICE MESSECA) موريس مسيكا الّذي جاء إلى تونس في أواخر 1931 للدعاية لتنظيم سفارادي تكون آنذاك بباريس[44] : " ... إنّ ما تجدر الإشارة إليه هو أنّ التجمعات السفاراديّة المتناثرة على طول سواحل البحر الأبيض المتوسّط ما انكفت على إمتداد الخمسين سنة الأخيرة تنهل، بتوجيه من الرابطة اليهوديّة العالميّة، من الثقافة الفرنسيّة وتتشرب بتأثيرها وحضارتها، وهي شغوفة، كما هو بارز للعيان، بفرنسا وبمثلها. وإنّنا لا نجانب الصّواب إذا قلنا أنّ الكنفدراليّة السفارديّة ليهود باريس لن تقصّر، متى طلبنا منها ذلك، فى خدمة مخطّطاتنا السياسيّة ومصالحنا في فلسطين أو خارجها". أمّا المقيم العام الفرنسي في تونس، فانّه يقول في تقرير حول نفس الموضوع[45] : " ... إنّ السماح للحركة السفارديّة ليهود باريس بالدعاية، معناه العمل على تثبيت أفكار تتناقض والهدف الّذي رسمته حكومة الحماية لنفسها، والمتمثّل في جلب أكبر عدد من اليهودللحضارة

الفرنسيّة عن طريق التجنيس. يجب أن نعمل على تدعيم التفاف اليهود حولنا و "تفرنس" أكثر ما يمكن منهم، لا أن نشجع حركة إنعتاق يهوديّة تدور في فلك الصهيونيّة، ونعمق بالتالي الشعور القومي لدى هؤلاء اليهود". أمّا عن الموقف من الطلبة اليهود بالقسم الفلاحي بالمعهد العلوي، المصممين على الهجرة إلى فلسطين، فان مدير الداخليّة يقول في تقرير له بتاريخ 27 أكتوبر 1933[46] : " ... إنّ إدارة الحماية لا يمكن لها في هذه الظّرف تشجيع حركة من هذا النوع، لكنّها ليست قادرة كذلك على التصدي لها بسهولة".

4) مواقف الحركات السياسية في تونس من الصهيونية في بداية الثلاثينات :

إنّ الحركة السياسيّة الّتي عبرت عن مواقفها من الحركة الصهيونيّة بشيء من الكثافة في بداية الثلاثينات هي حركة الاشتراكيين الديمقراطيين والحزب الحر الدستوري التونسي.

أ) الاشتراكيون الديمقراطيون :

إنّ الاشتراكيين الدّمقراطيين ما زالوا مصرين على موقفهم الجوهري القديم من الصهيونيّة، وهو الموقف الّذي يعتبر الصهيونيّة حركة "قوميّة" وبالتّالي رجعية، ويدعو تبعا لذلك يهود تونس إلى الإندماج في صلب الحضارة الفرنسيّة. إلاّ أنّ المعطى الّذي أصبح بارزا في بداية الثلاثينات هو أنّ الإشتراكيين الديمقراطيين أصبحوا يرون أنّ هناك حلّين ممكنين "للمشكلة اليهوديّة التونسيّة" : الحل الأمثل والحل المثالي. فالحل الأمثل، هو على الاطلاق انصهار اليهود في بوتقة الحضارة الفرنسيّة، أمّا الحلّ المثالي، فيمر بالضرورة عبر الصهيونيّة، لكن عبر أكثر اتجاهاتها "تقدميّة". إنّ الصهيونيّة "التقدميّة" بالنسبة لديران انغليفيال (DURAN ANGLIVIEL)، وهو من أبرز عناصر الحركة الاشتراكيّة الديمقراطيّة، هي الصهيونيّة الخيريّة. أمّا بالنّسبة لبعض الاشتراكيّين الديمقراطيّين الآخرين، فهي الصهيونيّة "الاشتراكيّة". وقد فتحت جريدة

(LE HALOUTZ) (الرائد) أعمدتها لبعض الاشتراكيين الديمقراطيّين. ومن باب المثال لا الحصر، فقد كتب روبار مارساي (ROBERT MERCIER)، العضو في اللجنة القوميّة للشّبيبة الاشتراكيّة مقالا في هذه الجريدة بتاريخ 21 أفريل 1933 يعرب فيه عن تعاطفه مع الصهيونيّة "العماليّة" واستفظاعه للصهيونيّة التنقيحيّة. كما أنّ جريدة LE REVEIL JUIF (اليقظة اليهوديّة) بتاريخ 13 جانفي 1933 أوردت استجوابا لأحد العناصر القاعديّة في حركة الاشتراكيين الديمقراطيين يقول فيه : " ... إنني أكن كثيرا من التعاطف للصهاينة العماليّين الّذين يريدون بناء دولة بكد أيديهم وفي كنف الوئام. لكنني أعادي بلا هوادة التنقيحيين وزعيمهم جابوتنسكي الّذين يريدون غزو فلسطين بالقوة وبدون أيّ اعتبار للمبادئ السلمية".

ب) الحزب الحر الدستوري التونسي :

أما الحزب الحر الدستوري التونسي، فقد بذل نشاطا حثيثا ضدّ الصهيونيّة، إذ احتج لدى عصبة الأمم على المساندة السافرة التي قدمتها سلطات "الانتداب" البريطاني للصهاينة في فلسطين إبّان انتفاضة البراق في أوت 1929. كما أنّه أحيى يوم 17 جوان 1931 الذكرى الأولى لإعدام الانقليز للفلسطينيين الثلاثة : عطاء الزير، محمد جمجوم وفؤاد حجازي الذين حوكموا إثر انتفاضة البراق[47]. وقد اضطلع عبد العزيز الثعالبي، مؤسس هذا الحزب ورئيسه بدور كبير في المؤتمر الاسلامي الذي انعقد ببيت المقدس في شهر ديسمبر 1931. وقد شنّ الشاذلي خير الله، صاحب جريدة LA VOIX DU TUNISIEN (صوت التونسي) الذي كان آنذاك أحد أعضاء هذا الحزب، حملة صحفية عنيفة، بعد أن شاع الخبر المزلزل الذي مفاده أن فلاديمير جابوتنسكي سيزور تونس. وقد عاضدته الجرائد الأخرى المتعاطفة مع الحزب مثل الوزير والزهرة ولسان الشعب. وقد عبأ الحزب مناضليه للتصدي لهذه الزيارة، مما ألجأ السلطات الفرنسيّة إلى الإعلان عن إلغائها. إلاّ أنّ الحزب ظنّ أنّها خدعة، فأصدر الأوامر لمئات

من مناضليه بالمرابطة بميناء حلق الوادي يوم 17 مارس 1932، والتأكد من أنّ الباخرة قريفي (GRÉVY) التي ستحل مساء ذلك اليوم لا تحمل على متنها جابوتنسكي. وقد استجاب مناضلوه للنداء. ولمّا تيقنوا أنّ قرار إلغاء الزيارة لم يكن خدعة، قاموا ليلا بمظاهرة سليمة في شوارع تونس، ورددوا شعارات مساندة للزعيم الفلسطيني الحاج أمين الحسيني وللباي الذي يبدو أنه عارض الزيارة(48). إنّ هذه المظاهرة، بالرغم من أنّ أغلبية الذين شاركوا فيها لا يفرقون بين الصهيونيّة واليهوديّة تعتبر حدثا بالغ الأهميّة، لأنّها تمثل أول تحرك جماهيري بملء معنى الكلمة في تونس ضدّ الصهيونيّة. وقد قام الشاذلي خير الله في بداية جوان من نفس السنة بتعبئة دعائية ثانية لاجبار السلطات الفرنسية على إلغاء محاضرة كان من المقرر أن يلقيها بتونس يوم 11 جوان 1932 لويز هالبان المشار إليه آنفا. وقد احتشد جمع غفير من المتظاهرين أمام القاعة التي خصصت للمحاضر الصهيوني، فلم تجد السلطات الفرنسيّة بدأ من الانصياع لارادة المتظاهرين. ويشير أحد تقارير المباحث إلى وقوع هرج خفيف في ماطر يوم 5 جوان من نفس السنة بسبب حلول أحد صهاينة تونس بهذه البلدة لإلقاء محاضرة(49). وقد تهاطلت البرقيات على مدير جريدة LA VOIX DU TUNISIEN (صوت التونسي) من عدّة شخصيات ومؤسسات سياسيّة فلسطينيّة مثل الحاج أمين الحسيني واللجنة التنفيذيّة للمؤتمر العربي في فلسطين والجمعيّة المحمديّة بحيفا(50)، وذلك للإشادة بموقفه الحازم ضدّ الصهيونيّة. ونشير هنا إلى أننا قد عثرنا في الوثائق على رسالة *مؤرخة في 5 أكتوبر 1927 كان أرسلها عبد الحميد سعيد رئيس جمعية "الشبان المسلمين" المصرية إلى باي تونس يطلب فيها منه المساندة للقضية الفلسطينيّة*(51).

من مواقف الحزب أيضا حسب أحد تقارير المباحث(52) أنّه نادى في أواخر جوان 1932 بمقاطعة التجار اليهود لردعهم عن ممارسة الربا ومساندة الحركة الصهيونيّة. وهناك مسألتان لا بدّ من وضعهما في الاعتبار لكي نفهم التجاوب الجماهيري الذي

لقيته نداءات الحزب ضد الصهاينة، هما : تضرر السكان المسلمين من الربا اليهودي، وسخطهم على اصرار اليهود على المطالبة بالجنسيّة الفرنسيّة. أمّا حول مفهوم الحزب للصهيونيّة، فانّه كان من موقع اسلامي بحت، وهذا ما يفسر خلطه بين اليهوديّة والصهيونيّة. فالحركة الصهيونيّة بالنسبة له موجهة ضدّ كل مسلمي المعمورة، والفلسطينيون هم بالنسبة له مسلمون قبل أن يكونوا عربا. إلاّ أنّ المسألة التي يجب التركيز عليها هي أن هذا الحزب يعتبر أوّل حركة سياسيّة في تونس استطاعت أن تشدّ انتباه فئات عريضة من السكان المسلمين إلى ما يقوم به صهاينة تونس من نشاط، بعد أن كان أغلب هؤلاء المسلمين يجهلون حتى وجودهم أو يستخفون بخطورتهم.

إنّ العناصر الوحيدة المنتمية إلى هذه الحزب التي لم تكن تركز على الجانب الديني في معارضتها للصهيونيّة، هي العناصر المثقفة ثقافة فرنسيّة، وهي نفسها التي ستشكّل بداية من مارس 1934 الحزب الحر الدستوري الجديد الذي سيضطلع بدور قيادي في حركة التحرير الوطني التونسيّة بداية من أواخر ثلاثينات القرن العشرين.

إنّ وضع الضعف النسبي الذي لم تتمكن الحركة الصهيونيّة في تونس من تجاوزه بالرغم من ظهورها المبكر يعود أساسا إلى العامل الموضوعي المتمثل في غياب "مشكلة يهوديّة" في تونس. إلاّ أنّ الاقرار بغياب "مشكلة يهودية" بالبلاد لا يعني البتة أن اليهود لم ينلهم أي اضطهاد، لكن الملاحظ هو أن هذا الاضطهاد لا يستحق الذكر بالقياس إلى ما عاناه اليهود في بلدان أخرى من مذابح ومآس في بلدان أوروبا الشرقيّة والوسطى. إننا نكرر من جديد أن الاضطهاد الذي سلطته بعض الفئات المسلمة في تونس على بعض الفئات من اليهود كان محدودا جداً. ومن اليهود من تعلق بهم التونسيّون "المسلمون" أيّما تعلق، فقد أحبّ التونسيّون "المسلمون" المغنية والممثلة اليهوديّة التونسيّة حبيبة مسّيكة حبًا لا يُوصف. وقد نظموا لها جنازة حاشدة غداة موتها يوم 23 فيفري 1930 من أعظم الجنازات التي عرفتها تونس في القرن العشرين.

المصادر والمراجع والحواشي

***

1) ج TUNIS SOCIALISTE ليوم 2 فيفري 1931

2) انظر على سبيل المثال - إكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي معهد الاستشراق : تاريخ الأقطار العربية المعاصر (1917 - 1970) الجزء الثاني (الفصل المتعلّق بتونس)، دار التقدم، موسكو 1976، ص 271.

ANNABI (H.) : **La crise de 1929 et ses conséquences en Tunisie**, mémoire de maitrise d'Histoire, Faculté des lettres de Tunis, 1974-75.

3) و ع ح ت، ص 13 م 43 و 66 الحركة الوطنية

4) و ع ح ت، ص 13 م 43 و 101 الحركة الوطنية

5) و ع ح ت، س E ص 13 م 42 و - غير مرقمة

6) قداش (محفوظ) : حوادث قسنطينة (أغسطس 1934) "مجلة تاريخ وحضارة المغرب" العدد 12، الجزائر، ديسمبر 1974

7) و ع ح ت، س E ص 550، م 16 و - غير مرقمة

8) HADRIA (E.C.) : Du protectorat... المصدر المذكور سابقا ص 111 و 112

9) MARX (K.) : **LE CAPITAL**, Livre 3

10) TLILI (R.) : **Préliminaires à l'étude du syndicalime patronal en Tunisie**, thèse de 3ème cycle en documentation, Paris, 1977.

11) SEBAG (P.) : **La Tunisie, essai de monographie**, E. Sociales, Paris 1951.

12) BSENEIH (M.):**Les juifs de l'Afrique du nord:démographie et onomastique**,Alger, 1936.

13) المدني (أحمد توفيق) : المصدر المذكور سابقا ص 53

14) ج TEL AVIV ليوم 31 جويلية 1936

15) ج L'AURORE ليوم 27 أكتوبر 1933

16) ج L'AURORE ليوم 15 سبتمبر 1933

17) BENSIMON-DONATH(D.): ... المصدر المذكور سابقا ص 556

18) ج LE REVEIL JUIF ليوم 28 جويلية 1933

19) ج LA VOIX D'ISRAEL ليوم 25 جوان 1920

20) و ع ح ت، س E ص 504 م 24 و - غير مرقمة ولا تحمل تاريخا

21) ج LE REVEIL JUIF ليوم 6 جانفي 1933

22) ج LA SEMAINE JUIVE ليوم 21 أفريل 1939

23) ج LE REVEIL JUIF ليوم 17 فيفري 1933

24) غابريال آلا بتيت (GABRIEL ALAPETITE) : مقيم عام فرنسي بتونس من 1906 إلى 1917

25) ج LE REVEIL JUIF

26) CHOURAQUI (A.) : **Marche vers l'occident : Les juifs d'Afrique du nord** P.U.F., Paris, 1952, pp 119, 120.

27) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و - 86

28) ج LE REVEIL JUIF ليوم 28 جويلية 1933

29) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و - 61

30) ج LA KADIMA ليوم 5 ديسمبر 1933

31) ج LE REVEIL JUIF ليوم 21 جويلية 1933

32) ج LE REVEIL JUIF ليوم 21 جويلية 1933

33) BIJAOUI (F.) : **Où va le sionisme ?**, Tunis 1934.

34) ج LE REVEIL JUIF ليوم 30 سبتمبر 1932

35) MAAREK (H.) : **L'université hébraïque de Jérusalem**, Edition du "Réveil Juif", Sfax, 1925.

36) ج TELAVIV ليوم 29 أكتوبر 1936

37) ج L'EGALITE ليوم 18 أفريل 1932

38) ج LE HALOUTZ ليوم 15 فيفري 1933

39) ج LE HALOUTZ ليومي 7 و 21 أفريل 1933

40) ج LE HALOUTZ ليوم 21 أفريل 1933

41) BENSIMON-DONATH(D.) ... المصدر المذكور سابقا ص 73

42) ج LAKADIMA ليوم 5 جانفي 1934

43) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و 78

44) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و 72

45) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و 69

46) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و 60

47) و ع ح ت، ص 13 م 43 و 59 الحركة الوطنية

48) انظر على سبيل المثال جريدة الوزير ليوم 31 مارس 1932.

49) و ع ح ت، ص 13 م 43 و 22 الحركة الوطنية.

50) ج LA VOIX DU TUNISIEN ليومي 29 و 30 ماي 1932.

51) و ع ح ت، س A ص 286 م 6 و 7.

52) و ع ح ت، ص 13 م 43 و 58 الحركة الوطنية.

الباب الثاني

***

الفصل الثاني

مرحلة الحفاظ على البقاء

(ماي 1936 - أفريل 1938)

لقد تقلصت جماهيرية الحركة الصهيونية في تونس كثيرا في هذه المرحلة، ويرجع ذلك بصفة رئيسية إلى ارتقاء "الجبهة الشعبية الفرنسية" إلى السلطة السياسية. وقد انقسم من جراء ذلك عدد كبير من الصهاينة الذين كانوا بالأمس القريب لهجين بصهيونيتهم إلى فريقين :

- فريق ضرب بقناعاته الصهيونية عرض الحائط، وانتهج سبيل الاشتراكية .

- وفريق انكفأ عن صهيونيته "اليمينية" واختار "أهون الشرين"، أي الصهيونية "الاشتراكية"، ناسجا بذلك على منوال اليهودي والمتصهين ليون بلوم (LEON BLUM) زعيم "الجبهة الشعبية الفرنسية" والعضو في الوكالة اليهودية الموسعة.

1) استلام الجبهة الشعبية الفرنسية للسلطة السياسية وتأثير ذلك في الحركة الصهيونية في تونس :

لقد أدت مضاعفات الأزمة الاقتصادية العالمية لسنة 1929 إلى توسيع رقعة حركات المعارضة في البلدان الامبريالية، فالتجأت الطبقات البرجوازية في بعض هذه البلدان إلى مصادرة الحريات الديموقراطية وانتهاج سياسة فاشية سافرة. والفاشية التي ظهرت في البلدان الامبريالية التي لا تملك نصيبا وافرا من المستعمرات، هي كما يعرفها جورجي ديميتروف الأمين العام للأمميّة الشيوعية الثالثة من 1935 إلى 1943: " ... ديكتاتورية ارهابية مكشوفة تمارسها عناصر رأس المال المالي (LE CAPITAL FINANCIER) الموغلة في الرجعية و الشوفينية والامبريالية"[1] . وقد بدأت قيادات الطبقات البرجوازية في كل من ألمانيا وايطاليا واليابان تعد العدة لشن حرب عالمية جديدة، بهدف اعادة اقتسام العالم وضرب الاتحاد السوفياتي، موطن الاشتراكية آنذاك. وقد ارتأى المؤتمر السابع للأممية الشيوعية الثالثة (أوت 1935) أن العدو الرئيسي للثورة في ظل الظروف الدولية الجديدة أصبح يتمثل في الطبقات البرجوازية الفاشية، في حين تتحول الطبقات البرجوازية المناهضة للفاشية إلى عدو

ثانوي يمكن التحالف التكتيكي معه. وطرح تبعاالذلك على كل الأحزاب الشيوعية مهمة توحيد صفوف الطبقات العاملة في بلدانها، واقامة جبهات شعبية عريضة تضم كافة القوى الديمقراطية والوطنية المعادية للفاشية. وفي هذا الاتجاه، استطاعت "الجبهة الشعبية الفرنسية" التي كان الحزب الشيوعي الفرنسي عضوا رئيسيا فيها، الانتصار في انتخابات ماي 1936، والارتقاء إلى سدة السلطة السياسية. وقد كان لهذا الحدث السياسي المدوي انعكاس سلبي كاسح على الحركة الصهيونية في تونس، اذ ارتد عدد كبير من الصهاينة عن الصهيونية، كما تقلص كثيرا عدد المتعاطفين معها. ففي نابل على سبيل المثال، انحلّت كل التنظيمات الصهيونية، وأعلنت عن دخولها في الاشتراكية باستثناء تنظيم واحد هو تنظيم "بار كوخبا" (BAR COKHBA) التنقيحي. ويقول أحد أعضاء هذا التنظيم عن الوضع الجديد الذي آلت اليه الحركة الصهيونية في هذه المدينة : " ... لقد كانت الصهيونية إلى عهد قريب، جد مزدهرة في بلدتنا. كما أننا نعتبر من خيرة ما أنجبت الحركة الصهيونية التونسية. لكن منذ حلول الجبهة الشعبية، انقلب الوضع رأسا على عقب، وأصبح شبابنا منساقا بصفة تكاد تكون لا شعورية نحو أحزاب اليسار. هذا الشباب الذي كان بالأمس القريب شديد الغيرة على المبادئ الهرتزلية، أصبح اليوم من الأشياع المتعصبين "للديانة الماركسية"التي لا يفقه منها، ولو ذرة واحدة"[2]. ويجيبه أحد "المرتدين" قائلا : " ... انني لا أقول أن التأليف بين الصهيونية والاشتراكية أمر غير ممكن. أو ليس ليون بلوم مثالا صارخا على ذلك ؟ ان رأس الحربة يجب أن يصوب نحو الصهيونية الفاشية، أي التنقيحية التي تطبل وتهلل للتحركات الهتلرية، زاعمة أن الحل الذي يستوجبه الوضع هو انشاء وطن قومي لليهود"[3].

2) الفاشية العالمية والمحلية وانعكاساتها على اليهود والصهاينة في تونس:

لقد صب الفاشيون المتواجدون في تونس، من فرنسيين وايطاليين، حممهم

الدعائية ضد اليهود، ولم يألوا جهدا لعزلهم عن بقية المتساكنين في تونس.

أ) الفاشيون الفرنسيون :

لقد ركزت الأحزاب والتنظيمات الفاشية التي كانت آنذاك متواجدة بفرنسا فروعا لها بتونس مثل الاتحاد العسكري الفرنسي (L'UNION MILITAIRE FRANCAISE) والتجمع الفرنسي (RALLIEMENT FRANCAIS) وخاصة الحزب الشعبي الفرنسي (PARTI POPULAIRE FRANCAIS)، وأوفدت إلى تونس عددا من عناصرها القيادية البارزة، نذكر منها على الأخص كازيمير دي لاروك (CASIMIR DE LA ROCQUE) مؤسس الحزب الاجتماعي الفرنسي ورئيسه الذي زار تونس مرتين، الأولى في جوان 1937 والثانية في جانفي 1939[4]، وكذلك لا كو لو ستونو (LACAU LOUSTAUNAU) رئيس الاتحاد العسكري الفرنسي الذي زار تونس في ديسمبر 1938[5]. وقد تفوق الحزب الشعبي الفرنسي على منافسيه في عملية استقطاب الأنصار في صفوف الجالية الفرنسية في تونس[6]. وقد كانت لهذا الحزب جريدة أسبوعية تنطق باسمه هي LE REVEIL NATIONAL (اليقظة القومية) التي كانت تسمي نفسها "الجريدة الأسبوعية لفرنسيي تونس المعادين للماركسية"، وقد بدأت تصدر منذ 18 نوفمبر 1938. وقد روج الفاشيون في تونس جريدة JE SUIS PARTOUT (أنا في كل مكان) اللاسامية التي كانت تصدر آنذاك بباريس. وقد لقيت الدعاية الفاشية تأييدا وتعاطفا لا يستهان بهما في أوساط الجالية الفرنسية، ولم تجد معارضة ألا من جانب أقلية من اليساريين. ان الجالية الفرنسية في أغلبها كانت ترى في "الجبهة الشعبية" التي تلوح بشعار "حق الشعوب في تقرير مصيرها" خطرا على مصالحها. وكان عدد الحاضرين في الاجتماعات التي تدعو اليها التنظيمات الفاشية مرتفعا. وقد قدّر أحد تقارير المباحث عدد الفرنسيين الذين لبوا نداء الاجتماع الذي دعا اليه الحزب الاجتماعي الفرنسي يوم 30 ماي 1937 في تونس العاصمة بـ 1500

شخص[7]. وقد أصبحت أهم مدن البلاد وخاصة العاصمة تونس، مسرحا للاشتباكات العنيفة بين الفاشيين من جهة واليهود واليساريين (من شيوعيين واشتراكيين ديمقراطيين وراديكاليين اشتراكيين) من جهة ثانية، وتكاثرت مظاهرات "استعراض العضلات" التي كان ينظمها كل طرف.

أما دعاية الفاشيين ضد اليهود في تونس، فقد تمحورت حول النقاط التالية :

- دعوى أن اليهود ليسوا مجرد أتباع لدين إسمه اليهودية، بل يشكلون عرقا وأمة في آن واحد.

- دعوى أن النفوذ اليهود متأت من تحكمهم في القطاع البنكي غير المنتج، ومن تعاطيهم للربا.

- دعوى أن كل اليهود شيوعيون، إما جهرا أوخفاء وتقية، وأنّهم يسعون للسيطرة على العالم وفق الخطة التي رسموها في "بروتوكولات حكماء آل صهيون"[8] (وهو السّفر المزيّف الذي روّجه البوليس القيصري الروسي).

وهذه بعض المقتطفات من كتاباتهم الصحفية وتدخلاتهم الخطابية في الاجتماعات العامة[9]:

" ... نحن نعارض اليهود لأنهم ماركسيون، أي أعداء لفرنسا"

" ... لليهود الحق في التعلق بجنسهم، لكن عليهم أن يكونوا فرنسيين قبل كل شيء"

" ... ان اليهود أكثر عنصرية من أي شعب، وهذه جبلة كامنة فيهم"

" ... ان اليهود، أيا كانوا، يتعاطون السياسة الآن. وهم نظرا لنفوذهم البنكي وتواجد الكثير منهم في السلطة، يريدون بلا استحياء، اغتصاب حق تسيير فرنسا. اننا لا ندعي أنهم ليسوا فرنسيين، لكننا نعتقد أنهم ليسوا فرنسيين بنفس القدر مثلنا"

" ... ان البنك العالمي اليهودي وظف المليارات في خدمة الثورة البلشفية"

لقد كيف الفاشيون دعايتهم على الواقع الخصوصي لفرنسيي تونس، فركزوا خاصة على فكرة أن اليهودية والشيوعية حقيقتان مترادفتان، وذلك لأن فرنسيي تونس بصفتهم يمثلون جالية تعيش من استغلال الشعب التونسي كانوا حساسين لشعار "حق الشعوب في تقرير مصيرها" الذي يقترن في أذهانهم بكلمة شيوعي. أما مسألة الربا، فان الدعاة الفاشيين، ما كانوا يعترضون لها الا نادرا، وذلك لأن فرنسيي تونس كانوا بمنأى عن الممارسات الربوية اليهودية. أما في فرنسا، فقد وقع التركيز على الربا اليهودي، لأن البرجوازية الصغيرة الفرنسية التي تمثل قاعدة اجتماعية رئيسية للفاشيّة قد تضررت في ظروف أزمة 1929 الاقتصادية من المرابين والمصرفيين اليهود، ولقيت كذلك منافسة من قبل اليهود الوافدين على فرنسا آنذاك من أوروبا الوسطى والشرقية. أما عن موقف الفاشيين من الصهيونية، فقد عارضوها بشدة، لكن من موقع عنصري موغل في الرجعية، فهم يعتبرون الصهيونية حلقة من حلقات التآمر اليهودي الذي يستهدف السيطرة على العالم وفق مخطط "بروتوكولات حكماء آل صهيون" (المزيف)، وبالتالي فليس ثمة في نظرهم فرق بين اليهودية والصهيونية. وفي هذا المعنى، تقول جريدة LE REVEIL NATIONAL (اليقظة القومية) في عددها الصادر يوم 28 - 2 - 1938 : " ... ان ما يقوم به المتنسكون والملحدون اليهود من عمل دائم التناسق، لتحقيق حلمهم الماشيحاني في الهيمنة على العالم، سيتعزز بصفة مهولة بهذه العودة إلى فلسطين. وسنكون آنذاك أمام شبه دولة غريبة يكون رأسها في صهيون، وملايين لا مساتها مندسة في بقية أرجاء العالم. ان حلا من هذا القبيل، يجب أن يقع رفضه بلا هوادة وبكل شدة".

ان الفاشيين الفرنسيين باستفظاعهم للصهيونية، كان بامكانهم الحصول على عطف المسلمين في تونس، الا أن العداء المحموم الذي يكنّونه لحركة التحرير الوطني التونسية تجعل من ذلك أمرا عسيرا جدا.

ب) الفاشيون الايطاليون :

أما الفاشيون الايطاليون في تونس، فقد بذلوا نشاطا بلغ حد الهوس والغطرسة. فموسيليني، بصفته ممثلا لامبريالية فتية تسعى إلى الاستفادة القصوى من اعادة اقتسام العالم، كان يخطط في الخفاء للسيطرة على تونس. وقد عمل كل ما في وسعه لجلب الجالية الايطالية إلى الفاشية عن طريق أجهزته الدعائية، وذلك لكي يسهل عليه استعمالها في اللّحظة المناسبة كجسر يعبر فوقه "لاعادة تونس الرومانية إلى حظيرة الوطن الأم". وقد تمثلت قنوات الدعاية الفاشية في تونس في القنصلية الايطالية بتونس، والمركز الثقافي الايطالي المعروف باسم الدانتي أليغياري (LA DANTE ALIGHIERI) وجريدتي كوكدي (COCCODE) الهزيلة وخاصة (L'UNIONE) (الوحدة)، لسان حال الحجرة التجارية الايطالية منذ 1885 التي تحولت إلى بوق فاشي. أما اذاعة باري (BARI) التي كانت تذيع برامج باللّغة العربية، فانها كانت تعمل على تأليب السكان المسلمين في تونس على فرنسا.

وقد استطاعت الدعاية الفاشية بشعاراتها الديماغوجية أن تهيمن على كل اليهود "الغرانة" تقريبا (وأغلبهم من اليهود الايطاليين)، إلى درجة أنهم أصبحوا لا يتورعون عن التبجح بفاشيتهم. ومن مظاهر هذا التبجح، وضع الخواتم الحديدية في الأصابع، وتعليق الرموز الفاشية على الملابس[10]. وكانوا يعتقدون عن سذاجة أن الخط الذي يسير فيه موسيليني هو خط غاريبالدي (GARIBALDI) وكافور والملك فيكتور ايمانويل،أبطال الوحدة الايطالية في القرن 19.

ولم تنحصر التحركات الفاشية الايطالية في دائرة الدعاية، بل تعدتها إلى التصفية الجسدية. ففي يوم 2 سبتمبر 1937، وقع اغتيال العامل الشيوعي الايطالي غيساب ميسلي (GUISEPPE MICELLI) أمين مال نقابة البناء، في مقر منظمة "الاتحاد الديمقراطي الايطالي" المناهضة للفاشية، من قبل عصابة قتلة نزلت من الباخرة الايطالية أمريقو فيسبوتشي (AMERIGO VESPUCCI) التي كانت راسية آنذاك بميناء حلق الوادي.

وبدأت الشكوك تساور اليهود الايطاليين في نوايا موسيليني، حين بدأ "الدوتشي" يتحرك في اتجاه التقارب مع ألمانيا "اللاسامية". وقد أرسل موسيليني إلى تونس في أواخر ديسمبر 1937 الباخرة سارة 1 (SARA 1) وهي من ممتلكات المنظمة الصهيونية التنقيحية بيتار (BETAR)، وتحمل على متنها عددا من الطلبة اليهود الذين كانوا يزاولون تعليمهم بالقسم اليهودي بالمدرسة البحرية الايطالية بسيفيتا فيكيا (CIVITA VECCHIA). وكان موسيليني يهدف من وراء عملية سارا 1 (SARA 1) إلى تحقيق الغايتين التاليتين :

أولا : اقناع اليهود الايطاليين في تونس بأن تقاربه مع ألمانيا اللاسامية لا يعني بالضرورة اعتناقه لوجهة النظر النازية المعادية لليهود.

ثانيا : اظهار الفاشية الايطالية في مظهر المؤيد معنويا، وخاصة ماديا، للقضية الصهيونية، أو بالأحرى للقضية اليهودية بلغة القواميس الفاشية[11].

لكن سياسة التمويه ما كان بامكانها أن تدوم طويلا، اذ سرعان ما أسقطت الفاشية الايطالية الأقنعة التي كانت تنسدل على وجهها، وأخذت تسن القوانين المعادية لليهود الواحد تلو الآخر، ثم توّجت ذلك بتنظيم سلسلة من "البوغرومات" (POGROMS) من الطراز الروسي القيصري في خريف 1938 في ايطاليا ذاتها. وقد كانت ردة فعل اليهود الايطاليين بتونس، كمن أفاق من ذهول المصعوق، فانقلب عدد كبير منهم ضد الفاشية التي استلت من عقولهم بالأمس القريب كل خلية تفكير. وقد دفعت مرارة الخيبة ببعض اليهود البرجوازيين الايطاليين إلى الانضمام إلى طابور المترشحين للحصول على الجنسية الفرنسية[12]، خاصة بعد أن أصبحوا متيقنين بأن أيام الجبهة الشعبية "المعادية" للبرجوازية أصبحت معدودة، كما أنّ شبح تحول البرجوازية الفرنسية إلى فاشية قد ولى نهائيا.

أما صغار البرجوازيين من اليهود الايطاليين، فقد هرع عدد لا يستهان به منهم

للانضمام إلى صفوف الحزب الشيوعي التونسي وحركة الاشتراكيين الديمقراطيين. وقد التحق كذلك بفعل تفاقم الخطر الفاشي عدد كبير نسبيا من صغار برجوازيي طائفة "التوانسة" بهذين التنظيمين. وقد قفز عدد المنخرطين في حركة الاشتراكيين الديمقراطيين من 150 نفرا تقريبا سنة 1925 إلى 800 نفر تقريبا سنة 1939. أما عدد أعضاء الحزب الشيوعي، فقد ارتفع هو بدوره من بعض العشرات فقط في العشرينات إلى عدة مآت سنة 1939[13].

وبدأت قطاعات عريضة من اليهود تشعر بأن انقسام يهود تونس إلى طائفتين لم يعد له ما يبرره في ظرف كشفت فيه قيادات البرجوازيات الفاشية عن مخططاتها الإباديّة تجاه اليهود. أما العوامل الأخرى التي كانت تضغط في اتجاه تعزيز النزعة الوحدوية في صفوف اليهود فهي :

- انتشار التعليم في صفوف "التوانسة"، وتطبع العديد منهم بعادات الفرنسيين جعل "الغرانة" يطرحون جانبا مركبات الاستعلاء التي كانوا يكنونها للذين كانوا يعتبرونهم بالأمس "ظلاميين" وجهلة. ولعل أحسن مؤشر على تردم الهوة الحضارية بين الطائفتين هو تكاثر عدد الزيجات المشتركة.

- تناقص "الغرانة" العددي الناتج أساسا عن ضمور نسبة الولادات في صفوفهم، جعلتهم يشعرون بالضعف ازاء طائفة "التوانسة" التي ما انفكت صفوفها تتضخم، كما تبين ذلك الأرقام التقريبيّة التالية[14] :

السنة	مجموع "الغرانة"	مجموع "التوانسة"
1903	10.000	بين 45.000 و 50.000
1931	3.000	80.000 على الأقل
1938	5.000	90.000 على الأقل

وقد وقع تحقيق بعض الخطوات على طريق الوحدة بين الطائفتين نذكر منها[15]:

- اختيار "غرني"لمنصب رئيس مجلس الطائفة بعد الانتخابات الخاصة بذلك المجلس سنة 1937.

- تبادل الملاحظين في الاجتماعات التي كانت تعقدها كل طائفة. ونشير هنا إلى أنه، علاوة على مجلس الطائفة - وهو الجهاز التمثيلي القانوني - الذي يضم كما هو معروف ممثلين عن الطائفتين،فقد احتفظت كل طائفة بجهازها التمثيلي الخاص بالرغم من عدم شرعيته من وجهة نظر القانون.

- توحيد مصلحة اغاثة الفقراء بعد أن كانت منقسمة إلى جهازين. وقد حاولت السلطات الفرنسية عرقلة هذه المسيرة الاندماجية انطلاقا من مبدأ "فرق تسد"، الا أن العمل الوحدوي ظل، رغم ما لقيه من صعوبات، يتقدم بثبات.

وقد دفع الخطر الفاشي كذلك بيهود تونس إلى الخروج من عزلتهم الاقليمية، والارتباط ببقية يهود العالم لا بصفة عرضية كما كانت الحال من قبل، بل بصفة دائمة. وقد أرسلت الطائفة اليهودية من يمثلها في الجلسة الأولى والثانية للمؤتمر اليهودي العالمي اللتين انعقدتا في جينيف سنتي 1936 و 1937. والمؤتمر اليهودي العالمي هو منظمة عالمية تضم نوابا عن كل الجاليات اليهودية في العالم، تأسست سنة 1934 بهدف الدفاع عن حقوق اليهود، وهي خاضعة لنفوذ المنظمة الصهيونية العالمية وتأتمر بأوامرها. وقد شاركت الطائفة اليهودية التونسيّة كذلك في أعمال المؤتمر الثاني لليهود السفاراديم الذي انعقد في أمستردام في ماي 1938. وقد قدح الصهاينة التنقيحيون عن طريق صحفهم في تمثيلية من أوفدتهم الطائفة اليهودية لهذه المؤتمرات الدولية بدعوى أنهم لا يمثلون "القوى الحية للطائفة اليهودية" (أي الصهاينة والصهاينة التنقيحيين على وجه التدقيق)[16]. وقد أرسلوا إلى الجلسة

الأولى للمؤتمر اليهودي العالمي ملاحظا عنهم هو إلي سيتبون (ELIE SCITBON).

وقد تلقى فقراء الطائفة اليهودية التونسية في أواسط 1938 إعانة نقدية من الطائفة السفارادية بجينيف قيمتها 350 فرنكا، وذلك في إطار تعزيز الأواصر بين يهود تونس وبقية يهود العالم(17).

3) الانتفاضة العربية الكبرى في فلسطين وانعكاساتها على الحركة الصهيونية بتونس:

ان الحركة الصهيونية، ممثلة في المنظمة الصهيونية العالميّة بمختلف فروعها وتنظيماتها، لم تستهو كثيرا يهود تونس في أواخر الثلاثينات، وذلك لأنها بدت لهم من الضعف بحيث لا يمكنها أن تحميهم من الفاشية، خاصة وأن الانتفاضة العربية الكبرى في فلسطين جعلتهم يميلون إلى الاعتقاد بأن أيام المستوطنات الصهيونية بفلسطين أصبحت معدودة. وقد أصبحت الأسئلة التالية تتردد على أفواههم : <<...أما زال هناك من يعمل بعد كل هذه القلاقل والاغتيالات ؟ أما زالت هناك مؤسسات ومستوطنات صهيونية ؟>>(18). وقد ذهبت جريدة LA SEMAINE JUIVE الصهيونية (الأسبوع اليهودي) إلى حد القول أنّ الصهيونيّة "التونسية" أصبحت "في حالة احتضار"(19). وقد أخذ الصهاينة الذين بقوا متشبثين بصهيونيتهم يتحركون بكل حذر، وذلك لكي لا يجلبوا لأنفسهم وبال مجابهة محتملة مع المسلمين، خاصة وأن هؤلاء كانوا آنذاك يتابعون بكل تلهف أخبار الانتفاضة الفلسطينية الكبرى.وقد أصبحت الجرائد الصهيونيّة تتملّق رضا "الأخوة الساميين"، وتحاول اظهار الصهيونيّة في مظهر الحركة المعاديّة للامبريالية والعاملة على نشر السلام والمحبة والنعيم في فلسطين. ولعل أفصح مثال على ذلك ما أوردته جريدة LA SEMAINE JUIVE (الأسبوع اليهودي) في عددها الصادر يوم 18 فيفري 1938 حيث تقول : << ... لقد كان الرواد الأوائل، لخمسين سنة خلت، شبه واثقين من أن اخوانهم العرب سيستقبلونهم بكل عطف.ولم

يخب ظنهم، لأنّ هؤلاء فهموا بحسهم أنّ الاستيطان اليهودي في تلك الربوع سيعود عليهم لا بالضرر وإنما بالنفع الجزيل. لكن، منذ الحرب الكبرى، أصبح العربي مرتابا، ومنبع ريبته الفكرة القائلة بأن اليهودي أداة يستخدمها الامبرياليون الأوروبيون للسيطرة عليه، وهذه هي الحجة التي تتذرع بها المعارضة العربية. ان ما لا يتسرب إليه شك أن اليهود متعاطفون مع العرب، ومرد ذلك وشائج القربى الدينيّة والعرقية التي تجمعهم.

لقد آلينا على أنفسنا أن نعلن، رفعا لأي التباس، أن الصهيونيّة ليست أداة في أيدي الامبريالية. ان الصهيونيّة غاية في حدّ ذاتها. وهي تهدف إلى تحقيق أماني كل الشعوب السامية بالطرق النزيهة والمشروعة. إنّ غايتها هي ضمان الحياة للعرق السامي أو بالأحرى إلى فصيله الذي بقي وفيا للتراث السامي، ورفض الذوبان في صلب الشعوب التي عاش بين ظهرانيها. إن اليهود والعرب اخوة، وبالتّالي، فانّ بامكانهم العيش في وفاق. لقد كانت فلسطين ملكا لليهود في الماضي، وهؤلاء، لم تفقدهم سنوات الشّتات، الأمل في العودة اليها يوما ما. لقد انتزع العرب هذه الأرض، منذ 13 قرنا، من أيدي الّذين اغتصبو ها منّا، وان من يمن طالعنا أن تركة أجدادنا لم تسقط في الأيادي الأجنبيّة".

ولم يقف الصهاينة العامّون عند حدّ ترطيب لهجة مقالاتهم الصحفية على غرار الصهاينة التنقيحيين، بل تعدوا ذلك إلى العمل على خلق ما أسموه بـ "رابطة الأخوة العربيّة اليهوديّة" بداية من أواخر 1936[20].

4) النشاط الصهيوني :

انعكس الوضع المترديّ للحركة الصهيونيّة، عالميا ومحليا، على المنظمة التنقيحيّة في تونس، فانسلخ عنها بعض أعضائها على اثر ارتقاء "الجبهة الشعبيّة الفرنسيّة" إلى السلطة، وانضموا إلى الحركة الصهيونيّة "اليسارية"، كما أن البعض

الآخر تخلى تماما عن الصهيونيّة. وقد أصبح التنقيحيون مبعثرين إلى حلقات عديدة. ونحن لا نعرف شيئا عن أسباب الفرقة بينهم، والأرجح أنها انعكاس مباشر للخلافات التي كانت تشق الحركة التنقيحيّة العالميّة آنذاك. تقول جريدة TEL AVIV (تل أبيب) في عددها الصادر يوم 31-7-1936: << ... ان الصهاينة التنقيحيين الميالين إلى الصراع والحركية، قد انغمسوا في التناحر فيما بينهم، بعد أن فقدوا كل معارضة. وقد ظهرت في صلبهم عدة تجمعات تنقيحية >>. إلا أنه بالرغم من هذه الخلافات، فان التنقيحيين ظلوا متمسكين بالمبادئ الجوهرية لحركتهم. ولو لا ذلك لما تمكنوا من المحافظة على تواجدهم على الساحة الصحفية بتونس، حيث أصدروا في الفترة بين 1936 و 1938 أربع جرائد، هي جريدة TEL AVIV الاسبوعية بداية من 7 - 6 - 1936 وجريدة LA NOUVELLE AURORE (الفجر الجديد) الاسبوعية بداية من 16 سبتمبر من نفس السنة، وجريدة LES CAHIERS DU BETAR الشهرية (كراسات بيتار) التي لا نعرف في أي شهر من سنة 1937 بدأت تصدر، وجريدة LA GAZETTE D'ISRAEL (جريدة اسرائيل) الاسبوعية التي صدرت بداية من 21 - 10 - 1938، والتي سيكون لها شأن كبير. وقد كشف التنقيحيون بصفة صارخة عن "يمينيتهم" المتطرفة حين أخذ بعضهم يطالب بدكتاتور صهيوني ليخرج الحركة الصهيونيّة من واقع التشتت الذي تردت فيه على المستويين المحلي والعالمي[21]. ان هذا الدكتاتور المنشود لا يمكن أن يكون إلاّ تنقيحيا على شاكلة فلا ديمير جابوتنسكي الذي قال عنه موسيليني في حديث له مع الحاخام براتو، << ... ان الوحيد الذي يفهم ذلك (متطلبات نجاح الصهيونيّة) هو فاشيكم جابوتنسكي[22] >>.

لقد كان التنقيحيون في تونس يهللون في صمت لصعود الفاشية، ويتلذذون في "مازوخية" بعذابات بني دينهم اليهود الرازحين آنذاك تحت الجزمات الفاشية. وهذا الموقف نابع من تصورهم أن الاضطهاد الفاشي سيدفع باليهود دفعا إلى الهجرة إلى

فلسطين.

لقد خصص التنقيحيون حيزا كبيرا من نشاطهم للقيام بدعاية مضادة لليساريين الذين استطاعوا أن يخرجوا من دائرة النفوذ الصهيوني عددا كبيرا من اليهود. أما الحجج التي كانوا يقارعونهم بها، فهي التالية[23]:

- ان الاشتراكية عاجزة على اجتثاث اللاسامية، وليس أدل على ذلك من اضطهاد البلاشفة الروس لكامينيف وزينوفياف وتروتسكي، لا لشئ إلا لأنهم يهود.

- ان المشروع الصهيوني الهادف إلى خلق دولة يهودية في فلسطين قابل للتحقيق، في حين يمثل المشروع الاشتراكي الرامي إلى خلق مجتمع بلا طبقات مشروعا طوباويا (UTOPIQUE) .

- ان تيار الهجرة إلى فلسطين أقوى بكثير من تيار الهجرة إلى البيروبدجان السوفياتي (وهو اقليم في شرق سيبيريا حاولت الحكومة السوفياتية بداية من سنة 1928 أن تحوله إلى منطقة سكانية يهوديّة تتوفر فيها لليهود امكانية الحفاظ على ذاتيتهم الثقافية في إطار اشتراكي).

- ان الفكرة القائلة بأن الصهيوني في فلسطين مضارب واحتكاري لا أساس لها من الصحة، لأن الصهيوني يشتري من العرب أراضيهم بأثمان باهظة جدا، ويدفع للعمال العرب أجورا أرفع بكثير من التي يدفعها نظيره العربي إلى عماله من بني جلدته.

- ان القول بافتقار التنقيحيين إلى برنامج اجتماعي هو محض افتراء، لأن تيودور هرتزل في كتابه "الدولة اليهودية" قد أورد العديد من المعطيات عن هذا البرنامج (يوم العمل بسبع ساعات، مراكز التمريض، دور الرياضة، ملاعب الأطفال).

- ان الصهيونيّة ليست حركة رجعية، والدليل أنها حولت فلسطين من صحراء قاحلة إلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار.

- انّ القول ان المشروع الصهيوني لن يتحقق لأن انقلترا لن تفرط في قاعدة

عسكرية استراتيجية مثل فلسطين، هو موقف ينم عن خفة في طرح القضية ليست بعيدة عن السطحية، لأن التنقيحيين، وان دأبوا دائما على مطالبة انقلترا باحترام ما قطعته على نفسها في وعد بلفور، فانهم لم يدعوا ولو للحظة واحدة أنهم يريدون قطع علاقات التعاون معها.

- ان تهمة الفاشية الموجهة للتنقيحيين ليست في محلها "لأن الصهاينة ليس بامكانهم وليس من صالحهم أن يكونوا فاشيين أو شيوعيين، بيضا أو حمرا. إنّ الصهاينة موالون لصهيون فحسب، وانه من باب وضع المحراث قبل امتلاك الثور أن يطرح شعب اسرائيل على نفسه من الآن مهمة الاختيار بين الديموقراطية والدكتاتورية، أو بين الملكية والجمهورية، وهو لم يلم بعد من شعث قوميته المبعثرة في جميع أنحاء العالم›› [24].

لقد واصل التنقيحيون العمل من أجل الظهور بمظهر المدافع المستميت عن المصالح المادية والمعنوية لكل اليهود بلا استثناء، وذلك في إطار سياستهم الرامية إلى احتواء الجالية اليهودية. ومن هذا المنطلق، حرصوا دائما عند صياغة برامجهم المطلبية الموجهة إلى السلطات الفرنسيّة على التوفيق بين المصالح المتناقضة لمختلف الشرائح والفئات اليهودية. ويظهر ذلك جليا في عريضة المطالب التي طرحوها إبان الزيارة التي قام بها بيار فيانو (PIERRE VIENNOT) نائب كاتب الدولة للخارجية الفرنسية إلى تونس في فيفري 1937، وهذه المطالب هي [25]:

- الاعتراف باليهود التونسيين بصفتهم مجموعة عرقية متميّزة، ومنحهم نفس الحقوق والضمانات التي يتمتع بها بقية السكان المحليين.

- تمثيلهم بالطرق الانتخابية في الجمعيات العامة والخاصة تمثيلا يتناسب ووزنهم العددي والاقتصادي.

- تسهيل تجنيسهم بالجنسية الفرنسية.

- فتح كل الوظائف العمومية أمامهم.

- حق التقاضي أمام المحاكم الفرنسية لمن يريد منهم ذلك.

- ضرورة تكفل الدولة باغاثة المعوزين منهم، مع احترام عاداتهم وتقاليدهم.

- ضرورة تكفل الدولة بتعليم الناشئة اليهود، وذلك ببناء مدارس عبرية فرنسية تدرس فيها - علاوة على ما هو مثبت ببرامج بقية مدارس البلاد - المسائل التالية : اللغة والتاريخ والأدب اليهودي.

لقد استطاع عدد من الصهاينة التنقيحيين ومن المتعاطفين معهم الحصول على تزكية المقترعين في انتخابات مجلس الطائفة التي دارت في أواخر ديسمبر 1937. وهذا ما جعل الرأي العام اليهودي آنذاك ينعت هذا المجلس بـ "التصهين". وقد مُنِيَ ممثّلو التيار السياسي لجريدة LA JUSTICE (العدالة) بهزيمة ساحقة في هذه الانتخابات، وذلك لأنّ الشرائح الوسطى اليهوديّة التي ذاقت الأمرين من الأزمة الاقتصادية الكبرى لم تغفر لهم عجزهم طوال مدتهم النيابية عن الأخذ بيدها. إلا أن الملاحظة التي لا بد من ابدائها، هي أن سحب هذه الشرائح الوسطى لثقتها من العناصر الملتفة حول جريدة (العدالة) LA JUSTICE لا يعني افلات مراكز الحسم والتقرير داخل مجلس الطائفة من عناصر البرجوازيين اليهود الكبار، بل يعني فقط انتقال النفوذ داخل هذا المجلس من عناصر برجوازية إلى عناصر برجوازية أخرى. أما العناصر الصهيونيّة التنقيحية التي تمكنت من انتزاع عدد من المقاعد داخل "مجلس الستين"، فان دورها سينحصر في تسليط شيء من الضغط على "مجلس الاثنى عشر" الواقع تحت نفوذ البرجوازيين الكبار.

أما تجمع الصهاينة العامين، فقد تضرر كثيرا من صعود اليسار الفرنسي إلى السلطة السياسيّة، إذ انضمّ البعض من أعضائه إلى الصهاينة "اليساريين"، كما أن البعض الآخر قطع نهائيا مع الصهيونية. وقد تحولت الفدرالية الصهيونيّة التي ورثها

هؤلاء الصهاينة العامون عن الصهاينة التنقيحيين إلى جسم شبه جامد، ولم ينجح ممن رشحهم الصهاينة العامون لانتخابات مجلس الطائفة لسنة 1937 الا بعض الأنفار. وقد طرح بعض هؤلاء الصهاينة العامّين في بداية 1938 فكرة انشاء حزب تحت اسم "حزب الأصالة والتّقدّم"[26]، الا أنّ هذه الفكرة فشلت وانفرط عقد دعاتها. ولم تكن للصهاينة العامين في هذه السنوات الا جريدة واحدة هي جريدة LA SEMAINE JUIVE (الأسبوع اليهودي) الإسبوعيّة الّتي صدر أوّل عدد لها يوم 3 - 12 - 1937. وقد فشلوا في ضمان تمثيل صهاينة تونس في المؤتمرات الصهيونيّة العالميّة للسنوات 1935 و 1937 و 1939، والسبب هو ضآلة عدد دافعي الشاقل، اذ لم يتجاوز هذا العدد على سبيل المثال 215 نفرا سنة 1935[27]. وقد واصلوا في هذه الفترة التصدي لإطروحات التنقيحيين، وفتحوا أعمدة جريدتهم لجوزيف فيشر المشار اليه آنفا الّذي واصل حربه الصحفيّة ضدّ التنقيحي فيليكس علّوش، كما قاطعوا بأمر من المنظّمة الصهيونيّة العالميّة الباخرة التنقيحيّة سارا 1 (SARA) إبان زيارتها لتونس.

أمّا الصهاينة "اليساريون، فانّ تعزّز صفوفهم ببعض الوافدين عليهم من التجمعين: التنقيحي وخاصة الصهيوني العام، لم يكن كافيا لانتشالهم من وهدة الوهن الكبير الّذي أصابهم بعد أن ارتدّ عنهم أغلب أعضاء الهاشومير هاتزاير في جانفي 1934. ويكفي للتدليل على ضعفهم أن نذكر أنّه لم تكن لهم جريدة ولو شهرية تنطق باسمهم. وقد واصلوا التعامل من موقع التحالف النقدي مع الصهاينة العامين بهدف التصدي للتنقيحيين.

نختتم استعراضنا للنّشاط الصهيوني في هذه الفترة بالإشارة إلى توافد عدد من مبعوثي المنظّمة الصهيونيّة العالميّة على تونس، وهم موريس ستارن (MAURICE STERN) مبعوث الصندوق القومي اليهودي - فرع فرنسا الّذي زار تونس في نوفمبر 1936، وساسيا ايرليش (SASSIA ERLICH) مبعوثة "المنظّمة النسائيّة الصهيونيّة

العالمية - فرع فرنسا" (W.I.Z.O)[28] الّتي زارت تونس في ديسمبر 1936 بهدف تنشيط فرع "الويزو" التونسي الّذي تأسّس سنة 1933-1934[29]، وجوزيف فيشر (JOSEPH FICHER) مبعوث الصندوق القومي اليهودي - فرع فرنسا الّذي زار تونس في ديسمبر 1937، وأخيرا مناجم غوروديش (MENEHAM GORODICHE) مبعوث الصندوق التّأسيسي اليهودي - فرع فرنسا الّذي جاء إلى تونس في نوفمبر 1938.

5) التنظيمات السياسية في تونس ومواقفها من الصهيونية :

واكب الحزب الحر الدستوري التونسي تطورات الإنتفاضة الفلسطينيّة الكبرى ضد الانقليز والصّهاينة (1936 - 1939) مواكبة دقيقة، اذ كانت له شبكة اتصالات متينة تربطه بالدوائر السياسية في فلسطين ومصر. وقد استطاع خلق مناخ جماهيري عريض مساند للفلسطينيّين. وعلاوة على جريدته "الإرادة"، فقد كانت الجرائد المتعاطفة معه أو المؤيّدة له مثل الزهرة ولسان الشعب والنهضة تفرد في العديد من الأحيان أعز الأعمدة في صدر صفحاتها للحديث عمّا يجري في فلسطين. وقد اشتهر محمد الصادق بسيس بكتاباته الصحفيّة الملتهبة عن القضيّة الفلسطينيّة. وقد نظّم هذا الحزب في أوساط السكان على امتداد البلاد حملة عرائض للتنديد بانقلترا والصهاينة والاعراب عن المساندة للفلسطينيّين. وكان يستغلّ منابر المساجد لتحسيس السكّان للأوضاع السّائدة في فلسطين، كما أنّه لم ينفكّ يرسل البرقيّات للإحتجاج على تواطئ أنقلترا مع الصهاينة إلى كل من عصبة الأمم وقنصل بريطانيا بتونس والسلطلت الفرنسيّة. وقد أنشأ أيضا "لجنة أغاثة فلسطين الشّهيدة" في جوان 1936[30] لجمع التبرّعات الماليّة لفائدة فلسطين، ووضع على رأسها أحمد بن ميلاد، وهو شيوعيّ قديم وأحد المنخرطين الجدد في الحزب. ولم يبق طلبة الجامعة الزيتونيّة، وأغلبهم يدور في فلك هذا الحزب، بمأنى عن الحركة الجماهريّة المساندة للفلسطينيّين. وقد تراوحت مواقفهم المساندة بين التجذر و "الاعتدال"، بين اعتماد أسلوب الاضراب عن الدروس

(اضراب 14 أكتوبر 1936 على سبيل المثال) والتبرع بالمال، وبين اعتماد أسلوب الصوم والتبرع بالمال. وكانت مناشير دعاية الشق الأوّل تصدر عن "لجنة الطّلبة ولجنة اتّحاد الأساتذة"[31]. أما الشق الثاني. فقد كانت تمثله "لجنة الطلبة الزيتونيين"[32]. وقد وقفت في صف الشق "المعتدل" "جمعية الشبان المسلمين"، وهي تنظيم ديني سياسي تأسس في صائفة 1934، وكان من أبرز عناصره محمد الصادق بسيس الذي ورد ذكره ومحمد الصالح النيفر ويوسف بن عاشور[33].

أما الحزب الحر الدستوري الجديد[34] الذي تأسّس في مارس 1934 على إثر انشقاق داخل الحزب الدستوري، فانّ ما يلاحظ عنه هو :

- انتماء أغلب عناصره الفاعلة إلى أول دفعة هامة من المثقفين الجامعيين الذين عادوا من فرنسا في مطلع الثلاثينات، وفي رصيدهم معرفة معتبرة بالثقافة الغربية، إلى جانب معرفتهم بالثقافة العربية الاسلامية، وخبرة بأساليب العمل السياسي العصري، واقتناع بضرورة التوفيق بين الاسلام والفكر الليبرالي الغربي الذي يبقى مرجعيّة رئيسيّة بالنسبة إليهم.

- انتساب أغلب هذه العناصر إلى الشرائح الوسطى للمناطق القروية الساحلية، وهي شرائح قريبة اجتماعيّا من الطبقات الشعبيّة، وميّالة إلى التفتح والاعتدال والحلول الوسطى.

وقد تميّز الحزب الحر الدستوري الجديد مقارنة ببقية الفصائل السياسيّة الوطنيّة التي سبقته، باندفاعه النضالي واتقانه العمل السياسي العصري، وقدرته على تحريك الشارع، وتأطير الشباب، وتعزيز الوعي الوطني في أغلب جهات البلاد. وقد تمكن هذا الحزب من تحقيق استقلال البلاد عام 1956.

وكان قادة الحزب وعلى رأسهم الحبيب بورقيبة مناهضين للصهيونيّة، ويعتبرونها حركة استعماريّة. وكانوا يفرقون بكل وضوح بين الصهيونيّة واليهوديّة، ويرون ضرورة

تحرير اليهود من الصهيونيّة (DESIONISATION DES JUIFS).

وقد نظّم بعض مناضلي هذا الحزب وهم الحبيب بوقطفة وحسن الغربي وحسن النوري وقاسمي مصطفى، اجتماعا عاما ببنزرت يوم 12 أكتوبر 1936 لجمع التبرعات المالية لفائدة الفلسطينيين، وذلك بدون الحصول على رخصة من السلطات الفرنسيّة. وقد قررت هذه السلطات تتبعهم قضائيّا، لكنها عدلت عن ذلك مخافة إثارة ردة فعل جماهيريّة عنيفة[35].

يقول تقرير صادر عن المباحث يوم 19 أكتوبر 1937[36]، أي بعد رجوع عبد العزيز الثعالبي (زعيم الحزب الحر الدستوري التونسي) من المنفى بعد غيبة طويلة في صائفة 1937 واشتداد الصراع بين الحزبين الدستوريّين :

<< ... ان القادة الدستوريين الجدد انضموا إلى هذه الحركة السياسيّة الدينيّة (حركة تأييد الفلسطينيين) مخافة أن توجه لهم تهمة اللامبالاة تجاه قضايا الاسلام. وقد قرروا آنذاك ضمّ مشاعر استيائهم إلى مشاعر استياء العالم العربي بواسطة برقيات وجهوها في آن واحد إلى وزارة الخارجية الفرنسيّة ورئاسة الحكومة والكاتب العام "لعصبة الأمم". وقد أرسل المؤتمر الثاني للحزب الدستوري الجديد يوم 2 نوفمبر 1937 برقية تأييد إلى مفتي فلسطين أمين الحسيني[37]>>.

وقد نظّم الحزب الدستوري التونسي مظاهرتين صاخبتين في اليومين الأولين من جانفي 1938، وذلك لمنع ربان الباخرة (SARA 1) من القيام بتظاهرتين دعائيتين لفائدة الصهيونيّة تتمثلان في محاضرة وشريط سينمائي بعنوان "الأرض الموعودة". وقد شاركت عناصر من الحزب الدستوري الجديد نذكر منها عزوز الرباعي الأمين العام للشبيبة الدستورية في هذا التحرك الجماهيري المناهض للصهيونيّة. ووقعت، علاوة على المظاهرتين، حوادث صدام متعددة بين اليهود والسكان المسلمين في أحياء المدينة العتيقة للعاصمة. وقد وجدت السلطات الفرنسيّة نفسها مرغمة، أمام تدهور

الوضع الأمني، على إلغاء التظاهرتين الصهيونيتين.

وقد نفى الحبيب بورقيبة، في تصريح لجريدة TUNIS SOIR (تونس المسائية) ليوم 3 جانفي 1938 أي علاقة لحزبه بالمظاهرتين. وكان يرمي من وراء هذا الموقف إلى التقرب من "الجبهة الشعبيّة" في فرنسا التي كان لليهود وزن كبير فيها. ولم يكد موقف بورقيبة هذا يصبح علنيًا حتى انبرى أنصار الحزب الدستوري للتشهير به في مظاهرة بشعارات لاذعة. وقد ردّ بورقيبة بأسلوب سجالي عنيف على هذه الحملة الموجهة ضدّه في جريدة حزبه L'ACTION TUNISIENNE (العمل التونسي) ليوم 8 جانفي 1938. وقد اقتطفنا من هذا الرد الطويل المقطع التالي الذي تنبع أهميته من كونه يحتوي على المنطلقات الجوهريّة التي سيرتكز عليها بورقيبة لصياغة مواقفه اللاحقة من القضية الفلسطينية والقومية العربية : << ... ان اليهوديّة دين، أما الصهيونيّة فهي مذهب سياسي. أما الأولى، فقد حظيت دائما باحترام المسلمين وتسامحهم، وأما الثانية فهي تصدم تطلعات العرب في فلسطين، وبطريقة غير مباشرة مشاعر التضامن التي يكنها لهم مسلمو العالم. على أن ما أريد التنصيص عليه هو أن الأواصر التي تربطنا بعرب فلسطين ليست شبيهة بتلك التي تربط صهاينة تونس بصهاينة الخليل أو تلّ أبيب. فاذا كانت الأولى أواصر تعاطف قائمة على وحدة اللغة والدين، فان الثانية تنطلق من وحدة وطن مزعومة. بيد أنه ليس ثمة أي تونسي يعتبر فلسطين وطنا له، وهو في ذلك يقف نفس الموقف من العراق أو سوريا أو الضفة الشرقية لنهر الأردن أو الحجاز، مهما كانت الذكريات التي تشده في تلك الربوع إلى حرم كالكعبة أو قبر النبي>>.

أما حركة الاشتراكيين الديمقراطيين، فقد أحنت باللائمة على الدستوريين لأنهم بحرمانهم صهاينة (SARA 1) من ممارسة حقهم في التعبير عن آرائهم قد أجرموا في حق حرية التعبير المشروعة لكل انسان بصرف النظر عن دينه أو عرقه أو هويته

السياسية. كما أنها اعتبرت أن تحرك الدستوريين ضدّ الصهاينة كان بمثابة السيف الذي ارتدّ إلى نحر صاحبه، لأنه لم يخدم قط مصلحة الحركة الوطنية التونسيّة، وإنّما خدم الفاشية المعادية لليهود والصهاينة. ولأجل ذلك اتهمتهم بـ "التحجر الطائفي" وبـ "العنصريّة"[38].

لقد تنفس أغلب الصهاينة الصعداء بعد عودة اليمين إلى السلطة السياسيّة في فرنسا في أفريل 1938. وقد رحّب التنقيحيون أكثر من غيرهم من الصهاينة بهذا الحدث "السعيد" لأنهم بصفتهم الممثلين الحقيقيين للصهيونيّة "الخالصة" كانوا أقدر من غيرهم على فهم الخطر الذي تشكله الاشتراكية على الصهيونيّة.

المصادر والمراجع والحواشي

***

1) ديميتروف (جروبي): في الجبهة الوطنية الموحدة، دار الطليعة، الطبعة الثانية، بيروت 1974، ص 67.

2) ج TEL AVIV ليوم 25 - 10 - 1936

3) ج TEL AVIV ليوم 8 - 11 - 1936

4) و ع ح ت، س E ص 550 م 56 (الحزب الإجتماعي الفرنسي)

5) و ع ح ت، س E ص 550 م 56 (الاتحاد العسكري الفرنسي)

6) و ع ح ت، س E ص 550 م 53 (الحزب الشعبي الفرنسي)

7) و ع ح ت، س E ص 550 م 56 (الحزب الاجتماعي الفرنسي)، وثيقة غير مرقمة تحمل تاريخ 31 - 5 - 1937

8) ديميتروف (جوربي) وآخرون : دراسات في الفاشية، ترجمة جوريف سماحة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1973

9) انظر LE REVEIL NATIONAL ليومي 16 - 10 - 1937 و 28 - 2 - 1938 ووثائق الحكومة التونسية ضمن سلسلة المتعلقة بهذه التنظيمات الفاشة.

10) ج LA SEMAINE JUIVE ليوم 16 - 9 - 1938

11) ج L'AVENIR SOCIAL (شيوعية) ليوم 5 - 1 - 1937

12) ج LA SEMAINE JUIVE ليوم 16 - 9 - 1938

13) - LIAUZU (C.) : La presse ouvrière européenne en Tunisie (1881-1939), **Annuaire de l'Afrique du Nord**, 1970, C.N.R.S., Paris, 1971.

- HADRIA (E.C.) : Les milieux Juifs ... المصدر المذكور سابقا

14) انّ صعوبة الضبط الدقيق لتعداد الطائفتين يعود إلى الأسباب التالية :

- الاحصائيات الرسمية التي انطلقت سنة 1911 لا تعطي أرقاما دقيقة الا عن اليهود "التوانسة" من ذوي الجنسية التونسية. أما "التوانسة" الحاصلين على الجنسية الفرنسية، فان هذه الاحصائيات تحشرهم ضمن تعداد الفرنسيين المقيمين بالبلاد التونسية.

- لقد ضاعفنا عدد المتجنسين من "التوانسة" خمس مرات، وذلك لأن الضارب 5 يمثل في نظرنا الحجم المتوسط لعائلة متجنسة من طائفة "التوانسة"

- الإحصائية الرسمية لا تعطى أرقاما حول "القرانة"، بل تدمجهم ضمن الجاليات غير الفرنسية، خاصة منها الإيطالية، لذلك استنجدنا ببعض التقديرات التي قامت بها بعض الجرائد الصهيونية، فقد قدرت LA GAZETTE D'ISRAEL ليوم 14 - 6 - 1951 عدد هؤلاء "القرانة" سنة 1903 بـ 10.000

نفر، وقدرتهم سنة 1931 بـ 3.000 نفر فقط. أما جريدة LA SEMAINE JUIVE ليوم 18 - 11 - 1938، فقد قدرتهم سنة 1938 بـ 5.000 نفر، وقدرتهم في عددها ليوم 3 - 2 - 1939 بـ 8٪ من مجموع اليهود القاطنين في البلاد التونسية.

15) ج LA SEMAINE JUIVE ليومي 10 - 6 - 1938 و 10 - 2 - 1939

16) ج TEL AVIV ليوم 14 - 8 - 1936

17) ج LA SEMAINE JUIVE ليوم 5 - 6 - 1938

18) ج LA SEMAINE JUIVE ليوم 3 - 11 - 1938

19) المصدر ذاته

20) ج LA NOUVELLE AURORE ليوم 25 - 12 - 1936

21) ج LA GAZETTE D'ISRAEL ليوم 4 - 11 - 1938

22) انظر العظمة (عزيز) : اليسار الصهيوني من بدايته حتى اعلان دولة اسرائيل، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت 1969، ص 145

23) ج TEL AVIV ليوم 5 - 11 - 1936

24) المصدر ذاته

25) ج LA NOUVELLE AURORE ليوم 19 - 2 - 1937

26) انظر ج LA SEMAINE JUIVE أعداد شهر جانفي 1938

27) BENSIMON - DONATH (D.):... المصدر المذكور سابقا ص 556

28) الويزو : منظمة عالمية أنشئت في لندن عام 1920، وهي فرع من فروع المنظمة الصهيونية العالمية، وتهدف إلى توحيد الحركة النسائية اليهودية حول ضرورة العمل من أجل دعم الحركة الاستيطانيّة في فلسطين في ميادين التعليم ورعاية الطفولة وتأهيل الفتيات للأعمال الزراعيّة.

29) ج LA GAZETTE D'ISRAEL ليوم 8 - 8 - 1946

30) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و 42

31) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و 37

32) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و 40

33) ادريس (رشيد) : ذكريات عن كفاح الفقيد في حقل الوطنيّة والفكر. مقال في جريدة "الصباح" ليوم 26 - 12 - 1978 بمناسبة أربعينيّة محمد الصادق بسيس

34) أصبح يسمى بداية من 1964 الحزب الاشتراكي الدستوري، ثم التجمع الدستوري الديمقراطي بداية من 1987، وهو الحزب الحاكم منذ 1956 في تونس

35) و ع ح ت، س A ص 286 م 6 و 143

36) و ع ح ت، س A ص 286 م 6 و 51

37) الحبيب بورقيبة : تونس وقضية فلسطين، كتابة الدولة للاخبار والارشاد، تونس، 1966، ص 21

38) ج TUNIS SOCIALISTE ليوم 3 - 1 - 1938

الباب الثانـــي

***

الفصل الثالث

مرحلـــة المـــــد

(أفريل 1938 - مـــاي 1948)

إنّ القفزة الكمية الكبيرة التي حققتها الحركة الصهيونيّة في هذه المرحلة بعد الركود النسبي الذي عانت منه طويلا يعود أساسا إلى عاملين اثنين هما الاحتلال النازي لتونس وما نجم عنه من اضطهاد لليهود فاق في حدّته كل أنواع الاضطهاد التي عرفوها في السابق، ثم قيام دولة اسرائيل.

1) يهود تونس في عهد فيشي (VICHY) أو السنوات المسعورة:

لقد أدّى انحدار الجيش الفرنسي في ماي 1940 إلى سقوط ثلثي التراب الفرنسي تحت السيطرة النازية المباشرة وتحول الثلث المتبقي إلى منطقة تسوسها دولـــة تأتمر بأوامر النازيين هي دولـــة فيشي. وقد عيّن الماريشـــال بيتان (LE MARECHAL PETAIN)، رئيس هذه الدولة على رأس البلاد التونسية مقيما عاما جديدا هو الأميرال جان بيار ايستيفا (JEAN PIERRE ESTEVA). ويأتي هذا الاجراء كنتيجة لقبول ألمانيا الابقاء على المستعمرات الفرنسية (التي من بينها تونس) تحت "السيادة الفرنسية". وتعتبر السنوات التي ولى فيها ايستيفا على تونس أشدّ الحقب التاريخية ظلاما في تاريخ يهود تونس[1]، ويرجع ذلك إلى أنّ اللاسامية لم تكن بالنسبة لحكومة فيشي مجرد شذوذ مفاجئ، بل كانت قناعة راسخة لديها. ويكفي للتدليل على ذلك أن نشير إلى أنه لم تمض على مسكها بقيادة الحكم بضعة أشهر حتى بدأت تسن القوانين اللاسامية الواحد تلو الآخر، وترمي باليهود في المحتشدات النازية الرهيبة. وقد استنفر أعوانها المقيمون في تونس كل قدراتهم الذاتية من أجل تسعير الشعور اللاسامي الكامن في نفوس المتساكنين في البلاد. وقد استندوا في ذلك إلى عدّة عوامل مؤاتية هي :

- وضع الشدة التي يتخبط فيه السكان من جراء الحرب العالمية الثانية الناجم عن الضمور في الانتاج، والنقص الفادح في المعروض من السلع، والتهاب الأثمان، وتفشي البطالة، واشتداد الضيق وسوء الحالة لدى أوسع قطاعات السكان.

- تأجج شهوة الاثراء السريع لدى العديد من التجار اليهود الذين عاثوا في البلاد بمضارباتهم.

- احساس الفرنسيين في تونس بوطأة الهزيمة الثقيلة التي منيت بها بلادهم أمام ألمانيا، واقتناعهم بأنّ يهود تونس لم يقوموا بكل ما في وسعهم لشد أزر فرنسا أثناء هذه الحرب.

لقد لاحت قبيل اعتلاء حكومة فيشي الحكم مقدمات حقبة الارهاب الأسود التي سيعيشها اليهود على امتداد عدّة سنوات، اذ شهدت تونس العاصمة يوم 28 أفريل 1940 مصادمات عنيفة بين الجنود الفرنسيين المسرحين مؤقتا واليهود. وشهدت كذلك العديد من قرى وسط البلاد وجنوبها في النصف الأول من أوت من نفس السنة اشتباكات متفاوتة الحدّة بين اليهود وبين فئات من المسلمين تنتمي في أغلبها إلى شرائح الهامشيّين.

لقد طبّق أعوان فيشي تجاه يهود تونس سياسة "ضرب عصفورين بحجر واحد":

- أولا بصفتهم لا ساميين، فقد كانوا يريدون التشفي من هؤلاء اليهود، ولم لا ممارسة "الحل النهائي" على الطريقة الهتلرية ! .

- ثانيا : لقد كانوا يشعرون بضعف سيطرة بلادهم المهزومة على تونس، وتبعا لذلك، سعوا بشتّى الطرق لاخراج المسلمين من حلبة الحركة الوطنية وتوريطهم في نزاعات جانبية مع اليهود، خاصة وأن المسلمين كانت تراودهم آنذاك بالحاح فكرة استغلال انهيار فرنسا أمام النازيين للاقتصاص منها، واجبارها على اخلاء ساحة البلاد.إلا أنّ أعوان فيشي حرصوا على حصر النزاعات الكثيرة التي تولوا اشعالها بين المسلمين وبين اليهود ضمن حدود معينة، وذلك تفاديا لحدوث وقائع أمنيّة خطيرة قد تدخل المسلمين في طور لا يخدم مصلحة فرنسا. ولم يكن تطبيق هذا المخطط التضليلي ناجحا دائما، لان الجماهير المسلمة التي كانوا يرسلونها على اليهود لم تكن

دائما رهن اشاراتهم، وهذا ما حدا بالشرطة الفرنسية يوم 8 أوت 1940 إلى قتل ما لا يقل عن 15 مسلما في قرية سليانة[2]، وذلك بعد أن تبين لها أن المسلمين الذين أغاروا على اليهود "بأمر منها" لم يقفوا عند حدود معينة. كما أن المحاكم الفرنسية لم تتردد في بداية نوفمبر 1941 في الحكم بالاعدام على خمسة من المسلمين المورطين في أحداث قابس التي جدت يوم 19 ماي 1941 وأسفرت عن حصيلة ثقيلة من الضحايا (7 قتلى و 18 من الجرحى في صفوف اليهود وقتيل في صفوف الشرطة الفرنسية).

إنّ تأليب السكان على اليهود لم يكن السلاح الوحيد الذي استعمله أعوان فيشي ضد اليهود، بل كان هناك التشريع أيضا. فقد أصدروا في أواخر جوان 1941 مرسوما يقضي باحصاء يهود تونس وممتلكاتهم، وعمدوا في سبتمبر من نفس السنة إلى اتخاذ قرار بحلّ مجلس الطائفة وتعويضه بـ "لجنة إدارية للطائفة اليهوديّة". ثم مروا بعد ذلك إلى حظر مهن الإدارة والمحاماة والطب على اليهود. وقد أصدرت محاكمهم أحكاما قاسية جدا على العناصر اليهوديّة المنتمية إلى الحزب الشيوعي التونسي، نخص بالذكر منها الحكم بالإعدام غيابيا على كل من موريس نزار الأمين العام للحزب وجورج عتال العضو في اللجنة المركزية لنفس الحزب[3]. أما في أكتوبر 1942، فقد انتقل أعوان فيشي إلى مرحلة عليا في سياستهم اللاسامية، فأخذوا يصادرون أملاك اليهود (قاعات السينما، المطابع ...)، لكنّ ما ان شرعوا في ذلك حتى استولى النازيون على تونس في بداية نوفمبر 1942. ومنذ ذلك التاريخ وحتى شهر ماي 1943، عاش اليهود ستة أشهر طويلة تحت هراوات البطش النّازي، ذاقوا خلالها ألوانا شتى من الاضطهاد على أيدي زبانية الجنرالين الألمانيين فون نهرينغ (VON NEHRING) وفون آرنهايم (VON ARNHEIM).

ان أعمال التنكيل التي قام بها النازيون ضدّ اليهود يصعب حصرها، ولأجل ذلك

نكتفـي بذكـر البارز منها. فقد سارعـوا حال مجيئـهم إلى تونس بتكويـن ما أسمـوه بـ "المجلس اليهودي" ليكون القناة التي يمرّرون بواسطتها أوامرهم الغاشمة إلى اليهود. وقد احتجزوا عددا من الرهائن من سراة اليهود بهدف المساومة بهم عند الاقتضاء، وحولوا أكبر معبد يهودي في تونس العاصمة إلى مستودع للبضائع، وانتزعوا كل أجهزة الالتقاط الإذاعي التي كانت بحوزة اليهود، وأجبروهم على اخلاء ألف شقة، كما أنهم أمروا "المجلس اليهودي" بمدهم بثلاثة آلاف يهودي لانجاز التحصينات العسكرية التي يحتاجونها في البلاد التونسيّة، لكن أمام عجز المجلس عن ذلك، عمدوا إلى تنظيم عدة مداهمات خاطفة ضد التجمعات السكنية اليهودية، واختطفوا كل من وقعت عليه أيديهم من اليهود القادرين على العمل العضلي. وقد التجأ مآت من الشبان اليهود إلى الاختفاء، إلاّ أن ذلك لم يكن ميسروا للجميع في ظروف كانت فيها عيون النازيين مبثوثة في كل مكان. وقد تعرض اليهود المسخرون للعمل إلى قصف طائرات "الحلفاء"، فكانت الحصيلة 28 قتيلا و 29 جريحا. وقد هلك يهوديان من جراء الارهاق والمرض اللذين لحقاهما إبّان إقامتهما في معسكرات العمل، وفقد اثنان آخران وأعدم ستة بتهمة التعاون مع "الحلفاء"، وأرسل اثنان إلى محتشدات الإبادة في أوروبا. وقد تعرضت منازل اليهود إلى النهب على أيدي الجنود النازيين، ووقع اغتصاب بعض النساء. أما في القيروان ونابل والحمامات، فقد فرض النازيون على اليهود حمل النجمة الصفراء السيئة الذكر. وقد دفع يهود البلاد التونسية عنوة إلى الألمان اتاوة باهظة تقدر بـ 63 مليون فرنك فرنسي[4]. ويعتبر ألفراد فالنزى مؤسس أول تنظيم صهيوني في تونس أشهر يهود تونس الذين ذهبوا ضحية الهمجية النازية، فقد مات، وهو رهن الاعتقال في محتشد "الموت البطيء" الألماني المعروف باسم بيكانوالد.

لقد اعتبر القادة الصهاينة - وخاصة التنقيحيون منهم، النازية بمثابة الحليف الموضوعي لهم، وان عدم قيامهم بأيّة مبادرة للدفاع عن بني دينهم ضدّ النازيين ليس

موقفا ناتجا فقط عن عجزهم الذاتي، وإنّما كذلك عن اعتقادهم بأن النازية هي "العسل المر" الذي سيزج باليهود جماعيا في الحركة الصهيونيّة.

لقد انفرجت محنة اليهود بعد أن تمكنت جيوش "الحلفاء" في ماي 1943 من دحر الألمان خارج تونس. وقد اتخذت "اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني"(5) قرارا يوم 8 أوت 1943 بالغاء كل القوانين اللاسامية السابقة. وعكف اليهود على تضميد جراحهم ولمّ شتاتهم، فأخذوا يعيدون شيئا فشيئا بناء تنظيماتهم الدينيّة والمدنية والصهيونيّة. ولم تتوان العديد من التنظيمات اليهوديّة العالمية في الخارج عن مدّ يد المساعدة إليهم، ومن بين هذه التنظيمات "الرابطة اليهودية العالمية" L'ALLIANCE ISRAELITE UNIVERSELLE و "النداء اليهودي الموحد" (THE UNITED JEWISH APPEAL) و "التوزيع الأمريكي المشترك" (THE AMERICAIN JOINT DISTRIBUTION) و "منظمة إغاثة الطفولة" (O.S.E.) ... وقد قام ماتيو غانم (MATHIEU GHANEM) بصفته ممثلا للطائفة اليهودية التونسية في المؤتمر اليهودي العالمي المنعقد بنيويورك سنة 1945 بلفت أنظار المؤتمرين إلى الأوضاع المتردية التي أصبح عليها يهود تونس بعد الحرب.

وكان من تأثيرات الممارسات اللاسامية للنازيين أن نما في صفوف اليهود شعور قوى بالتآزر والتآخي. وتجلّى ذلك في استجابة أغلب اليهود لدعوة الحاخام الأكبر للاحجام عن العمل والطعام يوم 14 مارس 1945، إجلالا لليهود الذين سقطوا ضحايا الوحشية النازية في العديد من بقاع العالم، كما أنّ العديد من اليهود المشتتين عبر مناطق وسط البلاد وجنوبها بدؤوا يلتحقون بالتجمعات السكنية الكبرى لبني دينهم في كل من تونس وصفاقس وسوسة ونابل. وقد ألح أغلبية اليهود على تصفية واقع انقسامهم إلى طائفتين (طائفة "الغرانة" وطائفة "التوانسة")، فانصاعت السلطات الفرنسيّة مرغمة لذلك، وأصدرت مرسوما بتاريخ 17 فيفري 1944 يقر مبدأ الوحدة بين

الطائفتين. وقد بادر اليهود على الفور بتشكيل لجنة برئاسة "الصهيوني العام" ريني كوهين حضرية (RENE COHEN HADRIA) تحت اسم "تجمع الدراسات والتوثيق اليهودي"، وذلك بغية اعداد مشروع يضبط التراتيب الفنية لهذه الوحدة، ثم يقدم كمسودة عمل السلطات الفرنسيّة. وما ان حلّ شهر مارس 1947 حتى صدر القانون الأساسي لمجلس الطائفة "الموحد". وقد تميز عن قانون 1921 بما يلي :

- إلغاء الضريبة الانتخابية.

- تحديد عدد نواب "اللجنة المركزية" لمجلس الطائفة بعشرة أعضاء عوضا عن اثني عشر عضوا، وعدد نواب "المجلس الموسع" بأربعين عضوا عوضا عن ستين.

- حصول يهود سوسة وصفاقس على الحق في انتخاب مسيري صناديق الاغاثة والشؤون الدينية لمدينتيهما. وقد جرّت انتخابات مجلس الطائفة "الموحد" ليهود تونس العاصمة في ماي 1947، وارتقى ايلي ناطاف (ELIE NATAF) إلى منصب أول رئيس فعلي لكل يهود العاصمة. وقد تواصلت على قدم وساق بعد هذه الانتخابات عمليات توحيد المؤسسات الدينية والمدنية، وانتهت تماما في أوت 1947. وفي جوان 1948، أصبح لكل يهود البلاد، وعددهم يربو آنذاك عن 95.000 نسمة، إطار قانوني يمثلهم، وهو فدرالية الطوائف اليهودية التونسية. نشير هنا من باب المقارنة إلى تعداد المسلمين في تونس بلغ سنة 1946 : 2.832.978 نسمة.

2) النشاط الصهيوني :

أعطت الصدمة النفسية التي هزت الطائفة اليهودية من جذورها إبّان حقبة فيشي للحركة الصهيونية دفعا كبيرا، اذ أصبح أغلب يهود تونس إما صهاينة أو متعاطفين مع الصهيونية. وقد استغلت الدعاية الصهيونيّة سقوط فرنسا في أيدي أعوان فيشي اللاساميين لاقناع اليهود بأنه ليس ثمة بلد واحد في العالم لا يكن لهم العداء، حتى ولو كان ذلك البلد فرنسا المعروفة بتحريرها لليهود، وأنهم لن يستطيعوا العثور على

الدعة والاستقرار إلا في "دولة فلسطين اليهودية". وقد تحول عدد كبير من اليهود الذين كانوا مجرد متعاطفين مع الصهيونية إلى صهاينة راسخين في الإيمان، كما أن عددا من كبار البرجوازيين اليهود أصبحوا مقتنعين بالصهيونية. وقد أصبح الصهاينة - القدامى منهم والجدد - ملتهبين حماسة واندفاعا، ولا يجدون حرجا في التغني بـ "النشيد الوطني اليهودي" هاتيكفاه (HATIKVAH) أو في التفاخر بالعلم الصهيوني (6).

لقد واصل التنقيحيون تعزيز مواقفهم في طليعة الحركة الصهيونيّة في تونس، واستطاعوا الاستئثار بالنصيب الأوفر من تأييد اليهود الذين انخرطوا في الصهيونيّة بعد جلاء النازيين عن تونس. وقد أجادوا أكثر من غيرهم من الصهاينة فن توجيه الغارات الدعائية على اليهود الذين أمضهم العسف النازى، وتعميق الاحساس لديهم بالاغتراب والاضطهاد. وقد بادروا يوم 24 سبتمبر 1943، أي بعد بضعة أشهر فقط من تقشع الاحتلال النازي عن تونس باصدار صحيفة أسبوعية تنطق باسمهم هي LA VOIX JUIVE (الصوت اليهودي). وأعادوا كذلك بداية من 20 ديسمبر 1945 اصدار جريدتهم LA GAZETTE D'ISRAEL (جريدة اسرائيل) التي احتجبت في فترة الحرب. وقد فازت القائمة التي رشحوها - بسهولة كبيرة - في انتخابات مجلس الطائفة التي جرت في جوان 1946. وقد حلوا في جويلية 1946 منظمتهم المعروفة باسم "المنظمة الصهيونية الجديدة - فرع تونس" وأسسوا تنظيما جديدا اسمه "الحزب الصهيوني التنقيحي الموحّد - فرع تونس". ويأتي هذا الاجراء نتيجة لعودة المنظمة التنقيحية العالمية إلى أحضان المنظمة الصهيونية العالمية، بعد مقاطعة دامت أكثر من 10 سنوات. وقد فاز مرشح التنقيحيين بنسبة 45٪ من الأصوات في الانتخابات التي جرت يوم 29 سبتمبر 1946 لاختيار ممثل عن صهاينة تونس في المؤتمر الصهيوني العالمي الثاني والعشرين. ونشير هنا إلى أنه قد شارك في هذه الانتخابات أكثر من 3500 ناخب ينتمون إلى مختلف التنظيمات والتيارات الصهيونيّة، وهو رقم لم يسجل قط في

تاريخ الانتخابات الصهيونية بالبلاد التونسية. وقد بلغ الاحتدام بين المتنافسين حدا لم يسبق له أن بلغه. وقد أوكل التنقيحيون الفائزون مهمة تمثيلهم إلى روبار برانشفيق (ROBERT BRUNCHWIG) الذي كان آنذاك رئيسا للمجلس القومي للصهاينة التنقيحيين بفرنسا وفي الآن نفسه عضوا في المكتب التنفيذي للمنظمة العالمية للتنقيحيين. وهذه هي المرة الثانية التي يحظى فيها روبار برانشفيق بثقة التنقيحيين. أما الأولى، فكانت في سنة 1927. وقد ظفر التنقيحيّون كذلك بأغلب مقاعد الفدرالية الصهيونية التونسية التي عقدت أول مؤتمر لها بعد عودة التنقيحيين اليها يوم 11 ماي 1947. وعمل التنقيحيون على توحيد الحركة التنقيحية في بلدان شمال افريقيا، وخاصة على مستوى حركات الشباب التابعة لمنظمة "بيتار" العالمية.

أما الصهاينة "المزراحيون"، فقد أصبحوا بعد الحرب متواجدين على الساحة الصهيونية بشكل أكثر فاعلية، بعد أن ظلوا ردحا طويلا "الابن البائس" للحركة الصهيونية في تونس. ويرجع الفضل في تبوئهم للمركز الثاني من حيث الوزن الجماهري بعد التنقيحيين إلى الدعم الذي اكتسبوه في أوساط اليهود "السلفيين" لوسط البلاد وجنوبها. وأصبح هناك في تونس بداية من مارس 1946 فرع رسمي لحزب المزراحي يسمى "تورا - أ - أفودا" (TORA-A-AVODA)، كما أن "الهابوال هامزراحي" (HAPOEL HAMIZRAHI) وهو الجناح العمالي لهذا الحزب[(7)] ركز لنفسه هو أيضا فرعا في تونس. وأسس المزراحيون حركة شباب سموها "أومان" (OMEN). وقد فاز ايلي أوجان قطا "المزراحي" (ELIE EUGENE GUETTA) بمنصب رئيس الفدرالية الصهيونية في انتخابات ماي 1947. وقد ظهر على "يمين" المزراحي بتونس عقب الاعلان عن ميلاد "دولة اسرائيل" تنظيم صهيوني جديد هو فرع حزب "الأغودات اسرائيل"، وهذا الحزب الذي تأسس في بولونيا سنة 1912 يتسم بالغلو في التدين، اذ هو لا يعترف الا بسيادة التوراة، ومن هذا الموقع، فهو يعتبر نفسه - نظريا على الأقل - من المعارضين

للصهيونية بدعوى أنها حركة لاتكية ولم تتم على يد الماشيح.

أما التنظيم الصهيوني الثالث من حيث الوزن الجماهيري في فترة ما بعد الحرب، فهو فرع حزب الماباي (MAPAI). وقد تميز هذا التنظيم عن بقية التنظيمات الصهيونية بتعدد حركات الشباب التي كان يشرف عليها، وهي هيهالوتز (HEHALOUTZ)، وهابونيم (HABONIM) وغوردونيا (GORDONIA) وتسيرى صيون (TSEIRE SION)، كما أن فرع منظمة "الويزو"بتونس كان مواليا له. الا أن حزب"أحدوث هاعفودا" الذي انشق في ماي 1944 عن "الماباي" (بدعوى مهادنته للرأسمالية وتبنيه لمبدا قيام دولة يهودية في فلسطين عوضا عن دولة ثنائية القومية)، استطاع سنة 1947 أن يجذب إلى صفّه منظمة (TSEIRE SION) التي أصبحت تسمى تبعا لذلك حركة "درور" (DROR).

أما تجمع الصهاينة العامين، فقد أصبح جسما مفككا، ولو لا الهيبة التي مازالت تتمتع بها بعض عناصره المنتمية إلى الرعيل الأول من صهاينة تونس، لكانت انتكاسته أعمق. ولعل أصرخ دليل على الضعف الذي تردّى فيه هو حصوله بصعوبة على المرتبة الرابعة - أي قبل الأخيرة - في الانتخابات للمؤتمر الصهيوني العالمي لسنة 1946.

لقد احتكر هؤلاء الصهاينة العامون جل مقاعد الفدرالية الصهيونية طوال السنوات التي قاطع فيها التنقيحيون المنظمة الصهيونية العالمية. وقد تداول في هذه الفترة على رئاسة الفدرالية صهيونيان عامان معروفان هما سيمون بلحسن (SIMON BELHASSEN) وألبار ليفي (ALBERT LEVY) (بداية من ديسمبر 1944). ولعل احدى "الشوامخ" التي طبل لها الصهاينة العامون وهللوا هي تأسيسهم سنة 1947 لأول مستوطنة ليهود شمال افريقيا في فلسطين وهي مستوطنة "موشاف ريقافيم"، (MOCHAV REGAVIM) التي استقرت في نابلس، وقد تكونت نواتها من 20 عائلة من يهود مدينة "سوسة" التونسية. ونشير هنا إلى أن مستوطنات "الموشاف" لا تعتمد

على الملكية الجامعية مثل "الكيبوتزات اليسارية"، بل على العمل التعاوني، اذ يمتلك كل عضو فيها قطعة من الأرض يقوم بفلحها بمساعدة التعاونيات التابعة لهذه المستوطنات.

أما التنظيم الصهيوني الذي يحتل مؤخرة الترتيب في أواخر الأربعينيات، فهو تنظيم الهاشومير هاتزاير. وقد حصل أعضاؤه على أكثر بقليل من 3٪ من أصوات الناخبين في الانتخابات للمؤتمر الصهيوني العالمي لسنة 1946. وقد ركز هذا التنظيم دعايته آنذاك في أوساط اليهود على شعار الدولة ثنائية القومية في فلسطين (قومية يهودية وقومية عربية). وقد اتحد أعضاء الهاشومير قبيل الاعلان عن ميلاد "دولة اسرائيل" مع منظمة "درور" (DROR)، وكونوا فرعا لحزب المابام (MAPAM)، وهو الحزب الذي تأسس في فلسطين في جانفي 1944.

لقد عمل كل الصهاينة على اختلاف اتجاهاتهم على تطوير التعليم المهني للشبان اليهود المدعوين للهجرة إلى "الوطن التاريخي" فلسطين بعد "قرون طويلة من المنفى الجبري". وقد أصبحت منظمات الشباب الصهيونية وحركات الكشافة اليهودية الاطار الذي يقع فيه تأهيل هؤلاء الشبان للحياة التي تنتظرهم في فلسطين. وقد بعث قسم الهجرة السرية في المنظمة الصهيونية العالمية في أكتوبر 1943 إلى تونس فريقا من الصهاينة المتنكرين في أزياء عسكرية أنقليزية، وذلك بغية تزويد يهود تونس بالمعطيات الفنية المتعلقة بالهجرة إلى فلسطين. ومنذ ذلك التاريخ، تعاقب على تونس من الدعاة الصهاينة ما يصعب حصره. وقد هاجر إلى فلسطين عن طريق مرسيليا (فرنسا) في الفترة بين 1940 و 1947 285 شخصا[(8)]. وقد تراوحت مواقف السلطات الفرنسية - المثقلة بالذنوب نتيجة سياسة فيشي تجاه اليهود - بين تقديم التسهيلات المختلفة لهؤلاء المهاجرين، وبين غض النظر عنهم. وقد صمت هذه السلطات آذانها عن أصوات المسلمين المحتجة على استيلاء الصهاينة على الحصة اليهودية في اذاعة

تونس وتسخيرها لاستثارة حماسة اليهود للهجرة إلى فلسطين. وقد شارك بعض اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين في القتال ضد العرب ضمن وحدات الهاجاناه (HAGANA) (التابعة للماباي) وخاصة ضمن وحدات الأرغون (IRGOUN) (التابعة للتنقيحيين). ان الضعف النسبي لتيار الهجرة الى فلسطين في هذه الفترة يرجع إلى سببين رئيسيين :

- الموقف الانتظاري الذي ما زال يقبع فيه أغلب صهاينة تونس تجاه الأحداث المتسارعة في فلسطين.

- العون الضعيف الذي قدمته الوكالة اليهودية للراغبين من يهود تونس في الهجرة إلى فلسطين، والناتج عن انشغالها بايواء يهود أوروبا الذين هربوا من كابوس النازية، الا أن هلاك الملايين من اليهود الاشكنازيين على أيدي النازيين سيرغم هذه الوكالة على التزود أكثر من ذي قبل بالمادة السكانية لسياستها الاستيطانية من يهود البلدان العربية والاسلامية. وقد هاجر على سبيل المثال إلى فلسطين المحتلة في الفترة بين 1948 (وهو تاريخ الاعلان عن ميلاد دولة اسرائيل) و 1957 : 29.625 يهوديا من تونس[9]. إنّ تيار الهجرة اليهودية التونسية إلى فلسطين لم يجرف فقط الصهاينة "الحزبيين" الذين لم يتجاوز عددهم في أزهى فترات الصهيونية بضعة آلاف، وإنّما تعدى ذلك إلى اليهود المتعاطفين مع الصهيونية، وهم أكثرية يهود تونس. إنّ هؤلاء المتعاطفين لم يتحولوا صهاينة إلا بعد 1948، أي بعد أن تبيّن لهم أن اسرائيل أصبحت واقعا معترفا به من قبل الدول الكبرى صاحبة الحل والعقد. أما فيما يتعلق بنوعية هؤلاء المهاجرين، فان الملاحظة التي لا بد من ابدائها، هي أن كبار البرجوازيين اليهود لم يشتركوا في الهجرة إلى فلسطين إلا بأعداد محدودة، ويرجع ذلك إلى الأواصر الاقتصادية القوية التي تربطهم بالبلاد التونسية. وان هذه الحقيقة تتضح أكثر حين نعلم أن هؤلاء البرجوازيين وعلى الأخص منهم الصناعيين قد وطدوا كثيرا دعائم نفوذهم الاقتصادي في فترة الحرب، ناهيك أن التركيبة المهنية لليهود

الحاملين للجنسية التونسية (وعددهم 70.971 سنة 1946) قد شهدت غداة الحرب انقلابا جذريا، اذ أصبح عدد اليهود المشتغلين بالصناعة والبالغين من العمر 18 سنة على الأقل أرفع من عدد اليهود المشتغلين بالتجارة، وذلك لأول مرة في تاريخ اليهود بتونس. وفيما يلي الايضاح الرقمي لهذه الحقيقة[10]:

صناعة	تجارة	فلاحة	مهن حرة	خدمات	إدارة
9265	6594	115	1781	687	320

علاوة على هؤلاء اليهود الحاملين للجنسية التونسية، لاتنس وجود قرابة 25000 يهودي عام 1946 من الحاملين للجنسيات الأخرى وخاصة منها الفرنسية، بحيث يكون مجموع اليهود في البلاد التونسيّة عام 1946 قرابة 95.000 نسمة[11].

إنّ انسياب اليهود في أعداد ضخمة بعد 1948 في اتجاه فلسطين يعود **أولا** إلى ميلاد دولة اسرائيل وعجز العرب عسكريا عن التصدي لذلك، **وثانيا** إلى انحسار الاستعمار الفرنسي المباشر عن تونس سنة 1956، وان من يتذكر مدى ارتماء أغلبية يهود تونس منذ 1881 في أحضان السّلطات الفرنسية بامكانه أن يتصور مشاعر الهلع التي استبدت بهؤلاء اليهود منذ أن انتقلت الحركة الوطنية التونسية سنة 1952 إلى النضال المسلح ضد فرنسا لاجبارها على الاعتراف باستقلال البلاد. ان ما يجب التشديد عليه هو أن فلسطين لم تجتذب كل اليهود الذين غادروا تونس، اذ أن هناك فئات من اليهود لا يقل عددها كثيرا عن تلك التي هاجرت إلى فلسطين قد فضلت الاستقرار في كندا وخاصة في فرنسا. وقد استقطبت فرنسا العناصر البرجوازية الكبيرة خاصة.

3) مواقف أهم التنظيمات السياسية في تونس من الحركة الصهيونية والحركة الوطنية في فلسطين :

أ) التنظيمات السياسية المسلمة :

لقد كان من البديهي أن يتعامل السكان المسلمون في تونس مع الدول الامبريالية المتحاربة في أوائل الأربعينات من موقع "عدو عدوي صديقي". وبالتالي فليس من قبيل الصدفة أن يقفوا إلى جانب ألمانيا النازية التي كانت تخوض الحرب آنذاك ضد فرنسا المستعمرة (بكسر الميم) لتونس، وضد انقلترا (الحامية الرئيسية آنذاك للصهيونية). وقد زاد في ترسيخ هذا الموقف لديهم مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني الذي طالب في نداءاته المتكررة كل مسلمي المعمورة بشد إزر ألمانيا.

وكانت الكثير من الدلائل تشير حين استولى الألمان على تونس في بداية نوفمبر 1942 إلى أن العد التنازلي قد بدأ بالنسبة لألمانيا، خاصة بعد فشلها في القضاء على كل من انقلترا والاتحاد السوفياتي، وبعد دخول الولايات المتحدة الأمريكية غمار الحرب ضدها، وهذا ما يفسّر الاحترازات التي بدأت تساور بعض الوطنيين "المسلمين" وخاصة منهم المنتمين إلى الحزب الحر الدستوري الجديد حول جدوى التعاون مع دولة سائرة نحو الانهزام. وقد جلب الألمان إلى تونس بهدف الحد من تفاقم هذه الاحترازات موسى الحسيني أخ مفتي فلسطين المشار اليه آنفا وبعض الطلبة العراقيين وكلّفوهم بالدعاية لصالح "التعاون" التونسي الألماني"[12].

ان القادة الوطنيين بدون أي استثناء لم يترددوا لحظة واحدة في الوقوف إلى جانب اليهود المضطهدين من قبل الألمان. وينبع هذا الموقف من ايمانهم بأن هؤلاء اليهود مواطنون تونسيون لا فرق بينهم وبين المواطنين المسلمين. وقد دعا الحزب الدستوري الجديد في العديد من المرات مناضليه وأنصاره إلى عدم الانسياق وراء الدعاية النازية التي عملت على قدم وساق على تأليب التونسيّين المسلمين على

اليهود[13]. أما المنصف باي، ملك البلاد الذي كان قريبا من الشعب، فقد تحدّى الألمان ورفض التوقيع على القانون المتعلق باخضاع اليهود لأعمال السخرة[14].

وقد اضطر النازيون، أمام الضغط الذي جوبهوا به من قبل الوطنيين "المسلمين" إلى اعفاء يهود تونس العاصمة من حمل النجمة الصفراء. لقد كان هؤلاء الوطنيون يهدفون من وراء تصديهم للسياسة اللاسامية للنازيين إلى تحويل أنظار اليهود عن الحركة الصهيونية وتقوية الاحساس لديهم بالانتماء إلى تونس. وقد اعترف حتى أكثر الصهاينة رجعية، وهم التنقيحيون بوقوف من أسموهم بـ "النخبة النيرة والشريفة من المسلمين" إلى جانب اليهود في محنتهم القاسية[15].

ان الحزب الدستوري الجديد هو التنظيم السياسي "المسلم" الوحيد الذي ضمّ في صفوفه بعض اليهود.

إنّ اليهود غير الصهاينة، بصفتهم ينتمون إلى طائفة دينيّة شديدة الاحساس بضعف وزنها السكاني، لم يتواجدوا بصفة ملحوظة إلاّ في الحركتين الشيوعية والاشتراكية الديموقراطية، وهما التنظيمان السياسيان الوحيدان في تونس اللذان ناهضا الدين والقومية.

إنّ أغلب اليهود في تونس، بما فيهم الصهاينة، كانوا موالين قلبا وقالبا لفرنسا، حتى أنّ بعضهم كان "ملكيا أكثر من الملك"، وفات في عدائه للحركة الوطنية التونسية غلاة الاستعماريين الفرنسيين أنفسهم، وذلك بشهادة الكاتب اليهودي أصيل تونس ألبار ممي (ALBERT MEMMI)[16]. ان تمثل الحضارة الفرنسية قد أصبح، بعد مضي أكثر من نصف قرن على الحضور الفرنسي بتونس، الظاهرة الطاغية في صفوف هؤلاء اليهود. وقد عبّر عن هذه الحقيقة بصدق اليهودي صؤول شملا SAUL CHEMLA الذي أصدر بتونس سنة 1939 كتيبا يحمل العنوان المعبر التالي "الذاتية اليهودية تحتضر".

إنّ الحزب الدستوري الجديد - رغم دعايته المكثّفة لاستقطاب اليهود - لم يجلب إليه إلاّ عددا محدودا جداً من أعيانهم مثل أندري باروش (ANDRÉ BAROUCH) وميشيل حدّاد (MICHEL HADDAD) وألبار بسيّس (ALBERT BESSIS) أحد ممثلي اليهود في المجلس الكبير الذي وقّع يوم 6 نوفمبر 1944 على "ميثاق الجبهة التونسية" الذي طالبت بمقتضاه عدّة منظمات وعناصر وطنية بالاستقلال الدّاخلي للبلاد.

لقد كانت الأغلبيّة السّاحقة من اليهود في تونس متعلقة شديد التعلق بفرنسا، ومقتنعة بأنّ مواقف قادة الحزب الحر الدستوري الجديد السّلمية من اليهود لا تعكس موقف الأغلبية من السكان "المسلمين"، الذي هو موقف أقل ما يقال عنه أنّه غير ودّي في نظرها.

لقد حاول قادة الحزب الدستوري الجديد كل استطاعتهم لطمأنة اليهود على مستقبلهم في تونس، فقد كتب على سبيل المثال الحبيب بورقيبة في رسالة بالفرنسيّة بتاريخ 20 أفريل 1952 متحدثا عن المسجونين الوطنيّين في رمادة بالصحراء التونسيّة : << ... إنّ أحسن معبّر عن حركتنا هو وجود يهود ومسلمين في هذا المحتشد على أبواب الصحراء من المناضلين والمضحين في سبيل نفس المثل الوطنية المنادية بالعدل والحريّة. وسيتواصل هذا الواقع طالما بقي الحزب الدستوري الجديد قائما >>[17].

إنّ من بين المسجونين اليهود في سجن رمادة أندري باروش الذي ولد في تونس عام 1906، وكان موردا للحرير أثناء الحرب العالميّة الثانية والسنوات التي تلتها، واستطاع جمع ثروة كبيرة بفعل استغلاله لظروف السّوق السّوداء، وهو ما أثار استنكار صغار الحرفيّين والتجار الذين كانوا منخرطين بكثافة في الحزب الحر الدستوري الجديد. وقد "غفر" له صنيعه هذا قادة الحزب الدستوري الجديد، وأصبح من مسيّري

الاتحاد التونسي للصناعة والتجارة بداية من 1948 بصفته رئيس جامعة تجار الأقمشة، وانخرط في الحزب الحر الدستوري الجديد، وكان مديرا لجريدة LE PETIT MATIN اليوميّة التي صدرت بين 1956 و 1967. انتخب في مؤتمر صفاقس للحزب الدستوري الجديد (1955) عضوا في المجلس الملّي. وبعد استقلال البلاد، شغل خطتي كاتب دولة للأشغال العموميّة ثم كاتب دولة للاسكان، وذلك في الفترة بين أفريل 1956 و فيفري 1958[18].

ونشير كذلك إلى ألبار بسيّس شغل أيضا خطة وزاريّة غداة الاستقلال.

لقد أصبحت التحركات "المسلمة" ضدّ الصهيونيّة ميسورة أكثر بعد أن تقشع الاحتلال النازي عن تونس وتوقفت المعارك بها، وقد عادت "لجنة إغاثة فلسطين الشبان" التابعة للحزب الحر الدستوري التونسي لسالف نشاطها المتمثل في جمع التبرعات المالية لفائدة الفلسطينيين. إلاّ أن نشاط هذه اللجنة يعتبر نشاطا باهتا جدا بالقياس إلى النشاط الفياض الذي بذلته "جمعية الشبّان المسلمين" لفائدة القضية الفلسطينية، فهذه المنظمة استطاعت أن تكتسب بسرعة تأييدا كبيرا في أوساط طلبة الجامعة الزيتونية وأساتذتها. وقد أسست بالاشتراك مع بعض هؤلاء الأساتذة مثل الشاذلي بن القاضي والفاضل بن عاشور تنظيمين هما "لجنة الدفاع عن فلسطين العربية" و "فرع المؤتمر الإسلامي بتونس لحماية القدس الشريف". ولم تقصر حملاتها الدعائية لفائدة فلسطين على العاصمة تونس، بل عممتها على المدن والقرى التي كانت فيها فروع للجامعة الزيتونية مثل القيروان ومساكن وصفاقس وتوزر ونفطة. وقد تنوع نشاطها، فكان إما خطبا في المساجد أو مقلات صحفية أو جمعا للتبرعات المالية. وقد استطاعت أن تنفذ إلى بعض الأوساط الشعبية عن طريق الطلبة الموالين لها. وليس أدل على ذلك من نجاح بعض الاضرابات العامة التي دعت إليها مثل اضرابي مساكن وطبربة[19] للاحتجاج على التقرير الذي أصدرته اللجنة الانقلو -

أمريكية في أفريل 1946 عقب التحقيقات الميدانية التي قامت بها في فلسطين. أما الحزب الدستوري الجديد، فقد كانت أغلب عناصره القيادية - رغم مساندتها للفلسطينيين - لا تخفي تبرمها من تعاظم اهتمام التونسيين بما يجري في فلسطين وانصرافهم عن النضال ضدّ فرنسا وحلفائها المحليين في تونس.

وقد قدم الحبيب بورقيبة الذي كان آنذاك مقيما في القاهرة إلى اللجنة الانقلو - أمريكية تقريرا عن الأوضاع في فلسطين نيابة عن مكتب المغرب العربي[20].

إنّ اغفال بورقيبة الاشارة في هذا التقرير إلى دعم الولايات المتحدة الأمريكية للحركة الصهيونية العالمية كان من باب "التكتيك" الذي يهدف إلى تعميق دعم الامريكيين للحركة الوطنية التونسية وبقية حركات التحرر بالمغرب العربي في ظرف شددت فيه فرنسا قبضتها على الشعوب المغاربيّة. وما تجب ملاحظته هنا هو ان الولايات المتحدة الأمريكية كانت تسعى آنذاك - في إطار تناقضها مع فرنسا وانقلترا - إلى تقويض سيطرة هاتين الدولتين في المستعمرات وانصاف المستعمرات، وذلك عن طريق الارتباط بحركات التحرّر الوطنية التي تقودها أحزاب غير شيوعية.

لقد شكل الحزب الدستوري الجديد لجنة لجمع التبرعات المالية لفائدة الفلسطينيين، وذلك بعد أن تفجر السخط الشعبي في شكل اضرابات عامة واجتماعات احتجاجية ولوائح استنكار على اثر اصدار منظمة الأمم المتحدة لقرارها القاضي بتقسيم فلسطين بين الصهاينة والعرب يوم 29 نوفمبر 1947.

لقد أصبحت القضية الفلسطينية في الفترة بين صدور قرار التقسيم وأواسط 1948 حديث التونسيين في كل مكان وشغلهم الشاغل. وقد استطاعت القيادات الوطنية "المسلمة" في هذه الفترة أن تتحكم في قواعدها بحيث لم تشهد البلاد، مثلما كان منتظرا، اصطدمات بين اليهود والمسلمين فيما عدا بعض المشاجرات الطفيفة. وقد ساعد على بقاء الوضع هادئا بين اليهود والمسلمين احجام السلطات الفرنسيّة عن

القيام باستفزازاتها المعهودة، خاصة وقد شهد الظرف توترا شديدا بين اليهود والمسلمين كان ينذر بالانفجار.

إنّ الحدث الذي شدّ إليه كل الأنظار في هذه الفترة هو تطوع مئات من الشبّان التونسيين "المسلمين" للقتال في فلسطين ضدّ جحافل الغزو الصهيونيّة. وهؤلاء المتطوعون ينتسبون إلى الطبقات الشعبية وخاصة إلى الهامشيين. وهم كما يقول أحد تقارير أعوان الاستعمار[21] : << ... من الشبان الذين أعمارهم بين العشرين والخمسة والعشرين سنة، وبعضهم من العاطلين تماما، وبعضهم ممن يشتغلون بالخدمات اليومية>>. ويوجد من بين هؤلاء المتطوعين عشرات من طلبة الجامعة الزيتونية. وقد مثل هؤلاء المتطوعون من حيث الانتماء الجغرافي أغلب جهات البلاد. وقد اضطلع الحزب الحر الدستوري التونسي والفاضل بن عاشور الأستاذ بالجامعة الزيتونية وخاصة جمعية الشبّان المسلمين - التي أسست تنظيما جديدا سمته "اللجنة العليا للدفاع عن فلسطين العربية" بدور كبير في تأطير عمليات التطوع.

وقد حاولت السلطات الفرنسيّة ارهاب محمد الصادق بسيس رئيس جمعية الشبّان المسلمين بتلفيق قضية "عدلية" ضده، لكنها تراجعت تحت الضغط الجماهيري الفوري. وقد وصل عدد المتطوعين إلى حدّ 30 ماي 1948 حسب مصالح الاستعلامات 2676 شخصا[22]. وقد تحولت الطلائع الأولى لهؤلاء المتطوعين إلى المشرق العربي قبيل الاعلان عن ميلاد دولة اسرائيل (في 14 ماي 1948). إلا أن أغلبهم لم يتحرك في اتجاه فلسطين إلاّ بعد اندلاع المعارك بين الجيوش العربية والغزاة الصهاينة في ماي 1948. وقد حاولت السلطات الفرنسيّة عرقلتهم بشتّى الوسائل، لكنها لم تفلح. وقد استطاع جنودها بالتعاون مع بعض الخونة المحليين، نصب كمين قاتل قرب قرية القطار بالجنوب التونسي لـ "فلاقة زرمدين" الشهيرين الذين كانوا يرومون التوجه إلى فلسطين[23] بعد أن أقضوا مضاجع الاستعماريين الفرنسيين سنوات طويلة بعملياتهم

الغوارية.

إنّ أغلب المتطوعين لم يصلوا إلى فلسطين، بل اضطروا إلى العودة على أعقابهم على إثر توقف المعارك في فلسطين أو وقع ترحيلهم بالقوة من قبل السلطات المصريّة. وقد عانوا كثيرا من الجوع والعطش والعراء والمطاردة بالرصاص أحيانا من قبل الفرنسيّين والبريطانيّين وعملائهم المحليّين في كل من ليبيا ومصر خاصة. وقد قُتل ثمانية تونسيّين في اشتباك بين المتطوعين التونسيّين وعناصر من قبيلة أولاد علي في مصر. ورفض بعض المتطوعين ترحيلهم من مرسى مطروح إلى القاهرة، وأضرموا النار في القطار احتجاجا على منعهم من الالتحاق بجبهات القتال في فلسطين(24).

إنّ المتطوعين الذين قاتلوا الصهاينة عددهم محدود جداً، وقد قتل بعضهم في المعارك(25). كما استعمل آخرون في الانقلاب العسكري الذي قام به حسني الزعيم في سوريا ضدّ شكري القوتلي، وكذلك في انقلاب سامي الحناوي على حسني الزعيم(26).

لقد زار المتطوعين التونسيّين في مراكز التدريب العسكري بعض الزعماء التونسيّين الذين كانوا مقيمين في القاهرة مثل الحبيب بورقيبة ويوسف الرويسي والحبيب ثامر ورشيد ادريس. وقد استقطب يوسف الرويسي بعض هؤلاء المتطوعين وساعدهم على الالتحاق ببعض الأكاديميّات العسكريّة بدمشق وبغداد.

أما بورقيبة، فقد أثنى على شجاعة المتطوعين، لكنه استغرب من عددهم المرتفع، وحثهم على تعلّم استعمال السّلاح والمحافظة قدر الامكان على أرواحهم حتى يكون بامكانهم المساهمة لاحقا في تحرير بلادهم تونس.

وقد أصيب بورقيبة بخيبة أمل كبيرة في زعماء عرب الشرق الأوسط الذين عايشهم عن قرب، واكتشف أنهم مرادف البلاغة الجوفاء والعقم السياسي والذهنية "القروسطية" والتعلق المرضي بالماضي العربي المجيد. لذلك ليس من قبيل الصدفة أن يصرّح لجريدة LE FRANC TIREUR (القنّاص) الصادرة بفرنسا ليوم 7 فيفري 1952

قائلا في نبرة يأس شبه تام من العرب والمسلمين" << ... اعتقد أنه من الضروري الارتباط بعلاقات حسنة باسرائيل، ولوكنا أحرارا لناضلنا في العالم العربي من أجل هذا الهدف>>. لقد أصبح بورقيبة مقتنعا بأن إسرائيل تحظى بتأييد كل بلدان "العالم الحر" وكذلك الاتحاد السّوفياتي "الاشتراكي"، ومرد ذلك التأييد إمّا المصلحة أو الشعور بالذنب أمام المذابح النازية الرهيبة لليهود، لذلك ارتأى أن الواقعيّة والتقييم الصحيح لموازين القوى على المستوى العالمي يقتضيان الاعتراف باسرائيل رغم أنّها نتاج مظلمة ذهب ضحيّتها الفلسطينيون. وكان هدف بورقيبة من وراء هذا الموقف البراغماتي هو الحصول على مكاسب للحركة الوطنية التونسيّة المطالبة باستغلال البلاد عن فرنسا. إن خط بورقيبة الثابت هو ضرورة تسخير كل شيء لتحقيق استقلال تونس حتى ولو أدى ذلك إلى الدخول في تناقض مع قضايا عادلة - عربيّة كانت أو اسلامية.

ب) موقف الحزب الشيوعي التونسي والحركة الاشتراكيّة الديمقراطيّة:

لقد ساير الحزب الشيوعي التونسي بالاعتراف بقرار تقسيم فلسطين الصادر عن منظمة الأمم المتحدة، مساندا بذلك الموقف السّوفياتي. وقد قلّص هذا الانقلاب في الموقف الشيوعي كثيرا من التعاطف - المحدود بطبيعته - الذي كان يتمتع به الحزب في صفوف التونسيّين "المسلمين". وقد اعتبر الحزب الشيوعي التونسي قرار التقسيم ضربة قاصمة للامبريالية البريطانية وحلفائها العرب المنضوين تحت لواء منظمة "الجامعة العربية". ويقول في تبريره لهذا الموقف[27] <<...ان الامبريالية الانقلو - ساكسونية لم تنجح في السيطرة على فلسطين وفي اجهاض انعتاقها التام إلاّ بالتفرقة بين العرب واليهود في فلسطين>>. ان الحزب بعد أن كان ينفي نفيا قاطعا وجود "أمة يهودية" تماشيا مع موقف ماركس ولينين في هذه المسألة، أصبح يرى في المجموعات

التراكمية من المستوطنين الصهاينة الذين يحملون صفات ومميزات بلدانهم الأصلية "قومية يهودية في طريق التكوين". يقول محمد جراد في هذا الصدد[28] <<...ان موقفنا يعترف ليهود فلسطين بالحق في اعتبار أنفسهم اليوم قومية في طريق النشوء والتطور. ان الشيوعيين بتأييدهم لقيام دولة اسرائيل يعبرون في نفس الوقت عن وقوفهم إلى جانب القومية اليهودية التي لها مميزاتها الخاصة، لكن على أرض فلسطين فقط، حيث تمتلك الحق في تقرير مصيرها بكل حرية. أما اليهود المتواجدون في البلدان الأخرى من العالم، فان لهم نفس مميزات الأوساط التي يعيشون فيها، ولا يمكن لهم بالتالي المطالبة بالجنسية الاسرائيلية>>. ويرى الحزب الشيوعي التونسي أن <<... الحزب الشيوعي لاسرائيل قد جسّد إرادة الجماهير الشعبية اليهودية الساعية إلى تحويل دولة اسرائيل إلى دولة ديموقراطية رغم أنف الزعماء الصهاينة وأسيادهم الأمريكيين>>[29]. اما عن يهود تونس وصهاينتها، فان الحزب يحدّد موقفه منهم كما يلي : << ... انه ليس من صالح يهود تونس، رغم انسياقهم أحيانا وراء تضليل الحركة الصهيونية الرجعية أن يفصلوا قضيتهم عن قضية مجموع الشعب التونسي، كما أنه عليهم أن يحترسوا من أحابيل بعض الصهاينة الذين لا يخدمون إلا مصلحة الاستعمار في بلادنا>>[30].

أما الاشتراكيّون الديموقراطيّون، فقد اعتبروا أنّ دولة اسرائيل تستمد شرعيّتها من المذابح التي تعرّض لها اليهود على أيدي النازيّين، إلا أنهم لم ينبسوا ببنت شفة عن مآل الفلسطينيّين[31] في ظل الظروف الجديدة.

لقد كان يهود تونس "السفاراديم" يعتقدون أنه بسبب ما لحق بني دينهم من وحشية النازيين العنصريين، فان دولة اسرائيل ستكون محصنة ضدّ العنصرية. إلا أنهم ما أن حلوا بـ "أرض الميعاد" حتى اكتشفوا الحقيقة المريعة، وهي أن "دولة اسرائيل الاشكنازية"، فضلا عن سياستها التمييزية الاجلائية إزاء العرب الفلسطينيين، فهي لا

تتورع عن ممارسة العنصرية ضدهم أيضا. وقد قال أحد هؤلاء اليهود بكل مرارة في رسالة وجهها إلى أحد أقربائه ونشرت بعض مقاطعها بجريدة L'AVENIR DE LA TUNISIE (مستقبل تونس) الشيوعية : << ... انهم يعتبروننا، نحن أصيلي شمال افريقيا بمثابة السينغاليين في الجيش الفرنسي>>[32].

المصادر والمراجع والحواشي

***

1) GUEZ (P.) : **Six mois sous la botte**, Tunis, 1943.

GUEZ (G.) : **Nos martyrs sous la botte allemande ou les ex-travailleurs juifs racontent leurs souffrances**, Tunis, 1946.

BORETZ (E.): **Tunis sous la croix gammée**, Alger, 1944.

BORGEL (E.) : **Etoile jaune et croix gammée, récit d'une servitude**, Tunis, 1944.

ATTAL (R.) : Tunisian jewry during the last twenty years, **the jewish journal of sociology**, volume II, N° 1, Juin 1960.

SABILLE (J.) : **Les Juifs de Tunisie sous vichy et l'occupation**, Paris, 1954.

انظر أيضا و ع ح ت، س D ص 224 م 17.

2) و ع ح ت، إدارة الاستعلامات (1941 - 1938) وثائق غير مرقمة.

3) KRAIEM (M.) : C.G.T. et syndicalisme tunisien, **les cahiers du** C.E.R.E.S, N° 40 - 41 - 42 et 43, Tunis, 1975.

4) و ع ح ت، س D ص 224 م 17.

5) أسس هذه اللجنة يوم 3 - 6 - 1943 الجنرال دي غول (رئيس الجمهورية الفرنسية لاحقا) وجيرو في الجزائر.

6) انظر تقرير رفعه بتاريخ 13 - 11 - 1944 شيخ مدينة تونس إلى الكاتب العام للحكومة التونسيّة، و ع ح ت س A ص 289 م 8 و 17.

7) تأسس في القدس سنة 1922.

8) BENSIMON-DONATH (D.): المصدر المذكور سابقا ص 559

9) المصدر ذاته

10) La Statistique générale de la Tunisie.

11) SEBAG (P.) : Histoire des Juifs ... المرجع المذكور سابقا ص 259

ملاحظة : لم يبق في البلاد الفرنسيّة عام 1995 سوى 1778 يهوديًا حسب وثائق **American Joint COMMITEE**

انظر : Association arts et traditions populaires des Juifs de Tunisie (PARIS), l'année 1996.

12) KRAIEM (M.) : Contribution à l'étude de l'histoire du mouvement national tunisien pendant la 2ème guerre mondiale, **Revue d'Histoire maghrébine**, N°10 - 11, janvier 1978.

13) AGERON (CH.R.):contribution à l'étude de la propagande allemande au Maghreb pendant la seconde guerre mondiale,**Revue d'histoire maghrébine**, N°7-8,janvier 1977.

14) **Livre blanc tunisien des évènements qui amenèrent la déposition, la déportation et l'exil de son altesse Sidi Mohamed Moncef Bacha Bey**, Tunis, 1946.

15) ج LA GAZETTE D'ISRAEL ليوم 6 - 6 - 1946.

16) MEMMI (A.): **Portrait du colonisé**, Utrecht, 1966, P. 53.

17) BOURGUIBA (H.): **La Tunisie et la France**, Paris, Julliard, 1954, P 308.

18) التيمومي الهادي : تاريخ تونس الاجتماعي (1881 - 1956)، ط 2، تونس، دار محمد علي الحامي، 2001، ص 46 و 47.

19) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و - 11 و 12.

20) Histoire du mouvement national tunisien : Pour préparer la 3ème épreuve (**Le néo-Destour brise le silence** (1944 - 49), C.D.N., Tunis, (date de parution non indiquée) pp 257 - 264.

21) و ع ح ت، س A ص 289 م 8 و 34.

تقرير محرر بالعربية رفعه "قائد" سوق الخميس بتاريخ 7 جوان 1948 إلى الوزير الأكبر.

22) Histoire du mouvement national... المصدر المذكور سابقا ص 513

23) CASEMAJOR (R.) : **L'action nationaliste en Tunisie : Du pacte fondamental de M'hammed Bey à la mort de Moncef Bey (1857 - 1948)**, Tunis (date de parution non indiquée), p. 283.

24) SRAIEB (N.) : Les réactions tunisiennes à la guerre de Palestine de 1948 dans : **Les relations entre le Maghreb et le Machrek : des solidarités anciennes aux réalités nouvelles**, Cahier N° 6, Paris, C.N.R.S, (Colloque d'Aix en Provence, 1981).

25) العارف (عارف) : النكبة، نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود، الجزء 6، بيروت - صيدا، المكتبة العصريّة للطباعة والنشر، 1956.

26) أبونادي (سليمان محمد) : التونسيّون والقضية الفلسطينيّة عام 1948، شهادة كفاءة في البحث باشراف الأستاذ الهادي التيمومي، كلية الآداب والعلوم الانسانيّة بتونس، 1988.

27) ج L'AVENIR DE LA TUNISIE ليوم 13 - 12 1947.

28) ج L'AVENIR DE LA TUNISIE ليوم 14 - 8 - 1948.

29) ج L'AVENIR DE LA TUNISIE ليوم 8 - 1 - 1949.

30) ج L'AVENIR DE LA TUNISIE ليوم 14 - 8 - 1948.

31) ج TUNIS SOCIALISTE ليوم 15 - 5 - 1948.

32) ج L'AVENIR DE LA TUNISIE للفترة من 2 إلى 15 جويلية 1949.

الخاتمة العامة

يمكن أن نقول حوصلة لكل ما ورد في هذه الدراسة :

1) ان الحركة منذ أن ظهرت بواكيرها في تونس في مغيب القرن التاسع عشر لم تتحول إلى حالة جماهيرية في أوساط يهود تونس إلا في الأربعينات من القرن العشرين.

2) إنّ عدم وجود "مشكلة يهودية" في تونس لا يعني أن اليهود لم ينلهم أي اضطهاد، إلا ان ما ينبغي التشديد عليه هو أن هذا الاضطهاد لم يكن ليقع أو ليبلغ الحدّة التي بلغها أحيانا لولا تشجيع السلطات الاستعمارية الفرنسيّة عليه، انطلاقا من سياستها القائمة على استعمال اليهود في فترات معينة كأداة لفك زخم الصراع الطبقي - الوطني وتطويق مضاعفاته.

3) لقد نشأت الحركة الصهيونيّة في تونس وترعرعت في أحضان صغار البرجوازيين اليهود ومتوسطيهم، ثم تسللت بعد ذلك بقليل لِتُطْبِقَ على بعض الأوساط الشعبيّة اليهوديّة، إلاّ أنّها ظلت لفترة طويلة تتملق مساندة كبار البرجوازيين، ولكنها لم تفلح في استجلاب البعض منهم إلا في مرحلة متأخرة جدا وبعناء كبير.

4) بذلت القيادات الصهيونيّة المحلية نشاطا دعائيا كبيرا، وليس أدل على ذلك من العدد المرتفع للجرائد التي أصدرتها في الفترة بين 1897 وأوائل الخمسينات من هذا القرن، وهو عدد يفوق الثلاثين.

5) اتسمت الحياة الداخلية للحركة الصهيونيّة بحدة التناحرات بين الصهاينة الذين توزعت ولاءاتهم على التيارات التي عرفتها الحركة الصهيونيّة العالمية آنذاك.

6) ان عدم وجود "مشكلة يهودية" في تونس لم يمنع أغلب صهاينة تونس من

الارتماء في أحضان تيار موغل في "اليمينية" هو التيار التنقيحي. وملابسات هذا السلوك السياسي الذي يبدو في ظاهره غريبا، تنجلي حين ندرك :

- ان من المميزات التي انفرد بها التنقيحيون في تونس عن غيرهم من الصهاينة هي أنهم استطاعوا أن يقيموا لأنفسهم ركائز قوية نسبيا في صفوف البروليتاريين اليهود، وهؤلاء المعوزون الذين لم تكن تشدهم إلى تونس مصالح مادية ذات بال، كانوا ميالين بدافع وضعهم المادي المتردي إلى السير في ركاب من يُمَنِّيهم من الصهاينة بالغنم الكبير في أقرب الآجل. وقد وجدوا ضالتهم المنشودة في التنقيحيين الذين كانوا يعدونهم بخلق دولة يهودية في أسرع الأوقات، كلفهم ذلك ما كلفهم على كامل "الأرض التي تفيض لبنا وعسلا" (فلسطين).

- قدمت الحركة التنقيحية العالمية لاتباعها في تونس دعما لا يستهان به، بينما اتخذت الحركات الصهيونيّة العالمية الأخرى تجاه مؤيديها في تونس مواقف ليس من المبالغة نعتها باللامبالاة.

- لم يشارك صهاينة تونس بحكم وجودهم في ساحة صهيونية ثانوية، في القرارات المصيرية التي اتخذتها الحركة الصهيونية العالمية، وظلوا قابعين في موقع "المتفرج"، وغني عن البيان أن المتفرج الذي يكون خارج الميدان يميل دائما إلى التطرف في مواقفه وأحكامه، فليس من قبيل الصدفة إذن أن تستهوي التنقيحية المتطرفة عددا كبيرا من صهاينة تونس.

- وجود عناصر ذات قدرات ذاتية مرموقة في صفوف التنقيحيين مثل ألفراد فالنازي، فيليكس علوش، ألفراد لوزان ...

- انحياز ألفراد فالنزي مؤسس أول تنظيم صهيوني في تونس، بكل ما لزعامته آنذاك للحركة الصهيونيّة في تونس من تأثير إلى صفوف التنقيحيين سنة 1925.

- يفضل أغلب الصهاينة المنسجمين مع أنفسهم الانضواء، تحت لواء التنقيحية،

لأنها تبدو لهم في مظهر الصهيونيّة الخالصة التي لا تحاول التخفي وراء أقنعة الماركسية أو الاشتراكية الديمقراطية، وان ما يعزز هذه الحقيقة هو أن أغلب اليهود الذين انضموا إلى التنقيحية ظلوا دائما أوفياء لها - فيما عدا بعض الاستثناءات - في حين عاش أتباع الاتجاهات الصهيونيّة الأخرى متأرجحين بين الشك واليقين.

7) غضت السلطات الفرنسيّة النظر عن النشاط الصهيوني في تونس، ورغم أنها كانت ممتعضة من اجماع الصهاينة على رفض تمثل حضارتها، فقد كانت مع ذلك تفضل أن يدخل هؤلاء اليهود الحركة الصهيونيّة، ويقفوا من حضارتها ذلك الموقف، على أن ينضموا إلى الحركات السياسية التي كانت تمثل خطرا حقيقيا على مصالحها مثل الحزب الحر الدستوري الجديد.

8) ان يهود تونس الذين مارسوا نشاطا سياسيا ضمن حركات مناهضة للصهيونيّة - نظريا على الأقل - لم يتواجدوا بشيء من الكثافة إلا في صفوف الحركات السياسية التي تنادي بالأممية (L'INTERNATIONALISME) مثل الحركة الشيوعيّة أو الحركة الاشتراكية الديمقراطية، ويرجع ذلك إلى أن انتماء هؤلاء اليهود إلى أقلية سكانية ودينية يجعلهم ينظرون بكثير من الاحتراز إلى الحركات السياسيّة التي تقف على أرضيتي الدين والقومية مثل الحزبين الدستوريين.

9) ان الاشتراكيّين الديمقراطيين المتحلقين حول جريدة TUNIS SOCIALISTE (تونس الاشتراكية) كانوا موالين "باعتدال" للصهيونيّة.

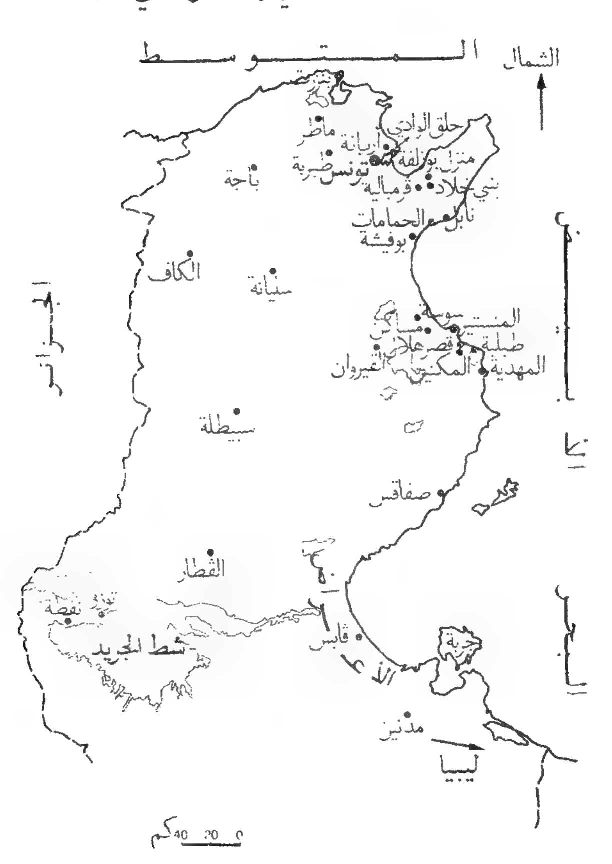
10) ظل الشيوعيّون في تونس يعارضون الصهيونيّة بشدّة، وانطلاقا من رؤية معمقة نسبيًا، لكنهم تراجعوا تماما وبصفة فجئية عن ذلك الموقف، وانساقوا إلى تزكية قرار تقسيم فلسطين عام 1947 تماشيا مع الموقف السّوفياتي.

11) ان الحركات السياسيّة التي واجهت الصهيونيّة بشيء من الحزم هي الحركات التي كانت متشددة في تعلقها بالاسلام، وتحاكم الصهيونيّة من هذا

المنطلق، مثل جمعية الشبّان المسلمين أو بدرجة أقل الحزب الحر الدستوري، إلاّ أنّ مواجهة هذه الحركات السياسيّة للصهيونيّة، كانت مقطوعة الصلة بالفهم الصحيح للصهيونيّة لأنها تخلط بين اليهود والصهيونيّة.

12) أما الحزب الحر الدستوري الجديد الذي قاد منذ أواخر ثلاثينات القرن العشرين الحركة الوطنية التونسيّة واستطاع تحقيق استقلال البلاد، فقد كان معارضا للصهيونيّة ومن موقع لا يخلط بين هذه الايديو لوجية واليهودية، وكانت سياسة زعيم الحزب الحبيب بورقيبة مزيجا من الالتزام بالمبدإ ومن البراغماتيّة، وتراوحت مواقفه بين معارضة الصهيونيّة من جهة وإرادة توظيف التأييد العالمي لاسرائيل لخدمة قضية استقلال تونس من جهة ثانية.

التجمعات السكنية التي ورد ذكرها في الدراسة



كشاف التنظيمات والتيارات الصهيونية في تونس

فهرس التنظيمات السياسية التي كانت لها مواقف من الحركة الصهيونيّة في تونس

كشاف الاعلام

الألقاب مرتبة دون اعتبار (ال) التعريف و "بن" و "ابن" و "أبو"

كشاف الأماكن

أ - عرضنا عن ذكر أسماء الأماكن التي تواتر ذكرها في ثنايا الدراسة مثل :

تونس ، فلسطين ، فرنسا.

ت:1/23/1/06 تاريخ المقدم:20/2/2006

د - الهادي التيمومي :

* من مواليد 13-1-1949 بالكبّارة (نصر الله) القيروان (تونس)

* الإجازة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس، 1971.

* دكتوراه حلقة ثالثة، جامعة نيس (فرنسا)، 1975 (اختصاص تاريخ معاصر).

* دكتوراه دولة، جامعة تونس 1، 1997 (اختصاص تاريخ معاصر)

* يعمل حاليا أستاذا في كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس العاصمة.

* نشر المؤلفات التالية :

- النشاط الصهيوني بتونس (1897-1948)

دار محمد علي الحامي، 1982

- نقابات الأعراف التونسيين (1932-1955)

دار محمد علي الحامي، 1983

- انتفاضات الفلاحين في تاريخ تونس المعاصر : مثال 1906.

بيت الحكمة، قرطاج 1994.

- الجدل حول الامبريالية منذ بداياته إلى اليوم (مع مقدمة لسمير أمين)

دار محمد علي الحامي، دار الفارابي، 1994.

- تاريخ تونس الاجتماعي (1881-1956)

دار محمد علي الحامي، 1997.

- الاستعمار الرأسمالي والتشكيلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية : الكادحون "الخمّاسة" في الأرياف التونسيّة (1861-1943) جزءان، تونس، دار محمد علي الحامي - كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس، 1999.

- للمراسلة -

الهادي المقدم (التيمومي) 23، نهج بوغرطة، 2010، منوبة الوسطى، الجمهورية التونسية.

النشاط الصهيوني بتونس

1897 - 1948

ننشر الطبعة الثانية من هذا الكتاب بعد عشرين سنة وبعد نفاده من سنين، وبعد أن قام الدكتور الهادي التيمومي بالمراجعة والإضافة.

هو كتاب تاريخي بكل المعاني:

- فهو يسلط الضوء على ما قامت به الصهيونية من أنشطة حوّلت بها أغلب يهود تونس في المرحلة المدروسة إلى صهاينة من خلال متابعة الوثائق المكتوبة في هذه المرحلة، متابعة علمية شاملة.

- وهو تاريخي بالنسبة لدار محمد علي لأنه فعلاً كان أول منشوراتها. وهي تنشره مجدداً لإحياء الذكرى العشرين لتأسيسها، مقتنعة أن الموضوع لا يزال يحتاج الى البحث.

الناشر





السعر : 6,500 د